

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة والآداب والحضارة العربية

ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية



الحبيب ثامر : (ت.1949) علي الحمامي (ت.1949)
ومحمد أحمد بن عبود (ت.1949)



بحث لنيل شهادة الماجستير
في الحضارة العربية المعاصرة



الأستاذ المشرف :
محمد الناصر التفزاوي

إعداد الطالبة :
جليلة الموندب

السنة الدراسية الجامعية :
2006 - 2005

جامعة تونس

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم العربية
الماجستير في اللغة و الآداب والحضارة المعاصرة

بحث لنيل شهادة الماجستير
في الحضارة العربية المعاصرة بعنوان :

ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية: الحبيب ثامر(ت.1949) علي
الحمامي(ت.1949) و امحمد أحمد بن عبود(ت.1949)

الأستاذ المشرف:
محمد الناصر النفزاوي

إعداد الطالبة:
جليلة المؤدب

الإهداء:

إلى اللذين منهما وجدتُ و لولاهُما لما كنتُ
إلى أبي و أمي وإلى جميع أفراد عائلتي و إلى من يسكن في القلب
و إلى روح جدتي التي توفيت بعد أسبوع من مناقشة هذا البحث و التي طالما
شجعتني على العمل و المثابرة.

شكر و امتنان:

إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد على إنجاز هذا العمل.

شكر خاص :

إلى الأستاذ محمد الناصر النفزاوي الذي لولاه لما كان هذا العمل على الهيئة التي هو عليها الآن.

تصدير:

"لقد نَسَبَ كثير من المفكرين أسباب تعميق حالة اللاتوازن بين الحضارتين [الغربية و العربية الإسلامية] إلى استفاقة متأخرة "للمصلحين" [العرب و المسلمين] و الحال أن دعوات الإصلاح كانت مُبْكَرَة و لكنها لم تنفُطَن إلى أسباب الخلل الحقيقية"

محمد الناصر النفزاوي، الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده- فرح أنطون، تونس
، مركز النشر الجامعي، 2000.

المقدمة

يتناول هذا البحث بالدراسة ثلاث شخصيات فكرية سياسية مغربية كان لها منذ ثلاثينات القرن العشرين و خاصة منذ أربعيناته دور أساسي في توجيه الحياة الفكرية السياسية في بلدان شمال إفريقيا أي المغرب العربي لاحقا إذ كانت من أنشط الدعاة إلى الفكرة المغربية في المهجر المصري ساهم بعضها في تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة سنة 1947 والتحق به البعض الآخر و نشط الجميع ضمن هذا المكتب و ضمن لجنة تحرير المغرب العربي التي تأسست في جانفي 1948 متظلة بظل محمد بن عبد الكريم الخطابي¹، فكان لها الأثر الحاسم

¹ - محمد بن عبد الكريم الخطابي، (1882-1963) زعيم سياسي، و رمز للنضال ضد الاستعمار في شمال إفريقيا ،قادر ثورة الريف في مراكش (1921-1926) سجن ثم نُفي إلى جزيرة لارينيون في المحيط الهندي. عند نقله إلى فرنسا التي كانت تنوي استغلاله للضغط على السلطان محمد بن يوسف ،نزل بمصر حيث حصل على اللجوء السياسي.ترأس لجنة تحرير المغرب العربي و ظل رافضا العودة إلى بلاده ، إيمانا منه بأن استقلالها ناقص حتى مات بالقاهرة.

في المزيد من ربط المغرب العربي بالشرق بل في ربط هذا المغرب بالعالم الإسلامي جميعه.

هذه الشخصيات المغربية الثلاث هي التونسي الحبيب ثامر (1909-1949) و الجزائري علي الحامي (1902-1949) و التطواني² أحمد أحمد بن عبود (ت.1949) الذين إن اختلفوا في البداية تنشئة اجتماعية ووضعا اجتماعيا بل مذهباً فكريا سياسيا فقد وحدث بينهم

الفكرة المغربية نهاية إضافة إلى وحدة الممات أيضا، إذ سقطت الطائرة التي كانت تقلهم في سماء كراتشي أثناء زيارة إلى الباكستان كان الهدف منها المشاركة في أول مؤتمر اقتصادي إسلامي دعت إليه هذه الدولة الإسلامية المستقلة حديثا³، فشابه وقع الخبر على المغاربة وقع الصاعقة حتى أن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي لم يشتهر بالمجاملة نعاهم على النحو التالي:

"أنعى إلى الأمة الإسلامية و العربية و خاصة المغرب العربي بمزيد من الأسى استشهد ثلاثة من أخلص رجالنا و أبرهم بقضية الحرية التي ندافع عنها فقد أودى حادث مشؤوم بحياة شهدائنا الأبرار الدكتور الحبيب ثامر و الأستاذ علي الحامي و الأستاذ محمد بن عبود"

و لكن كم هو عدد الذين يعرفون في تونس و الجزائر و مراكش (المغرب الأقصى) شيئا أو كثير شيء عن حياة هذا الثلاثي المغربي

و عن تفكيره السياسي ونشاطه المكثف في سبيل القضية الاستقلالية المغربية؟ إننا نعتقد أن عدد هؤلاء لا يعتدّ به إذا ما قسناه إلى مكانة هذه الرموز المغربية الثلاثة

²- تطوان أو تطاون و تطاوين تعني بالبربرية الريفية (نسبة إلى بلاد الريف الواقعة تحت الحكم الإسباني) العين أو العيون سواء أكانت عين الماء أم عين الإنسان ، انظر أحمد الرهوني (ت.1953) عمدة الراوين في أخبار تطاوين(مخطوط). انظر في الملاحق مختلف تسمياتها.

³- استقلت سنة 1947.

و سبب ذلك في نظرنا هو أن دول الاستقلال في كل من تونس و الجزائر و
مراكش عمدت منذ خمسينات القرن العشرين إلى اختيار فكرة الدولة القومية -Etat-
Nation فأنشأت كل واحدة منها معهدا العالي الخاص بحركتها الوطنية و صاغت
تبعا لذلك مصطلح "المغربية" بديلا عن مصطلح "المغربية" الذي كان هو السائد عند
موت الثلاثي موضوع هذه الدراسة.

لذلك رأينا أن من الفائدة أن نكتب،دعما مئا للفكرة المغربية التي لا يجب أن نفهم
منها موقفا معاديا للفكرة العربية، هذه الرسالة.

على أنه يجب علينا أن نوّكد أن سبب اختيارنا للموضوع ليس سببا "تأبينيا" و لكنه
ناتج عن إشكالية حقيقية هي: لِمَ ضعف هذا الإيمان بوحدة بلاد المغرب الذي سكن
قلب الثلاثي : ثامر - الحمامي - ابن عبود رغم أن الظروف العالمية لم تعد تسمح
بوجود حقيقي و كريم " للدول الفئات"

و منها دول المغرب العربي فهل كان الثلاثي " الشهيد" أكثر وعيا من قادة دول
الاستقلال أم أن " وراء الأكمة" يكمن شيء آخر لم يوله هذا الثلاثي قيمة تذكر بسبب
الظرف الذي عاش فيه وهو المسألة الاقتصادية على الرغم من أن واحدا من
الثلاثي و هو الجزائري علي الحمامي تمرّس بالشيوعية بل إن الدولة السوفياتية و
ظفته سنين عديدة بوصفه اختصاصيا في المسألة الزراعية ؟

إن يمكن القول تلخيصا لما سبق أن سبب اهتمامنا بهذا الثلاثي المغربي هو انتماؤه
إلى مجال جغرافي واحد و هو مجال المغرب.الذي كان يقع قبل الاستقلال في
منطقة الهيمنة الفرنسية (تونس و الجزائر و مراكش)

والإسبانية (الريف و المغرب الخليفي موطن ابن عبود) و مازالت تربطه بعد
الاستقلال روابط اقتصادية (كثافة التبادل التجاري)

و اجتماعية (الهجرة) و ثقافية (استعمال اللغتين الفرنسية و الإسبانية)
و سياسية بفرنسا و إسبانيا و بالحضارة الفرنسية خاصة على عكس بلاد المشرق
التي أثرت فيها الحضارة الأنقלו سكسونية أيما تأثير .

فوحدة المجال الجغرافي من ناحية و التأثير اللاتيني من ناحية أخرى (الفرنسي و الإسباني) في هذه البلدان الثلاثة هما اللذان دفعانا إلى تخير شخصيات فكرية و سياسية من كل واحد من هذه البلدان نحاول في هذا البحث رسم صورة لها علّنا نفهم لِمَ لم تساعد هاتان الوحدتان (وحدة المجال الجغرافي و وحدة العامل الخارجي المؤثر) في توحيد هذه

البلدان التي أفرطت الكتابات " التاريخية الرومنسية" ⁴ في كل بلد منها في التغني بمقومات الوحدة الأصلية فيها : وحدة الدين بل وحدة المذهب المالكي ووحدة اللغة ووحدة التاريخ (الدولة الموحدية) الخ... إذ أنّ الباحث و الباحثة المتتبعين للحياة السياسية في هذه البلدان سواء في فترة ما قبل الاستقلال أو في فترة ما بعد الاستقلال، لا يسعهما إلا أن يلاحظا أن بين قادة هذه البلدان جفوة تكاد تكون من قبيل الإرث المسموم الذي يورثه الآباء الأبناء و الأحفاد و الحال أن هؤلاء الآباء كانوا مثلما هو شأن الثلاثي موضوع الدراسة من دعاة الوحدة المغربية، لا يتصورونها إلا في إطار عربي أوسع و إطار إسلامي أكثر اتساعا.

لقد وضّحنا بما فيه الكفاية مضمون بحثنا و لكن كل بحث يجب أن يعتمد أولا تخطيطا معينا و أن يستند ثانيا إلى منهج أو مناهج يستتير بها. فما هو أولا التخطيط الذي اعتمدناه ؟

قسمنا بحثنا أقساما ثلاثة تضمّن القسم الأول منه ثلاثة فصول يرسم أولها صورة لثامر منذ ولادته و حتى هجرته إلى مصر سنة 1946 و يرسم

⁴ - كتب الأستاذ الهادي التيمومي في تحديد بعض صفات هذه الكتابات أن أصحابها شغفوا "أيما شغف بالبحث عن أصول القوميات التي ينتمون إليها و هي أصول لا بدّ أن تكون قديمة جدًا حتى تكون لها قيمة و معنى (...) و اعتبروا أن المطلوب من أي مواطن هو التجذر في لغة و ثقافة و تاريخ قومي معيّن (...) و نكالة في العقل الذي رفعه "فلاسفة الأنوار " إلى المقام الأسمى ، عاد المؤرخون الرومنطيون إلى دراسة المقدس و الديني و الصوفي

و الباطني"، الهادي التيمومي ، مفهوم التاريخ و تاريخ المفهوم في العالم الغربي من "النهضة" إلى "العولمة" ، صفاقس ، دار محمد علي الحامي للنشر، 2003، صص.42-47.

ثانيها صورة لعلي الحمّامي حتى سماعه بلجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مصر في ماي 1947 و التحاقه به في المهجر المصري أما الفصل الثالث فمن الطبيعى أن يتعلق بحياة محمد بن أحمد بن عبّود حتى موافقة الجنرال فرانكو على اختيار الخليفة الحسن بن المهدي⁵ ابن عبود ممثلا للمغرب الخلفي في اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية.

و هذا القسم كاد يوقعنا في اليأس إذ بقدر ما عثرنا فيما يتصل بالحبیب ثامر على معلومات ، وإن كانت شحيحة قبل هجرته سنة 1930 لدراسة الطب العام في تولوز ثم في باريس و كافية في الفترات اللاحقة اعترضتنا صعوبات يصعب تصورها فيما يتعلق خاصة بعلي الحمّامي الذي تذكر الصحف خاصة عند تأبينه سنة 1949 و في ما لا يتجاوز أحيانا بعض السطور أنه كان خطّابيا أثناء ثورة الريف (1921-1926) ثم من العاملين ضمن نجم شمال إفريقيا منذ تأسيسه (1926)

و لمدة قصيرة ثم عضوا نشيطا ضمن الحزب الشيوعي الفرنسي ثم خصما لموريس طوريس ثم لاجئا إلى الاتحاد السوفييتي زمن اشتداد قبضة ستالين ثم ملتجئا إلى جنيف " مستعظفا شكيب أرسلان " ثم متبرئا منه فمهاجرا إلى الجزيرة العربية ثم إلى العراق زمن حكم فيصل الأول و بعده أي في فترة هيمنة فكر الحصري القومي إلخ بحيث لا يتمكن المرء من تكوين صورة عنه إن أراد الاستناد إلى الوثائق وحدها لأنها مفقودة فقدانا تاما ...

و حتى فيما يتصل ب"امحمد أحمد بن عبود" فالصعوبة في تناول حياته قبل 1946 و إن لم تكن في مستوى صعوبة تناول حياة الحمّامي فهي تكاد تبعث الباحث و الباحثة على اليأس .

و مع ذلك أصرّ الأستاذ المشرف على ضرورة التوازن بين حجم الفصول حتى و إن أجبرت ضرورة وجود هذا التوازن على تحويل الحديث عن الشخصية المترجم

⁵ - الحسن بن المهدي : تولى بعد موت أبيه المهدي في عشرينات القرن العشرين ، منصب "الخليفة" و بقي فيه إلى 1956 عندما ألحقه الملك محمد الخامس بالسلك الدبلوماسي.

لها إلى الحديث عن الظروف السائدة في عصرها و التي يمكن أن تتير بشكل غير مباشر بعض جوانب حياة هذه الشخصية.

هذا فيما يتصل بالقسم الأول من البحث أما القسم الثاني فهو يتناول نشاطي الثنائي المغربي في المهجر المصري منذ 1946 و حتى 1949 فيما يتعلق بكل من ثامر و ابن عبود ونشاط ثالث الثلاثة علي الحامي و منذ 1947 إلى سنة 1949 إذ أن علي الحامي لم يلتحق بالمهجر المصري إلا بعد أن بلغه أن محمد بن عبد الكريم الخطابي حصل من الملك فاروق⁶ على اللجوء السياسي إلى هذا البلد الذي نؤكد على أن فضل كثير من قواه الفكرية السياسية على بلاد المغرب لا ينكره إلا جاحد جحود مما يبرر ما سبق أن أكدناه و نؤكد على أن التركيز على الفكرة المغربية لا يجب أن يعني أننا من "دعاة الانفصال المغربي" منسجمين في موقفنا "الاتصالي" مع موقف أعظم رمز تاريخي مغربي في القرن العشرين و هو محمد بن عبد الكريم الخطابي و الآخذين بخطه : الحبيب ثامر و علي الحامي و امحمد أحمد بن عبود. يتضمن القسم الثاني كذلك فصلا خصصناه لصدى موت الثلاثي في صحافة العصر لأننا رأينا أن بعض نماذج التأبين تساعد القارئ على استعادة زمن ولّى كانت له ميزاته النفسية الخاصة.

إن حياة الثلاثي المغربي الرمز في المهجر المصري لا إجماع حول شيء منها إذ ستتداخل مع أنشطة خصومهم من أمثال الحبيب بورقيبة

و علال الفاسي و مصالي الحاج و أتباعهم و لهذا فما سيرد مما يتعلق بهذه الفترة 1946-1949 إنما هو مجرد قراءة كم ينفر منها المنهج الوضعي و يطمئن إليها بعض ممثلي المنهج التاريخاني.

و للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة أن يحكموا على "مغامرتنا " التي أكاد أقول إنني لتكوينني السياسي "النسائي" دفعت إليها دفعا بتأثير من دروس الأستاذ المشرف الذي

⁶ فاروق : ملك مصر ، ولد بالقاهرة (1920-1965) خلف أباه فؤاد الأول سنة 1936، أطاح بعرشه "الضباط الأحرار" سنة 1952 بزعامة جمال عبد الناصر

فهمت من دفعه أنه كان يؤمن أن المرأة التونسية إن نُشِئت تنشئة سياسية سليمة يمكنها أن تكتب ما يكتبه الباحثون الرجال كما يمكنها أن تتميز عنهم بطابعها و بصمتها الخاصة.

أما القسم الأخير من البحث فهو يتضمن مثل القسم الأول فصولا ثلاثة واحدا منها يتعلق بثمر و الثاني بالحمامي و الثالث بابن عبود و لكن فيما يتصل هذه المرة بما ألقوا من كتب.

و فعلا فإننا بإزاء رجال مفكرين سياسيين دوّنوا أفكارهم في الفترة التي عاشوا فيها و لذلك نعتقد أن لدراستها دراسة فكرية سياسية تاريخية قيمة لا تعادلها قيمة أخرى. و هذا يطرح مسألة عويصة تتصل بتهمة كثيرا ما وجهها البعض عن وعي أو عن غير وعي إلى المختصين في الحضارة المعاصرة في قسم اللغة و الآداب و الحضارة العربية و هي تهمة أننا "نرعى نحن المختصين في الحضارة المعاصرة في أرض المختصين في التاريخ" قالى أي حدّ تصحّ هذه التهمة؟

إن القسم الأخير من البحث المتعلق بدراسة آثار الثلاثي موضوع دراستنا مثلا لا يفرض فقط و جود مختصين في التاريخ المعاصر و لكن مختصين حتى في اللغة العربية قادرين على أن يفهموا فهما سليما كتاب ثامر "هذه تونس" و كتاب محمد بن عبود "مركز الأجانب في مراكش"

و مختصين حقيقة في اللغة الفرنسية قادرين على أن يفهموا فهما سليما ،كتاب الحمامي **Idris**، حتى لا نتحدث عن مختصين في علم الاجتماع و في العلوم السياسية.

و من هنا نفهم أن ضيق الأفق وحده (لا الانتماء إلى المدرسة الوضعية التي أفل نجمها) هو الذي يدفع البعض إلى مؤاخذتنا على ما لا يجب، في بداية الألفية الثالثة التي لم تعد تطمئن إلى أي منهج واحد أوحد، أن تؤاخذ عليه.

هنا ينتهي حديثنا عن التخطيط المعتمد في هذا البحث فما هو المنهج أو المناهج المعتمدة فيه؟

إن عنوان البحث يمكن أن يشير في حدّ ذاته إلى مدرستين فكريتين غربيّتين كانتا تميلان ميلا مفرطا أحيانا إلى التركيز على " دور الفرد الفذ" في السيرورة التاريخية هما المدرسة الوضعية L'école positiviste التي قال عنها فرانسوا سيمياند (Fancois Simiand)

إنها تعبد ثلاثة "أصنام " : السياسة و الفرد و الكرونولوجيا و المقصود بالكرونولوجيا (L' histoire évènementielle) " على المستوى الحدثي هو إدراج الأحداث في سياقها و إبراز فرادتها و إيلاء أهمية خاصة لصانعي تلك الأحداث و لإنجازاتهم".

فالتاريخ الحدثي " يركز على الفرد و ليس على المؤسسة و لا يطرح مشكلة "الأمَد الطويل " (La Longue durée) " وهو يكاد يهمل إهمالا تاما الاقتصادي و المسائل الحضارية بصفة عامة (...)

و بصفة عامة فهذا المنهج " يعطي الأولوية للوصف "الموضوعي" و "المحايد" على حساب التفسير و التأويل و المقارنة"⁷

إننا عندما تخيرنا الموضوع أخذنا عن هذا المنهج ،الذي ساد في كثير من البلدان الغربية حتى الحرب العالمية الأولى، تركيزه على الفرد إذ لا أحد يمكن أن يدعي سواء أتلّق الأمر برجال السياسة أم برجال الدين أم بالعلماء أم حتى بالمجرمين ..التساوي المطلق بين الناس جميعهم و لذلك سعينا في فصول القسم الأول الثلاثة من البحث إلى "جمع المصادر المكتوبة و نقدها نقدا داخليا و خارجيا" حتى نصل إلى تكوين صورة "موضوعية " عن ثامر و الحمامي و ابن عبود محاولين قدر المستطاع أن "نتجرّد من انتماءاتنا السياسية و الثقافية و الدينية و القومية

⁷ - اعتمدنا فيما يتعلق بالمنهج على الأستاذ الهادي التيمومي "مفهوم التاريخ و تاريخ المفهوم من النهضة إلى العولمة" و على درس الأستاذ المشرف ضمن المادة التكميلية في الماجستير "أثر المدارس الفكرية السياسية الغربية و مناهجها في المفكرين العرب المحدثين و المعاصرين" الذي استند فيه هو بدوره على "مفهوم التاريخ و تاريخ المفهوم" لوضوحه و صفاء لغته فما يرد بين ظفرين مأخوذ من هذا الكتاب القيم.

(....)تاركين جانباً مشاعرنا و عواطفنا (...) [معرضين عن إطلاق] أي حكم قيمي Jugement de valeur كأن نمدح أو ننوه أو أن نتأسف أو نهمل وثائق معينة عن قصد لأن محتواها لا يتماشى و نتائج حددناها مسبقا (...) رافضين أشد ما يكون الرفض لأي تنظير أو نحت للمفاهيم المجردة (...) رافضين [كذلك] اللجوء إلى الحدس " استعمالنا للمنهج الوضعي يقف عند هذا الحدّ أي عند القسم الأول بفصوله الثلاثة لأننا أحسنا بعد ذلك و خاصة عندما شرعنا في القسم الثاني المتعلق أساسا بالممارسة في المهجر المصري ، أن المنهج الوضعي لا يفي بالغرض من هذه الدراسة لأننا نهدف بعد الفراغ من الوصف "الموضوعي" و"المحايد" إلى الفهم أي إلى التفسير و التأويل و المقارنة و هو ما يرفضه المنهج الوضعي إذ ما الفائدة من هذا الجهد الذي بذلناه للوصول إلى رسم صورة فكرية سياسية جامدة عن كل واحد من هؤلاء السياسيين الثلاثة تشبه الصورة التي يكونها عالم الطبيعة حيث يكون الدارس والمدرّس من طبيعة مختلفة و التي يقتصر فيها على التفسير

(Explication) أي ضبط ما بين الأشياء و الوقائع و الأحداث من علاقات حتمية علمية و قوانين موضوعية "؟ ثم ألا نحتاج و الأمر يتعلق بدراسة الإنسان للإنسان إلى الفهم (Compréhension) أي إلى فهم سلوك ثامر و الحمامي و ابن عبود و نواياهم و مقاصدهم و كل هذه أمور ليس بالإمكان النفاذ إلى حقيقتها إلا بالفهم و هو لا يكون بعد الفراغ من عملية الوصف إلا " بواسطة الحدس و التعاطف" اللذين يبررهما أن لا انفصال بين هذه الشخصيات البشرية و مجتمعها من ناحية ثم أن لا انفصال من ناحية ثانية بينهما و بين من يقوم بدراستها خاصة إذا كان ينتمي إلى المجتمع الشمال إفريقي الذي نبتت فيه و يشاركها في الكثير مما يقوم عليه هذا المجتمع ؟

إن المنهج الثاني الذي اعتمدناه إذن في هذا البحث هو المنهج التاريخاني الذي ظهر في أوروبا الغربية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى خاصة

و امتد حتى نهاية خمسينات القرن العشرين نتيجة الرفض المتزايد للمنهج الوضعي .

و على عكس المنهج الوضعي الراض لأى" تفسير فلسفي بدوى أنه لا يمكن إثباته بالتجربة الملموسة" (العلموية - Scientiste) فتح المنهج التاريخاني الباب واسعا أمام الفلسفة و أمام الدراسات التي تقول بالنسبية و تحاول فهم الواقع بالاعتماد على مفهوم الحياة لذلك هي تميل إلى "المصادر الوثائقية التي تمكننا من النفاذ مباشرة إلى مقاصد الفاعل التاريخي [ثامر و الحمامي و ابن عبود] (مذكرات ، جرائد ، تقارير ، شهادات) و تجتهد في تأويلها و إعادة اكتشاف العالم الذي كان يعيش في صلبه الفاعل التاريخي موضوع الدرس، و ذلك باستعمال طاقة [الباحث] الفكرية التي تمكنه من أن يحيا الماضي بنفسه " و بهذا المعنى و بتدخل الباحث المتعاطف يمكن أن يكون الصامت في كتابات ثامر و الحمامي و ابن عبود أصدق من الناطق فيها .

إن المنهج الوضعي يحدّد الباحث لفصله التام بين الباحث و موضوع بحثه أي لفصله بين الباحث و الذات المدروسة و كأن المرء بإزاء عالم طبيعة يدرس موضوعا طبيعيا لذلك يقتصر على الوصف و التفسير أما المنهج التاريخاني فهو يرفض الانفصال بين الذات المفكرة (الباحث)

و الموضوع (موضوع البحث) و من أهم ممثلي المدرسة التاريخانية Max

Weber الذي اعتمد في دراساته على المنهج المقارن

و براديقم " الأنموذج المثالي (Lidéal-Type) و الذي نحونا نحن نحوه في نحت صورة كلّ من ثامر و الحمامي و ابن عبود.

تبقى الإشارة إلى ثالث المناهج التي اعتمدها و هو المنهج البنيوي الذي ساد في ستينات القرن العشرين و سبعيناته و شمل ميادين السياسة

و الأدب و اللغة و إن كنا استعملنا بعض جوانب هذا المنهج الإيجابية تماما مثلما فعلنا مع الوضعية ،فإننا لم نتخذ منه منهجا مرشدا لأننا مازلنا نقول بالإيجابيات الكثيرة التي يتصف بها المذهب التاريخاني في بلداننا العربية على الأقل .

خلاصة القول إذن هي أننا مزجنا بين أكثر من منهج عند القيام بهذا البحث أملا منا في الوصول إلى ما قد يمثل إضافة في هذه المسألة.

ختاما لا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أقدم شكري للأستاذ المشرف محمد الناصر النفزاوي الذي لم يبخل عليّ لا بنصائحه و لا بوقته فمن دون هذه النصائح ما كان يمكن لهذا البحث أن يكون على الهيئة التي هو عليها الآن.

القسم الأول الثالوث المعذب قومية مغربية

الفصل الأول:

الحبيب ثامر : من ضيق المدينة التونسية إلى فُسحة المغرب العربي المسلم

ينتمي الحبيب ثامر إلى آل ثامر الذين "يرتبطون بأواصر القرابة بالبيت المالك الرفيع العماد"⁸ فهو إذن من أسرة ذات أرومة [مملوكية؟] انتصبت بالبلاد التونسية منذ خمسة أجيال⁹ و عائلتا ثامر و سليم و إن توزعتا على تونس العاصمة و ضاحية المرسى تعدّان عائلة واحدة تشبّعت بمفهوم الوطنية مثلما عبّر عنه الحزب الحرّ الدستوري التونسي القديم الذي كان أكثر من الحزب الجديد تشبثا بأسس المجتمع التقليدي ما قبل الرأسمالي.

فلا غرابة عندئذ أن ينشأ الحبيب ثامر الذي ولد في تونس سنة 1909 في بيئة محافظة و أن يتربّى كذلك تربية محافظة طبعت حياته جميعها و يمكن أن تعطينا فكرة عنها مقارنة عقدتها باحثتان تونسيّتان بين الحبيب بورقيبة و الحبيب ثامر :

⁸ - جريدة النهضة ، عدد 1903 ، بتاريخ 17 ديسمبر 1949.

⁹ - جريدة النهضة، العدد نفسه نقلًا عن Tunisie-France

كان تحفظه الشبيه بتحفظ "جيتلمان" بريطاني و تصرفاته المهذبة التي يتمكن من السيطرة عليها سيطرة تامة و صوته الذي لا يعلو البتة و نبرته التي لا لون لها، كان كلّ ذلك يغيظ بورقيبة لاسيما و أنه عرف هذه السمات نفسها لأنه كان عليه أن يواجهها عند المنجي سليم¹⁰ الذي هو من جهة أخرى قريب ثامر¹¹ و حتى الحبيب بورقيبة الذي كان أحد من ألقوا في ثامر خطبا تأبينية في ديسمبر 1949 لم يغفل بعد أن حرص على التأكيد على دور ثامر الثانوي مقارنة بدور "الزعيم الأوحّد" عن الإشارة إلى هذا الجانب من جوانب حياة ثامر:

"كان (...) لا يفتأ عن العمل الصامت فهو يعمل دون جلبّة و لا ضوضاء يفرّ من الظهور و يأبى الإعلان عن مجهوده رغم إلحاحنا و قولنا له إن في ظهورك و إشهار عملك و نضالك فائدة لبلادك وطريقا شريفا تسطره لأمتك و إعلانا عن حيوية حركة الكفاح"¹²

على أنّ هذه المحافظة لم تدفع العائلة إلى توجيه ابنها إلى الدراسة في جامعة الزيتونة و إنّما إلى مدرسة عربية فرنسية Franco-Arabe تمكّن الحاصلين منها على شهادة الدروس الابتدائية من فوائدها ليس أقلها إمكانية الالتحاق بمعهد كارنو الذي يمنح شهادة البكالوريا مفتاح التعليم العالي أو بإحدى المدارس المشهورة الثلاثة التي تصل بتلامذتها إلى ما قبل الجزء بين الأول و الثاني من البكالوريا و هي المدرسة الصادقية والمدرسة العلوية و مدرسة إميل لوبي Collège Emile Loubet و فعلا فقد ألتحق في بداية عشرينات القرن العشرين بالمدرسة الصادقية و كانت تضم سنة 1921 مثلا 98 تلميذا فقط. و لا

¹⁰ - المنجي سليم: ولد بتونس سنة 1908 ، من أعمدة الحزب الدستوري الجديد، توفي سنة 1969.

¹¹ -Sophie Bessis et Souhayr Belhassen, Bourguiba 1.A la conquête d'un destin, 1901-1956, Paris, éd.Jeune Afr.,1988,page 119.

¹² - جريدة الزهرة، العدد 20، 12037ديسمبر 1949.

يعثر المرء على تفاصيل تهمة هذه الفترة من حياته إلا ما كان من هذه التفاصيل التي "لا تسمن و لا تغني من جوع" مثل :

"تلقي تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقية و كان من بين زملائه في الدراسة إذاك نائب الحق العام بالمحاكم التونسية الطاهر دية المحامي بقابس اليوم" فلا إشارات ولو موجزة إلى مواقف خاصة في عشرينات القرن العشرين التي اشتهرت بالعلاقة الصدامية أولا بين الباي

محمد الناصر¹³ و لوسيان سان Lucien Saint¹⁴ و ثانيا بأحداث جسام في تاريخ تونس ارتبطت باسم هذا المقيم العام بل طابع الاختزال الشديد يكاد يغلب لا على هذه الفترة من حياته فحسب و لكن كذلك على بعض من حياته الدراسية في فرنسا: "بعد أن فرغ الشاب ثامر من مزاولة التعليم الثانوي بالمدرسة الصادقية شدّ الرحال إلى فرنسا ليكرع من معين التعليم العالي فقصد أولا كلية الطب بمدينة تولوز حيث قضى عاما واحدا ثم انتقل إلى كلية الطب بباريس"¹⁵ و على العكس من شحّ المعلومات المميّز لفترتي نشأة الحبيب ثامر و دراسته في تونس تعدّ نشرات جمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا Association des Étudiants Musulmans Nord Africains en France (Aemna) التي تأسست سنة 1927

و بقيت نشيطة حتى قيام الاتحادات الوطنية الطلابية في خمسينات القرن العشرين ،و منها الاتحاد العام لطلبة تونس U.G.E.T (1953) مصدرا أساسيا لتتبع حياة الحبيب ثامر و تفكيره الاجتماعي و السياسي طيلة عقد ثلاثينات القرن العشرين.

¹³ - محمد الناصر (الباي) : من ملوك تونس (1906-1922) ولد في 14 جويلية 1855 و توفي في 10 جويلية 1922.

¹⁴ - لوسيان سان: (1867-1938) حقوقي التكوين، عُين مقيما عاما في تونس (نوفمبر 1920-1929) ثم في المغرب الأقصى.

¹⁵ - جريدة النهضة ، عدد 1903 ، 17 ديسمبر 1949.

و فعلا فمنذ السنة الدراسية 1929-1930 ظهرت له مقالة بعنوان "مسألة المرأة"¹⁶ حملت تاريخ كتابتها و هو 1 محرم 1349 هجري 1930م. و سقط اسم

صاحبها فوق تصحيح الأمر على النحو التالي

" إن كاتب (ال)مقالة هو السيد الحبيب ثامر " ممّا يدلّ على حداثة عهد الحبيب ثامر بالجمعية من ناحية و على أن هذه السنة (1930) هي سنة التحاقه بفرنسا لدراسة الطب العام و هو في الحادية و العشرين من العمر من ناحية ثانية.

فما هي ملامح تفكير الشاب ثامر الاجتماعي مثلما تبدو في هذه المقالة؟ و هل في تفكيره جوانب تميّز هذا التفكير عن تفكير أعضاء هذه الجمعية ؟

عندما نتابع المحاضرات التي كان يلقيها أعضاء الجمعية في الثلاثينات و كتاباتهم في نشريتها السنوية نجد أن اهتماماتهم لا تخرج عن ثلاثة:

1- السعي إلى الإقناع بأن الشمال الإفريقي يمثل وحدة جغرافية

و تاريخية و ثقافية إسلامية و أنّه مدعوّ إلى الاتحاد على هذه الأسس.

2- اعتبار أن الإصلاح الاجتماعي و الثقافي هو سابق لأيّ إصلاح آخر و من هنا

كان هذا الاهتمام الخاص بقضايا التعليم و المرأة

و الفساد الاجتماعي.

3- ضرورة مقاومة الإيديولوجيات المادية والإلحادية و الراديكالية تفضيلا من

الأعضاء في أغلبيتهم الساحقة للأنظمة القومية الشمولية غير الشيوعية التي

ازدهرت في ثلاثينات القرن العشرين.

و المقال الذي كتبه ثامر سنة 1930 يدخل مثلما هو جليّ ضمن المحور الثاني

غير أننا نودّ قبل تحليله و إبراز صبغته المحافظة أن نتعرّض و لو بإيجاز

لمجمل المحاور الثلاثة و هي مترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا.

¹⁶ - النشرة السنوية لـ ج.ط.ش.إ.م، 1929-1930، تطوان، المطب. المهدية، 1930.

من المعروف أن ألمانيا أولا ثم إيطاليا ثانيا ثم إسبانيا ثالثا قد سلكت سواء قبل الحرب الكبرى أو بعدها سواء إزاء السلطنة العثمانية أم إزاء ما تطمح إلى أن تخلفها فيه من ممتلكات ، سلوكا إن لم يكن في الظاهر على الأقل محاربا للإسلام فهو يقف منه موقفا غير معاد

و كأنها تقلد في هذا السلوك، السلوك البريطاني في هذا المجال، أما فرنسا فقد سلكت و لأسباب تاريخية أساسا منها صراعها المرير ضد الدين الذي أسفر عن قيام الجمهورية سلوكا معاكسا و خاصة زمن الجمهورية الثالثة (1870 - 1940) التي احتل فيها الراديكاليون

و الماسونيون مواقع أساسية، هذه السياسة لم تكن محلّ إجماع الساسة الفرنسيين و لهذا وجد من المقيمين العامين من سلك في المحميات سلوكا محافظا (مثل ليوتي في مراكش بين 1912 و 1925) و من سلك منهم فيها سلوكا راديكاليا (مثل لوسيان سان في تونس من 1920 إلى 1929 و في مراكش من 1930 إلى 1933) .

سلوك المقيمين العامين الذي وصفنا ليس مردّه إذن إلى مواقف شخصية و إنما إلى وجود تيارين متعارضين في فرنسا برزا قبل الحرب و تناميا بعدها. هذان التياران يقولان معا بإفريقيا الشمالية الفرنسية التي يجب أن يرتبط مصيرها نهائيا بالإمبراطورية الفرنسية (حتى الحرب العالمية الثانية)

و "الإتحاد الفرنسي" بعد ذلك و لكن واحدا منهما كان يرى أنه لتنمية إفريقيا الشمالية بما يضمن أن تكون جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية لا بدّ من توحيدها ذلك أنه : " كان هناك تقطيع أقل ما يقال عنه أنه غريب: فتونس و مراكش كانتا تتبعان وزارة الشؤون الخارجية

و الجزائر وزارة الداخلية في حين كانت للمستعمرات بالمعنى الحصري للكلمة وزارة خاصة بها ¹⁷ مثلما يرى أنه لا بدّ من إحداث وزارة لإفريقيا الشمالية تسلك إزاء هذه الممتلكات سياسة إسلامية.

أما التيار الثاني فكان يقول برأي نقيض و هو أن "توحيد مسلمي إفريقيا الشمالية لن يكون ، في حال إمكان تحقيقه، إلا ضدّ فرنسا" ¹⁸
هذا الخلاف يرقى إلى ما قبل الحرب الكبرى أي إلى ما قبل سقوط الدولة العثمانية الاتحادية :

" كان أول جدل استعماري كبير في مجلس الشيوخ منذ سنوات طويلة قد أثاره "إتيان فلاندين" Etienne Flandin ، و هو شيخ معرّب و نائب عام في الجزائر، عندما قدم استجوابا حول الخطوات التي تتوي الحكومة خطوها قبل الحرب و بعدها، من أجل تنمية قوة إنتاج إمبراطوريتها الاستعمارية" ¹⁹ و لكنه خلاف ،ليس كما رأينا، في الغاية

التي تتمثل في إدماج منطقة الشمال الإفريقي نهائيا في الإمبراطورية الفرنسية و هي غاية يصعب تحقيقها إن لم تسع الإمبراطورية الفرنسية إلى الحيلولة دون أي اتصال ممكن بين شمال إفريقيا منطقة نفوذها الأساسية و المشرق العربي منطقة النفوذ الإنقليزي لذلك نراها عندما لا تتمكن من منع رعاياها منعا تاما من مواصلة دراستهم العالية في فرنسا تحارب بدون هوادة توجههم إلى الدراسة في مصر أو فلسطين أو سورية مثلما تثبت ذلك الرسالة التي وجهها قنصل فرنسا العام في القدس دوماًل M.D' Aumale إلى وزير الخارجية الفرنسية في مسألة دراسة الطلبة المراكشيين و ذلك بتاريخ 11 ماي 1933 التي ورد فيها :

¹⁷ - Daniel GOLDSTEIN , Libération ou annexion, aux chemins croisés de l'histoire Tunisienne, Tunis , M.T.E,1978, P.200.

¹⁸ - Daniel GOLDSTEIN , Libération ou annexion, op.cit.p.120.

¹⁹ - Daniel GOLDSTEIN , Libération ou annexion, op.cit,p.196.

"إنني، على أية حال، أعتبر أن الأمر الأكثر إلحاحا بالنسبة إلى مصالحنا هو مواصلة رفض كل التسهيلات التي يمكن أن تتيح لمراكشي فاس و مراكش و بقية المناطق الذهاب إلى فلسطين و حتى إلى سوريا حيث يكون بإمكانهم من دون عناء كبير أن يعبروا الحدود خلصة إلى نابلس.إننا لن نربح من ذلك غير بعض الرعايا المخفقين الجهلاء الثرثارين الذين لا يمكنهم عند العودة إلى مراكش إلا أن يكونوا مصدر قلق سواء بالنسبة إلى السلطات الفرنسية أو بالنسبة إلى السلطات الشريفة"

20

و فعلا فإن من يتشبعون باللغة الفرنسية و الثقافة الفرنسية لا يمكنهم إلا من شذ منهم عن القاعدة العامة أن يكونوا إلا من دعاة الاتصال بفرنسا و إن اختلفوا في مداه أما من يتشبعون باللغة العربية و ثقافتها و سواء أكانوا إسلاميين أم عروبيين أم وطنيين فيصعب أن تجد من بينهم من لا يقول بالانفصال. و من ينظر في سبب أول انشقاق في الحزب الحر الدستوري التونسي و هو الذي حدث سنة 1920 عندما توجه عبد العزيز الثعالبي إلى باريس و نشر "تونس الشهيدة" لا يسعه إلا أن يقرّ بأن سبب هذا الانشقاق الأول كان نفي الثعالبي و من بقي في صفّه كل عمل تمديني فرنسي في تونس و اتهام من انفصل عن الثعالبي صاحب هذا الكتاب بالمبالغة بل بتزييف كثير من الحقائق لأغراض دعائية من المؤكد أنها لن تؤثر في غير قراء تونس الشهيدة من العرب والمسلمين.إن وعي بعض مؤسسي جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين مثل أحمد بن ميلاد بأبعاد المسألة الوطنية المغربية أي بأن فرنسا كانت منذ 1830 وهي تحتل الجزائر تضرر احتلال مراكش وتونس هو الذي دفعهم إلى القول بالفكرة المغربية مثلما أن وعيهم بأهمية الدين مرجعا يوحد بين الأقطار المغربية الثلاثة و يفصل فصلا ليس يمكن تخطيه بين الجمهورية

²⁰ - Jaques Cagne , Un exemple de mission estudiantine en Orient dans les années trente. Des تطوان في عهد الحماية 1912-1956 تطوان نشر المجلس البلدي لمدينة تطوان Lycéens tétouanais à Naplouse in 1992، [ص.302].

الثالثة التي سنت منذ 1905 قانون فصل الدين عن الدولة و هذه البلدان هو الذي دفعهم إلى أن يتصفوا بصفة المسلمين فالدافع إلى هذا الاتصاف هو الرغبة في التميز.

لقد قلنا إنه يصعب على المرء أن يجد فيما كتب أعضاء الجمعية في ثلاثينات القرن العشرين شيئاً يمكن أن يخرج عن المحاور الثلاثة :الدعوة إلى الفكرة المغربية أولاً و الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي ثانياً و مقاومة نظم التفكير المادية ثالثاً فكيف تجلّى المحور الثاني في مقال "مسألة المرأة" الذي كتبه الحبيب ثامر سنة 1930؟

إن سنة 1930 تعدّ من السنوات العvisية لا في تونس فحسب و لكن في كل بلاد المغرب بسبب تأثير أزمة 1929 المالية العالمية في هذه البلدان و لكن الطالب الحبيب ثامر كان يرى في مسألة المرأة "أهم مشكل اجتماعي يجب حله"(ص.10) لقيام تفكيره في هذه الفترة بالذات على اعتبار أن أفضل طريق إلى الإصلاح هو الإصلاح الداخلي

و بوسيلة التعليم من ناحية و على اعتبار أن لا مجال لأي تدخل بين وظيفة المرأة ووظيفة الرجل من ناحية ثانية.نعم هما مدعوان معا إلى أن يخضعا اختياراتهما للمصالح الوطنية، معيار التقييم الأوحد لما يأتیان من أعمال ، و لكن هذه الاختيارات تختلف مضمونا بما أن ما يشترط في برنامج "إنشاء الفتيات الصالحات" ليس هو ما يشترط في برنامج تخريج الفتیان الصالحين.

إن وظيفة المرأة الأساسية هي " وظيفة الأمومة" لأن المرأة هي احتياطي القيم العربية و الإسلامية الأول و الأخير فـ" مما يجب أن تعطي له عناية خاصة هو تهذيب أخلاقها و ذلك بأن نعلمها المبادئ الدينية التي تهدي إلى الصراط المستقيم (...) و مما يجب إلفات النظر إليه هو أن لا يكون هذا التعليم إلا بلغتنا القومية، باللغة العربية فعار علينا أن نهمل لغتنا و نعلم البنات لغة أخرى"

و كل تربية للبنات على غير هذه الأسس تقود حتما إلى تخريج امرأة هجينة لا هي بالعربية و لا هي بالغربية:

"أخلاقها سافلة و عوائدها مشتركة لا هي فرنسية و لا عربية (...)

و بالجملة فباسم الرقي و المدنية اصطبغت بصبغة غربية شوّهت بها نفسها"
و بما أن المرأة في نظره ، هي القيم على تخريج أبناء صالحين فإن المرأة التونسية الهجينة هي السبيل الأوضح إلى تخريج شعب هجين لا هو فرنسي و لا هو عربي.

إن نظرة الحبيب ثامر إلى المرأة تبدو مغرقة في المحافظة إلى درجة يتساءل معها المرء عن الأسباب البعيدة لمثل هذه النظرة و يبدو في نظرنا أن من هذه الأسباب أولا أن الكاتب شاب تربى في بيئة محافظة و انتقل منذ قليل للدراسة في فرنسا و هي بلد نظرتة إلى المرأة ونظرة المجتمع الإسلامي إليها تقعان على طرفي نقيض و ثانيا أن بداية ثلاثينات القرن العشرين تميزت عند أغلبية الوطنيين بإرادة التميز عن كل ما يمت إلى بلد سلطة الحماية فكان ينظر مثلا إلى تجنس بعض المسلمين على أنه خطر يهدد الأمة جميعها على عكس كل حقيقة .

و ثالثا أن ثامر الذي يعرف عدد الطلبة المغاربة المحدود في فرنسا كان يرى البعض منهم لسبب أو لآخر يتزوج من فرنسيات هن مدعوات بحكم تفوق أمتهم و قلة هؤلاء المتعلمين تعليما عاليا إلى أن يؤثرن لا في أبنائهن فحسب و لكن في مجتمعات المغرب العربي تأثيرا بالغا

و في اتجاه مناقض للاتجاهين العربي و الإسلامي:

" زد على ذلك فإن البنات التي تغذت بلبان الغربيين و نشأت على احتقار قوميتها ووطنها تبث ذلك في ذهن طفلها طبعاً.فرحمة عندئذ على الشعب و سلام على القومية و العرب".

هل كان تركيز ثامر على المرأة في هذه المقالة نابعا من موقف نفسي ونفور

منها؟

إننا لا نعتقد ذلك لشدة ربطه بين الوظيفة البيولوجية للمرأة و الوظيفة الوطنية التي يجب أن تكتسبها فهو يكاد يرادف بين الأمة واقية اللغة القومية من الانقراض و الأم واقية أبنائها من الذوبان لغويا في غير بني جلدتهم :

"إن لنا أسوة حسنة بتلك الأمم التي حافظت على لغتها و سفكت دمها في هذا السبيل بأمة بولونيا التي كانت تضطهدها الدولة الروسية و تذيبها أمرّ العذاب لتقتل لغتها و عوائدها و لكنه قد أخفق مسعاها و ذهب أدراج الرياح لقوة عزيمة أهل البلاد و محافظتهم على لغتهم————هم

و عوائدهم."

و نكاد على العكس مما رأيناه من نظرته إلى المرأة نحسّ بمعاداته للطالب المغربي الذي يبادر منذ حلوله بفرنسا إلى الزواج من فرنسية معتبرا أن هذا الاختيار لا يجب أن يدخل في إطار الحرية الشخصية لأنه يمس بالمسألة الوطنية:

"هناك خطر آخر أعظم و أدهى يجب الاهتمام به جرّته هذه التربية العقيمة و هو أننا نرى بعض الشبان التونسيين التجنّوا إلى التزوج بالغربيات و ذلك لأنهم لا يجدون بتونس فتيات متعلّقات تليق بهم

و يمكن أن تشاركهم في أفكارهم و احساساتهم ما يجدونه عند الغربيات و هم عالمون بما تقدمه أيديهم عالمون أنهم إذا اتبعوا شهواتهم و هوى أنفسهم حتى ارتاحوا في الحياة الدنيا جنوا على بلادهم جناية لا مزيد عليها و ذلك أنّه لا يمكن لهم أن يخرجوا أطفالا يحملون قومية والدهم فيخدمون بلدهم كما يجب"

و مما يلاحظ في نهاية هذا التحليل الوجيز لمقالة ثامر التي نشرت سنة 1930 أنه لم يحد عن نهجه في التفكير الذي رأيناه فيما يتصل بالمرأة

فالمصحف تذكر عنه سنة 1949 أنه كان " يعدّ العدة قبل رحلته إلى الباكستان للزواج و طلب أن تلتحق به زوجته إلى مقرّه الجديد [في سوريا حيث تمكن من

الحصول على رخصة تمكنه من امتحان مهنة الطب [حيث علمنا أنه أعد منزلا خاصا اعتزم أن يجعله وكر الزوجية الهادي"²¹

على أن شهرة ثامر في عقد الثلاثينات من القرن العشرين لم تثبت على كتاباته في نشرية ج.ط.م.ش.إ.و لكن على نشاطه السياسي فيها و هو نشاط يمكن أن نلخص الهدف منه في أمرين: أحدهما المثابرة في الدعوة إلى الفكرة المغربية و ثانيهما رفضه التعامل مع الخارجين عن اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1934. و الأمران معا يؤكدهما ما أورد عنه الطالب سليمان بن سليمان (1905-1986) عضو الجمعية:

"علمت عند وصولي إلى باريس [سبتمبر 1934] أنه وقعت المبادرة برد الفعل على ما يحدث في تونس و التقيت ببعض الطلبة و خاصة منهم الهادي نويرة الذي أطلعني على الحالة في العاصمة الفرنسية. لقد عقدت عدة اجتماعات بين التونسيين، و خاصة منهم عبد الرحمن اليعلاوي و الحبيب جا وحدو"²² و محمد بن خليفة.

و قد أطلعتهم بدوري على سير الأحداث في تونس و على التوجيهات التي تلقيتها من الحزب الدستوري الجديد. و قلت لنويرة ، بعد هذا التبادل للآراء، إن أملي هو العمل مع المنظمة التي أسسها تونسيون قبل مجيئي بصفة مندوب للدستور الجديد. و ما إن وصلت [إلى فرنسا] حتى عقدت هذه المنظمة اجتماعا في مقر ج.ط.م.ش.إ. حضره عبد الرحمن اليعلاوي و الحبيب جا وحدو و ابن خليفة و الحبيب ثامر و الهادي نويرة و أنا أطلعتهم على الحالة في تونس و بعد ذلك فتح نقاش حول اللجنة فطرحت مسألة مساهمتي في اللجنة بصفة نائب عن الدستور الجديد ففتح نقاش طويل حول هذه المسألة. كان عبد الرحمن اليعلاوي و هو مناضل

²¹ - جريدة النهضة، عدد 790، 16 ديسمبر 1949.

²² - الحبيب جا وحدو : (1901-1967) من القيروان ، من أعمدة الحزب الدستوري القديم، عاد من فرنسا صيدليا سنة 1938. (محمد

علي بلحولة: الطبيب التونسي ، تونس، مط.أوميغا، 1995، صص. 237-244.

دستوري قديم معارضا لهذه الصيغة يدافع عن وجهة النظر القائلة إن على كل من يكونون ضمن هذه اللجنة أن لا يمثلوا حزبا كائنا ما كان. أما حُجتي فهي أنه ليس في إمكاني أن اعمل في صلب هذه اللجنة مخالفا توجيهات حزبي الذي كلفني بتمثيله في فرنسا. لقد كان الحبيب جاوحدو و الحبيب ثامر يشاطرون عبد الرحمن اليعلاوي الرأي أما الهادي نويرة و محمد بن خليفة فكانا على رأيي. دام النقاش إلى ما لا نهاية له و قد قال بن خليفة عندئذ حتى يضع حدًا لهذه الثثرة التي لا جدوى منها:

"علينا الآن أن نبتّ في الأمر ! على الذين يريدون العمل مع سليمان بن سليمان باعتباره مندوب الحزب الدستوري الجديد أن يعلنوا ذلك و على اللذين لا يريدون أن يعملوا معه باعتباره مندوب الحزب الجديد أن يعلنوا ذلك أيضا. أعلن الهادي نويرة و بن خليفة عن موافقتهم على العمل معي. أما اليعلاوي و جاوحدو و ثامر فلم يكونوا على هذا الرأي. هكذا انتهى هذا الاجتماع الطويل. و من هذه اللحظة شرعنا في العمل فوق إنشاء لجنة جديدة سمّيناها "لجنة الدفاع عن الحريات في تونس"

بعد أيام من هذا الاجتماع باليعلاوي و الآخرين جاءني ثامر و قد تلاقينا في نهج قاي لوساك Gay Lussac و قال لي و كأنه يطلب المعذرة و يقدّم تبريرا لموقفه أثناء هذا الاجتماع إنه ليس متضلعا في

مثل هذه المسائل السياسية"²³ .

²³ -Sliman Ben Sliman , Souvenirs Politiques, Tunis, céres, 1988, pp.84-85.

و لنشر إلى أن الطالبة هاجر النوال تعد بإشراف الأستاذ م.ن. النفزاوي ماجستيرا بعنوان "سليمان بن سليمان وعصره" أطلعنا على جزء منه

إن هذه هي رواية سليمان بن سليمان حول تحقّظ ثامر إزاء منشقي 1934 الذين تعرض بعضهم لامتحان المقيم العام بيروطون فتقرر استغلال الحادثة للهيمنة على النشاط السياسي في فرنسا و صبغه بصبغة دستورية جديدة.

و نحن لا نشك في صحة رواية سليمان بن سليمان فثامر سيمثل دائما الجناح "المحافظ" في الحركة الدستورية قبل و بعد انخراطه في الحزب الدستوري الجديد.

ثامر هذا سيعود سنة 1938 إلى تونس بعد إنهاء دراسته في فرنسا و يتسلم قيادة الديوان السياسي السادس فهل حاد عن خطه الأول أم بقي مخلصا لاتجاهه القديم؟

إننا لا نملك، للحديث عن ثامر في الفترة الممتدة من 1938 إلى 1946 غير ما كتب عنه الرشيد إدريس²⁴ لذلك سنستغل مذكراته استغلالا مكثفا في بقية هذا الفصل.

إن خريف سنة 1938 هو تاريخ عودة الحبيب ثامر من فرنسا إلى تونس و توجيه النشاط السياسي فيها باعتباره رئيس الديوان السياسي السادس.

فإلى أي حدّ يصحّ في البداية الحديث عن ديوان سياسي أول و ثان و ثالث.... إلخ و الحال أن لا تواصل فكريا سياسيا بين رؤساء هذه الدواوين بل إن المرء لا يكاد يعثر في الكتابات المتصلة بتلك الفترة على تمييز واضح بين " الديوان السياسي" و " اللجنة التنفيذية" خاصة أنه لم يبق من منشقي 1934 ضمن الديوان السياسي" غير... الحبيب بورقيبة و هذا السياسي ما انفك قبل المؤتمر الأول (1937) و بعده يؤكد على ضرورة الاتصال بفرنسا:

"إن النظام الجديد [نظام الحماية] إذا كان قد جرح التونسيين في وعيهم الوطني و إذا كان قد حرم شعبا أنوفا ممّا يعطي الحياة قيمة، أي الكرامة و الحرية و الاستقلال، فهو قد حمل إلى تونس منافع لا يمكن إنكارها. فلقد كان من نتائجه، إن

²⁴ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 2001.

لم يكن من غاياته، أن أخرج تونس من عزلتها القديمة و أدرجها في نطاق الحياة المعاصرة. لقد وصل بين حضارتين و حقق في نهاية المطاف و عبر صدام [مميز] تعاوننا فرضته القوة، ثراء لتونس على مستويات ثلاثة، مادي و فكري و اجتماعي".²⁵

عل العكس تماما من السياسي الحبيب ثامر الذي يقول بفكرة الانفصال:
" أفاق طلبتنا من غشيتهم فشاهدوا ما يهدّد وطنهم من الخطر الجسيم. رأوا جهلا مظلما فاشيا سمّه القاتل في سائر طبقات الشعب. رأوا فقرا مُدقعا مخيما على كامل البلاد. رأوا عوائد و أخلاقا إسلامية ذاهبة إلى الاضمحلال و التلاشي. رأوا دينا حنيفا تهتك حرمة و لا يراعى جانبه. رأوا لغة آبائهم و أجدادهم دخلت في طيّات النسيان. رأوا قومية كاملة و شعبا بأسره عمد الأجنبي على الفتك به و إزالته من عالم الوجود".²⁶

مما يجعل من ثامر امتدادا شابا لعبد العزيز الثعالبي مثلما يظهر في "تونس الشهيدة" (1920) و من بورقية امتدادا شابا كذلك لمن خرجوا على الثعالبي سنة 1920 و أسسوا "الحزب الإصلاحي".

إننا لم نعرّض فيما قرأناه حول ثامر (و منه ما كتب الرشيد إدريس عنه و هو الذي عرفه عن قرب) على ما يقنع بأن ثامر كان و هو يرأس الديوان السياسي يعتبر نفسه آخذا على المستوى الفكري السياسي بما كان يقول به السياسي الوحيد الذي تبقى من منشقي 1934 و هو الحبيب بورقية.

و حتى الرشيد إدريس الذي كان قريبا في فترة ما من تفكير ثامر يتحدث عن انتقاله من صف "اللجنة التنفيذية" إلى صف "الديوان السياسي" في وجهه الثامري سنة 1938 على النحو التالي:

و الشاهد من تعريينا H.Bourguiba, La Tunisie et La France, Paris, Julliard , 1954, p.235 - ²⁵

²⁶ - نشرة المؤتمر الخامس لـ ج. ط.م.ش. إ.، تونس، المط. التونسية، [د.ت].

"إنني أذكر الحوار الذي دار بيني و بين المحافظ [بوفي] عند اعتقالي في ماي 1938 مع عدد من المشبوه فيهم [إذ] لاحظ لي أنه قد تبين من استتطاعي أنني كنت أقرب إلى الدستور القديم لميولي العربية الإسلامية لكني عارضته بأن مبادئ الحزب واحدة و إنما يمتاز التنظيم الجديد بنشاطه و حركته و ذلك ما جذبني إليه و جعلني من أنصاره"²⁷

و يضيف في موضع آخر :

"كنت من بين من أسرعوا في الاتصال بالدكتور ثامر و تبادل الرأي معه تنسيقا لجهودنا على المستويين الحزبي و الصحفي و الجمعياتي"²⁸
إن حصر الاختلاف بين ما تقوم عليه نظرة الحزب الحر الدستوري و نظرة الحبيب بورقيبة إلى الأشياء في ما يميز "التنظيم الجديد [من] نشاط و حركة" لا يوضح شيئا و لذلك فإننا سنتعرض لنشاط الحبيب ثامر السياسي في الفترة الممتدة من 1938 إلى 1946 انطلاقا من مذكرات الرشيد إدريس نفسها نظرا إلى العلاقات المتغيرة التي ربطت بينهما إذ لم نجد أفضل من هذه المذكرات دليلا يؤكد ما نذهب إليه"²⁹.

إن الميول "العربية الإسلامية" هي التي تفسّر سواء فيما يتصل بالرشيد إدريس أو بالحبيب ثامر ميولهما الألمانية و هي ميول تجذرت في الأوساط الشعبية العربية و المسلمة منذ تولى السلطان عبد الحميد العرش العثماني (1875-1909) و تواصلت مع من خلفوه في الحكم من العثمانيين الاتحاديين (1909-1918) حتى أن الشعر الشعبي التونسي نظم البيت الشهير :

"يا تونس و علاش حزينة
كانك على الألمان غدوة يجينا"

²⁷ - الرشيد إدريس ، في طريق الجمهورية، مصدر سلف ذكره، ص.42-43.

²⁸ - الرشيد إدريس ، في طريق الجمهورية، مصدر سلف ذكره، ص.58.

²⁹ - عدنا كذلك فيما يتصل بهذه المسألة إلى ما كتبه عدد من الصحف التونسية و العربية في ديسمبر 1949.

و زاد هذه الميول تمكينا انحياز كثير من كبار دعاة الإسلامية الذين كانت تربطهم أوثق الصلات بالمعبرين عن نظرة الحزب الحر الدستوري التونسي من أمثال شكيب أرسلان و المفتي الحاج أمين الحسيني محمد علي الطاهر إلى الأنظمة الشمولية غير الشيوعية معاداة منهم لراديكاليي فرنسا الذين اجتهدوا تأثرا منهم بتاريخهم الخاص والمدرسة الوضعية العلمانية و العلمانية في "تجفيف ينابيع الإيمان". فلا عجب إذن أن نرى الحبيب ثامر ينظم مباشرة بعد كارثة ماي-جوان 1940 العسكرية الفرنسية التي ردّ عليها الجنرال دي قول بخطاب لندرة الداعي إلى المقاومة في 8 جوان "مظاهرة شعبية كبرى في شهر جوان 1940"³⁰ مطالبا بحقوق التونسيين.

إن موقفا مثل هذا الموقف و في مثل هذا الظرف و بغض النظر عن شرعيته سوف يحدد مستقبل الحبيب ثامر و من سلكوا سلوكه لأن الساسة الفرنسيين، ولأسباب تخصّهم ، لن يغفروا لجماعته هذا الموقف و هم الذين اتخذوا الموقف نفسه من أحداث 9 أفريل 1938 التي دعا إليها ساسة مثل بورقيبة لم يعرف عنهم غير التعلق بفرنسا مربيته فكريا سياسيا و التي منحتة الزوجة³¹ و الولد³² حتى أن معاصرا مثل الرشيد إدريس لأحداث 1938 كتب بعد أن تقدّم به العمر:

" إنني أتساءل بعد مرور ستين سنة على حوادث أفريل 1938 التي طبعت بطابعها النضالي ماذا كان يكون مصيرنا لو أرجأت قيادة الحزب إثارة المطالب الوطنية بحدة في الظروف الدولية المتوترة حيث كانت فرنسا هي ذاتها مهددة بالاحتلال و القمع ؟ و هل كان استغلال الظرف العصيب للضغط على فرنسا ملائما و إيجابيا أم أن ذلك الاستغلال أثار حفيظة الفرنسيين حتى أنهم اتهموا القيادة بالتواطؤ مع إيطاليا الفاشية.

³⁰ - جريدة الزهرة، بتاريخ 15 / 12 / 1949

³¹ - Mathilde Lafras Lorrain

³² - جان بورقيبة أو بورقيبة الابن.

ذلك سؤال يستطيع المتأمل في التاريخ بنظرة فلسفية أن يثيره³³
و نحن هنا لا نعدو طرح السؤال السابق فيما يتعلق ب"الجرمانوفيليين"
التونسيين منذ جوان 1940.

لقد حاول الحبيب ثامر و قرييه الطيب سليم الهروب من السلطات الفرنسية عبر ليبيا
فوقع اعتقالهما في 21 جانفي 1941 ممّا سيسمح للرشيد إدريس على حدّ ما يقول
بتأسيس الديوان السياسي السابع على النحو التالي:

الرشيد إدريس (24س)

صلاح الدين بوشوشة

يوسف بن عاشور(من محرري تونس الفتاة)

حسين التريكي³⁴

على الرغم من تشكيكه في صلابة هذه الدواوين بل جديتها إذ على العكس من ذلك
نراه يذكر من أعضاء الديوان الذي تكوّن سنة 1942، أعضاء سيكون لهم على
العكس من أعضاء الدواوين السياسية الثامن و التاسع و العاشر دور متصل في
السياسة و في الفكر السياسي وهم :

الحبيب ثامر، جلولي فارس ،محمود المسعدي ،محمد بسباس ،عمر بن حميدة ،
محمد بن عمارة ،يوسف بن عاشور.

³³ - الرشيد إدريس ، في طريق الجمهورية، مصدر سلف ذكره، ص.58-59.

³⁴ -الدواوين السياسية الثامن و التاسع و العاشر تكونت كلها و انحلت في ظرف عام (1941) ممّا يطرح سؤالا كبيرا حول تمثيليتها و حول إذا لم تكن مجرد مبادرات فردية أو محصورة في عدد محدود من السياسيين و قد تكونت على التوالي من :

الثامن	حسين التريكي يوسف بن عاشور صلاح الدين بوشوشة بلحسين جراد(وهو ممّن حضروا مؤتمر قصر هلال 1934) سليمان آغا	التاسع	المختار البوزيدي عبد الباقي حسين (حفيد الخضر حسين)	العاشر	عمل فردي
--------	---	--------	--	--------	----------

فرأس هؤلاء كما يتضح من تركيب هذا الديوان السياسي هو من جديد...الحبيب ثامر و ذلك سنة 1942. فما الذي حدث لثامر منذ اعتقاله في جوان 1941 و هو يحاول الهرب من تونس عبر ليبيا؟

" عمل داخل السجن [من جانفي 1941 إلى 1942] جهد المستطاع و اتصل بالخارج بوسائل عديدة ثم قدّم للمحاكمة فصدر عليه الحكم القاسي من المحكمة العسكرية بالسجن مدة عشرين عاما مع الأشغال الشاقة و ذلك في يوم 18 فيفري 1942 و أعيد إلى السجن المضيق فلم يستسلم البطل أمام هذا الحكم القاسي(...) و لبث في السجن إلى أن نزل الألمان بتونس [في 11 نوفمبر 1942] فأطلقوا سبيله و سبيل الوطنيين المسجونين [في نوفمبر و ديسمبر 1942]³⁵. طيلة الفترة الممتدة من

نوفمبر 1942 و حتى ماي 1943، شهر فرار "الجرمانوفليبين" من تونس عند نزول الحلفاء بها سينشط المتعاطفون مع ألمانيا خاصة ممّا سيهدّد مستقبلهم السياسي سواء قبل الاستقلال أو بعده و مسألة التعامل مع ألمانيا طيلة هذه السبعة أشهر سيعرض لها الرشيد إدريس في مذكراته بكثير من الحيطة لذلك نودّ أن نورد ما كتب في المسألة على طوله:

" لم يمض شهر على خروجنا من السجن حتى أدركنا ما أدركناه من تشعب الموقف. و كان أماننا خياران: انتظار نهاية الحرب لاستئناف نشاطنا أو اعتبار الواقع و محاولة الاستفادة منه لإحياء حركتنا و تنظيم صفوفنا و الاستعداد

³⁵ - جريدة النهضة ، 16 ديسمبر 1949، و من المعروف أن الحلفاء نزلوا في مراكش في 8 نوفمبر 1942 بغية الانتقال منها إلى الجزائر فتونس فأبطلوا إلخ... فردّ الألمان الفعل باحتلال تونس في 11 نوفمبر 1942 و قد استغلّ المساجين السياسيون هذا النزول فتأروا داخل السجن في 14 نوفمبر 1942 فأطلق الألمان كل المساجين السياسيين و عن سجناء غار الملح كتب الرشيد إدريس "بقينا ننتظر إلى ساعة متأخرة حتى وصل إخواننا الذين كانوا معتقلين في سجن غار الملح و من بينهم أعضاء لجنة المقاومة الذين حكم عليهم بالإعدام ثم تحول ذلك الحكم إلى مدى الحياة و هم الهادي السعيد و عمر بن علي حميدة و البشير زرق العيون و محمد بن عمارة الذين استرجعوا حريتهم كاملة في نفس الوقت الذي استرجعنا فيه حريتنا يوم غرة ديسمبر 1942"

(الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص. 74).

للمفاجآت. و قد كان الديوان السياسي³⁶ برئاسة الدكتور ثامر وضع خطة للاتصال بالألمان و الإيطاليين و كذلك

الانجليز و الأمريكان منذ حلول لجنتي الهدنة الألمانية و الإيطالية بتونس إثر الهزيمة الفرنسية في جوان 1940 فكلف الأخوين صلاح الدين بوشوشة و حسين التريكي بالاتصال بأعضاء اللجنتين و لم تتعدّ هذه الاتصالات مرحلة التعارف و بالإضافة إلى ذلك راسل الدكتور ثامر سرّاً الزعيم العربي المقيم بجنيف الأمير شكيب أرسلان بواسطة أحد المواطنين من الجنوب التونسي كان ماهراً في اجتياز الحدود التونسية الليبية. و انقطعت محاولات الاتصال بالخارج بعد اعتقال أعضاء الدواوين السرية أما بعد العودة إلى الحرية [نوفمبر و ديسمبر 1942] فقد وجدنا الوضع قد تغيّر تماماً و كم كنّا نودّ تنفيذ التوصيات التي بلغتنا و نحن في السجن في رسالة الزعيم بورقيبة و لكن لم يعد لممثلي الحلفاء وجود في تونس، و قد انتقل القنصل الأمريكي³⁷ إلى الجزائر حيث بسطت القوات الأمريكية سلطانها استعداداً لتحرير تونس و إعادة الألمان و الإيطاليين إلى أوروبا.

وجدت النخبة التونسية نفسها إثر الاحتلال الألماني و طوال ذلك الاحتلال منقسمة الآراء. في البداية رحّب الشعب بالجيش الألماني ثم أخذ التدمر يظهر شيئاً فشيئاً و في واقع الأمر لم يكن لنا من النضج ما يمكننا من اتخاذ موقف إيجابي موحد و لم تكن معالم الطريق واضحة أمامنا. " لا شكّ أن المفاجأة و الحيرة و الرغبة الصادقة في تجنّب ويلات الحرب التي لم يكن منها مناص و لا مفرّ هي تلك التي أملت هذا الموقف الحذر و الذي يمكن اعتباره مجارياً للسلطة [الألمانية] التي مازالت تتحكم إلى حين في مصير البلاد، و استناداً إلى هذا الموقف تعاونت الإدارة التونسية على مختلف المستويات مع سلط الاحتلال [الألماني]. وهكذا لم تمض بضعة أيام على

³⁶ - راجع تركيب الديوان السياسي الحادي عشر فيما سبق من الصفحات. و الملاحظ أنه لا اتفاق عند المؤرخين حول عدد الدواوين السياسية.

³⁷ - هو هوكر دوليتل Hooker Dolittle

الاحتلال المحوري حتى تمت الاتصالات بين قادة المحور و خصوصا القيادة الألمانية و كلّ من كان يرغب في تقديم خدماته أو قضاء حاجاته.و لم أكن أرغب في الاتصال بسلط الاحتلال مراعيًا توصيات الزعيم [الحبيب بورقيبة] و كنت أنتظر إشارة من قيادة الحزب [الحبيب ثامر خاصة] لتحديد سلوكي و موقفي. وبينما كنت أقدر الظروف بالتشاور مع بعض رفاقي إذ دفعني القدر من

جانبيين اثنين دفعا لا مردّ له³⁸ " دعاني الشيخ محمد الصالح النيفر رئيس جمعية الشبان المسلمين و معي حسين التريكي لمقابلته ووجدت إلى جانبه الهادي المجذوب من أعضاء الجمعية الناشطين في ذلك الوقت و فهمت أنه كان الواسطة بين الشيخ و بين بعض الضباط الألمان ممن نزلوا بتونس منذ بضعة أسابيع. وكنا في شهر ديسمبر و عرض علينا ربط الصلة بيننا و بين الضابط الألماني خيرنا التريث و في الأثناء عثرنا ونحن نقوم بزيارة لصاحبة المرسى على الدكتور ثامر و هو يتحدث حديثا طويلا مع ضابط ألماني.راقبنا المشهد في استغراب و لم يتفطن لنا أحدهما إذ كنا نمرّ في سيارة في منعطف يؤدي إلى شاطئ سيدي عبد العزيز حيث يوجد الآن مطعم القولف.عند ذلك تبادر إلى ذهننا أن الطريق أصبحت واضحة و أنه لا موجب للإعراض عن الاتصال بالألمانيين ما دام المسؤول الأول عن الحزب لم يحجم عن الاتصال بهم...و استقر الرأي على أن أفضل موقف نتخذه هو الاستفادة من الواقع خدمة للقضية الوطنية و سعيا لعودة زعمائنا المعتقلين أو المبعدين في فرنسا و الحصول خاصة على عودة الزعيم بورقيبة الذي يستطيع أن يواجه الوضع الجديد.وبينما بدأ الدكتور ثامر و رفاقه ينظمون النشاط

الحزبي و قد أخذوا بمبدأ الواقعية رأينا أن نصدر جريدة تواصل رسالة "تونس الفتاة"و أطلقنا عليها اسم " إفريقيا الفتاة"³⁹ و كان لابدّ من الحصول على رخصة من السلطة

³⁸ - الرشيد إدريس ، في طريق الجمهورية،مصدر سلف ذكره،ص.79.

³⁹ كتب محمد النافع في الموضوع:

"وقع إستئناف النشاط حتى قبل ذلك و لكن باحتشام بدفه من الحبيب ثامر الذي استطاع أن يجمع حوله عددا معينا من الكوادر النشيطين. و لكن ما هو النهج الذي سينهجه العمل السياسي تحت الاحتلال الجرماني-الإيطالي؟ و ما هو الموقف من الاحتلال؟ يقينا، لم يكن الأمر مملا البتة و كان يقتضي كثير من الدهاء، و مع ذلك لا يسع الأمر إلا أن يأسف لما أضفته في هذه الفترة أحداث معينة بل أعمال معينة على سياسة الدستور الجديد من موقف ملتبس. إن مضمون جريدة "افريقيا الفتاة" التي كنت أقرأها بانتباه و تعاون بعض المثقفين المعروفين في جريدة تونس Journal Tunis و تصريحات أدلى بها بعض المناضلين المسنولون بكل ذلك بإمكانه فعلا أن يتيح الفرصة لتأويلات ملتبسة. و قد وصل الأمر حتى إلى التفكير أن هذه السياسة تفسح المجال أمام التيار التبسيطي المؤيد لاحتلال قوى المحور "

(Mohamed Ennafa, Il était une fois... un jeune révolte, Paris / Tunis , Publisud / Maghreb diffusion, 2000, pp.122-123.

تعمّر الفراغ الذي تركته "الزهرة" و "النهضة" اللتان احتجبتا مراعاة للوضع الجديد الذي استقر في البلاد و كان بعض التونسيين اتصلوا بتلك السلط في نفس الغرض. و هكذا وجدنا أنفسنا في اجتماع دعت إليه السلطة الألمانية و حضره من الجانب التونسي الدكتور محمود الماطري⁴⁰ و حسن جلاتي المحامي⁴¹ و الأستاذ البحري قيقة⁴² ثم السيدان زين العابدين السنوسي و البشير الفورتي و هما ممّن مارسوا الصحافة

و أخيرا حسين التريكي و الرشيد إدريس، و كان محور الاجتماع لمن تعطي رخصة الجريدة المرتقبة. و بعد نقاش تحمسنا فيه لطلبنا استقر الرأي على أن نتولى إصدار الجريدة بالتعاون مع السيدين رين العابدين السنوسي و البشير الفورتي⁴³ و هكذا يخضع الرشيد إدريس هذه المرة تعاونه مع الألمان لغرض أساسي هو " الحصول خاصة على عودة الزعيم بورقيبة الذي يستطيع أن يواجه الوضع الجديد " و يسعى نتيجة لذلك إلى الخروج عن موقف الديوان السياسي الذي التفّ حول الباي محمد المنصف ووزارة محمد شنيق الأولى. فبماذا يفسّر المرء هذا الخروج عن الإجماع الدستوري الجديد؟ أهو بسبب إخلاص حقيقي للحبيب بورقيبة أم هو بسبب شعور متزايد بقرب هزيمة المحور و محاولة تبديل جوادٍ بجوادٍ؟

⁴⁰ - محمود الماطري (1897-1972) وُلد بتونس و تعلّم بالصادقية و اشتغل معلما بالمرسى منذ 1916 و في سنة 1919 سافر إلى فرنسا و التحق بكلية الطب بمدينة "ديجون" ثم بمدينة باريس حيث تخرج طبيبا سنة 1926. و إثر مؤتمر قصر هلال المنعقد في شهر مارس 1934 انتخب رئيسا للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد. و في شهر ديسمبر من السنة نفسها نفّثه سلطات الاحتلال إلى بنقردان ثم إلى برج البوف و لم تفرج عنه إلا في شهر ماي 1936. استقال من الحزب الدستور التونسي الجديد في نهاية 1937 و في سنة 1943 عينه المنصف باي (1881-1948) وزيرا للداخلية لكنه استقال منها في السنة نفسها بعد خلع المنصف باي، ثم تم تعيينه مجددا على رأس وزارة الداخلية في الحكومة التفاوضية التونسية في سنة 1950 إلى سنة 1952 و في سنة 1956 كلفه الحبيب بورقيبة (1901-2000) بتحمل مسؤولية وزارة الصحة . (انظر مذكراته "مسار مناضل" بالفرنسية)

⁴¹ - حسن القلاتي (1880-1966)، انفصل بسبب "اعتداله" عن الثعالبي سنة 1920.

⁴² - البحري قيقة : من المنشقين سنة 1934 عن الحزب الدستوري القديم.

⁴³ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، صص. 75-80.

إن القضية ستبقى محلّ جدل. ولكن ما يهمّ أن نثبتته هنا هو أن بذور القطيعة بين الرشيد إدريس و الحبيب ثامر نبتت قبل اضطرار الجماعة الموالية للمحور إلى الهجرة سنة 1943 إلى أوروبا. و لسوف تكبر الخصومة بين الشق البورقيبي الوليد و الشق الثامري عندما سيستقرّ هؤلاء الدستوريون الجدد في القاهرة بداية من سنة 1946 و خاصة عندما سينعقد مؤتمر المغرب العربي في فيفري 1947⁴⁴ و ستتأسس لجنة تحرير المغرب العربي (1948) برئاسة محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان يقول بالمقاومة المسلحة الشاملة في بلاد المغرب ويعادي قادة الأحزاب السياسية الراضين مبدئياً العنف التحريري والقائلين بسياسة المراحل مثل الحزب الحر الدستوري الجديد في شقه البورقيبي-اليوسفي و حزب الشعب الجزائري في شقه المصالي و حزب الاستقلال في شقه الفاسي. ذلك أن الحبيب ثامر كان على حدّ تعبير

الرشيد إدريس " قد آمن منذ انضمامه إلى صفوف الحزب بضرورة المقاومة إلى جانب العمل السياسي عملاً بحكمة المتنبّي [كذا] "السيف أصدق أنباء من الكتب " و أنا لا أخالف هذا الرأي مبدئياً لكني أناهض الاغتيال السياسي. وقد جاءني بعض المناضلين من حماة الديوان السياسي السابع و قال :

"لي مسدس و أنا مستعد لتخليصكم من عون أمن استعماري كان لنا بالمرصاد فنصحته بالإعراض عن هذا العمل و أمرته بالكف عن مثل هذا التفكير. و لم أكن فريداً في هذا الاتجاه السلمي و في احترام الروح البشرية بل كان الرأي السائد في الحركة الوطنية أن الاغتيال منكر. و لم يحدث في تاريخ حزبنا إلا في حالات قليلة جدا من هذا النوع"⁴⁵

نقطة أخرى من نقاط البحث المتأخر عن تمايز بين الشق الثامري "الجهادي" و الشق البورقيبي "السلمي".

⁴⁴ - أنظر في الموضوع . , Azzedine Azzouz , L' histoire ne pardonne pas ; Tunis , Dar Achraf, 1988,

⁴⁵ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص.39.

أما نقطة الاختلاف الثالثة التي لم "تتقطن" إليها السلطات الفرنسية فهي الخلاف المبكر بين الثامريين و البورقيبيين ممثلين في الرشيد إدريس و ذلك منذ 1943... سنة الفرار من تونس إلى أوروبا. يتحدث الرشيد إدريس عن بعض أسباب هذه الهجرة:

" كان ذلك في أواخر شهر أفريل من سنة 1943 فكيف غيّرت رأيي [بعد أن كنت عازما على البقاء في تونس مهما تطورت الأوضاع] ؟ جاءني الأخ يوسف الرويسي (...) و قضى أياما في إقناعي بأن المصلحة تقضي بخروجي من تونس في تلك الظروف العصيبة (...) و ممّا شجعتني على الهجرة الوضع الذي كنت فيه بالنسبة إلى الحزب « و قيادته المباشرة للعمل الحزبي في ذلك الوقت»⁴⁶ و يوضح الرشيد إدريس "الوضع الذي كنت فيه بالنسبة إلى الحزب" أي بالنسبة إلى الحبيب ثامر على النحو التالي :

"قبل مغادرة البلاد كتبنا رسالة إلى الزعيم بورقيبة بتاريخ 20 أفريل⁴⁷ هذا نصها: (...) على إثر موقفنا الذي وقفناه عند تشكيل وزارة شنيق⁴⁸ و ما أحاط به من خلاف مع رئيس الحزب الحكيم ثامر في كيفية تسيير أمورنا الوطنية أصبحنا في شق و الديوان السياسي في شق آخر".⁴⁹ فهل من الصدفة أن تكون الإشارة إلى أول خلاف مع الحبيب بورقيبة في هذه الفترة بالذات التي كان فيها بورقيبة في طريقه من الاعتقال إلى تونس التي سيختار فيها القنصل العام الأمريكي هوكر دوليتل "حماية بورقيبة من الفرنسيين العائدين، ضمن الحلفاء، إلى تونس؟

هذه الهجرة إذن بدأت من حلق الوادي في 3 ماي 1943: "رفقة حسين التريكي و حرمه و هي حامل بابنته بشرى و ابنته هند و ابنه عمر. وكذلك المناضل الصادق

⁴⁶ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص.200.

⁴⁷ - كان الحبيب بورقيبة إذّاك متخفيا و كان القنصل الأمريكي دوليتل قد عاد رفقة الحلفاء إلى تونس واجتهد في حماية بورقيبة.

⁴⁸ - محمد شنيق (1889-1976) رأس وزارة المنصف باي سنة 1943 و الوزارة التفاوضية سنة 1951.

⁴⁹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص.100.

بسبب أحد أبطال يوم 14 نوفمبر 1942. كما لاحظنا بين المسافرين بعض التونسيين ممن كانوا يعملون مع حكومة فيشي Vichy⁵⁰.

و قد حلّ القوم برومة الموسيلينية "و هناك تقابلنا مع المرحوم علي الشريف الذي سافر قبل الحرب كمراسل لصحيفتي "العمل" و "لاكسيون تونيزيان" ثم استقر هناك. و اجتمعنا خاصة بالدكتور ثامر و الأخ يوسف الرويسي و الأخ الهادي السعيد⁵¹ و اتفقنا مع الجماعة على أن نعمل في هجرتنا يدا واحدة. و كان قصدنا منذ البداية أن لا نطيل في إقامتنا في العاصمة الإيطالية و أن نرتحل إلى برلين. و أما الأخ الطيب سليم ف"كان سفره مباشرة من العوينة إلى مطار برلين فيما أذكر و هنا أودّ أن ألاحظ أن هناك عناصر تونسية هاجرت سواء إلى إيطاليا أو إلى ألمانيا أذكر من بينهم الإخوان زين العابدين السنوسي (روما) و الشيخ الشاذلي السنوسي (توفي في برلين) و محمد التركي و فريد القرطبي (توفي في برلين) و مصطفى الغربي من الحزب و كذلك الأستاذ عبد الحفيظ الحداد. و من بين من هاجروا إلى برلين يوسف دربال و محمد بن سلامة و غيرهم (...). و صلبنا إلى برلين (...). و قد لجأ إليها الكثيرون من قادة العرب أذكر من بينهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين والسيد رشيد عالي الكيلاني الذي قام بالثورة العراقية الفاشلة سنة 1941

و الجنرال الراوي من العراق أيضا و القائد فوزي القاوقجي و غيرهم⁵² و "سرعان ما لاحظنا أن العرب كانوا منقسمين بين أنصار لهذا الزعيم أو ذاك ، و كان اتصالنا بالحاج أمين الحسيني سابقا لقدمنا إلى برلين. فقد تراسلنا في شأن قضية فلسطين و كان الرجل معروفا في تونس منذ

⁵⁰ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص 106.

⁵¹ - الهادي السعيد سينضم في القاهرة إلى الشق البورقيبي، ت. 1948.

⁵² - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، صص. 108.

أمد بعيد منذ إقامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي في المشرق و مناصرته للحزب الدستوري لمقاومة قضية التجنيس بإصداره فتوى تعارض الفتوى التي يقال أنها حررت التجنيس في تونس⁵³ كما أنه أيد مساعي الزعيم

الأستاذ الحبيب بورقيبة عند إقامته بروما أثناء اتصالاته بالحكومة الإيطالية⁵⁴ وواصل تأييده لقضايا المغرب العربي فعندما اتصل بنا و أبدى استعدادا لمساعدتنا في إقامتنا و عملنا رحبنا بذلك . و كانت رغبتنا أن نؤسس مكتبا للمغرب العربي يعمل بصورة مستقلة و علنية و منظمة لفائدة شمال إفريقيا. و كنا في هذه المدة باتصال مع إخواننا في روما نتشاور في شؤون حركتنا .

و مما شحذ عزيمتنا على تقوية نشاطنا و السعي في إحكام تنظيمه أن الجنرال جيرو⁵⁵ أقدم على خلع جلالة المنصف باي و قد أعلننا احتجاجنا على ذلك العدوان الصارخ⁵⁶ و " لم يفتح مكتب المغرب العربي في برلين إلا بعد خروجي من المستشفى و كان حفل الافتتاح بالمركز الإسلامي الذي اتخذناه مقرا يوم الأربعاء 18 رجب سنة 1362 هجري الموافق 21 جويلية 1943. و بينما كنت في المستشفى و بعد خروجي و بدء مكتب المغرب العربي في العمل تبادلت الرسائل مع إخواننا الذين

⁵³ - هي فتوى محمد الطاهر بن عاشور (1879 - 1973)

⁵⁴ - انظر في هذه النقطة بالذات في الملاحق ،نوع العلاقة التي كانت تربط شكيب أرسلان ببورقيبة.

⁵⁵ - الجنرال جيرو :قائد القوات الفرنسية ، قام بخلع المنصف باي من خلال مرسوم صادر عنه 1943.

⁵⁶ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص.107.

اختاروا البقاء في روما قبل أن يضطروا إلى النزوح عنها فيما بعد⁵⁷
في هذه السنة أي 1943 يشير الرشيد إدريس إلى أحداث ثلاثة هامة تتعلق بثلاثة
زعماء دستوريين جرمانوفليين :

الحدث الأول يتعلق بموت "زعيم الشمال" الحبيب بوقطفة:
"علمنا بصفة رسمية بالرزء العظيم الذي أصابنا بموت الأخ الحبيب بوقطفة بسبب
رمي القنابل على باخرة المرضى التي كانت تقله يوم 5 الجاري [جويلية] فقد نقل
إلينا الخبر بأنه أصيب بشظية قنبلة فصلت رأسه عن جسده فذهب ضحية الواجب و
دفن ببلده تراباني بجزيرة سيسيلية تغمده الله برحمته"⁵⁸.

أما الحدث الثاني فيتمثل بالذات في إحساس متضخم عند أغلب الدساترة
بأن الواحد منهم يختزل في ذاته صفات الزعامة من دون غيره من "الزعماء" و هذه
الحقيقية عبر عنها الرشيد إدريس الذي لا يقتصد في إسناد هذه الصفة لكل من هبّ
و دبّ في الحزب الدستوري عندما اشتكى في رسالة له من برلين إلى الحبيب ثامر
المقيم في روما من سلوك الزعيم الطيب سليم:

"حمدا و صلاة و سلاما

من الرشيد إدريس إلى الحبيب ثامر

مستشفى فرشوف برلين

أخي الحبيب ثامر

يسوؤني كثيرا أن أكايتكم اليوم في موضوع كنت أحسب أنه لا يطرق بيننا منذ
اتفاقنا كليا في روما و لكن الأخ الطيب مازال كالعادة. فقد جاء

⁵⁷ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 110.

⁵⁸ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 113.

إلى هنا و لم يحترم بتاتا ما تعاهدنا عليه حتى اكتشفنا آخر الأمر أنه يبعدنا تماما أو ينوي إبعادنا عن العمل الوطني هنا. و قد اختار الدكتور مراد (عبد الرحمن ياسين) يتفاهم معه في شؤوننا الوطنية و يهيئ معه إنشاء المكتب المغربي و إصدار الجريدة العربية.

و قد شرحت للأخ الرويسي الأمر شرحا مفصلا.و إنني أدعوكم أن تجعلوا حدًا لهذا العبث حتى لا نظهر في مظهر خلاف و أنكم قد استنتجتم من التجربة السابقة أنه لا يمكن القضاء على حيويتنا و أننا نواصل عملنا رغم كل الحواجز و أننا ننجح في ذلك العمل النجاح المرغوب كما تعلمون، غير أن رغبتنا أكيدة في الوفاق و الوحدة و أنا في هذه الديار في حاجة إلى تنسيق الخطة بيننا فلا نجعل ما وقع بتونس يتكرر .

و قد رغبتنا إلى الأخ الرويسي أن يقدم إلى هنا حتى نبني عملنا على أساس متين و لا أظنكم تعارضون في هذا الأمر ما دام فيه صالح القضية التي من أجلها تركنا وطننا و جئنا إلى هذه الديار .

إنني أدعوكم يا أخي أن تقدروا المسألة حق قدرها ، و أننا لا نسمح للأخ الطيب إذا تمادى في عمله أن يعبث بنا و بقضيتنا و إلى اللقاء القريب.

من أخيكم الرشيد "59.

إن الشعور بالتميز القيادي الذي نسبه الرشيد إدريس إلى الطيب سليم قد يكون هو الذي دفعه عندما تقرررت الهجرة إلى أوروبا إلى أن لا يرافق الجماعة ف"كان سفره مباشرة من العوينة إلى مطار برلين "

على أن الأمر الثالث الهام الذي لا بدّ من الإشارة إليه هو أن كل الدستوريين الجرمانوفليين من كتاب "إفريقيا الفتاة" ، كانوا منذ هذه الفترة المبكرة أي منذ 1943 و رغم تنافسهم بسبب "الزعامة" من دعاة الفكرة المغربية فهذا الحبيب ثامر رغم ما

⁵⁹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 114.

رأيناه من أحداث ميزت سنة 1943 يرى في رسالة بعث بها من روما إلى الرشيد إدريس المقيم ببرلين ضرورة التأكيد على "أنني أريد أن ألقت نظركم إلى أمر له أهميته و هو أن أعمالنا يجب أن ترمي دائماً إلى الوحدة المغربية و استقلال الشمال الإفريقي"⁶⁰

بل إن الأمر سيصل بالجماعة إلى تغيير اسم الحزب الحر الدستوري إلى "الدستور الحركة الوطنية المغربية".

إن القارئ لا يكاد يعثر في حديث الرشيد إدريس عن فترة الهجرة إلى ألمانيا (ماي 1943- خريف 1943) ثم فرنسا (سبتمبر 1943- أوت 1944) ثم إسبانيا (جويلية 1944- جوان 1946) على ذكر للحبيب بورقيبة يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة و على العكس من ذلك فهذه هي الأوصاف التي رافقت ذكر الحبيب ثامر: "لقد تركنا إخوانا لنا بروما رئيس الحزب الحر الدستوري التونسي الحكيم ثامر و الزعيم الأستاذ يوسف الرويسي و من معهما من رفاق"⁶¹

" لقد يسّرت لنا الأسباب . و قد أقام الآن فريق منا بروما حيث الحكيم الحبيب ثامر رئيس حزبنا الحرّ الدستوري التونسي و من معه الأستاذ يوسف الرويسي من زعمائنا و فريق آخر من برلين"⁶² "وعلى كلّ فقد حلّ بأوروبا ما يقرب من العشرة أفراد كلنا من الحزب الدستوري التونسي.

و قد تركنا رئيس الحزب الحكيم الحبيب ثامر و الزعيم يوسف الرويسي برومة و جنّا إلى هنا"⁶³ "أما في باريس فقد كان نشاطنا بين سبتمبر 1943 و أوت 1944 مكتفا باسم الدستور الحركة الوطنية المغربية كما تثبته أوراق مطبوعة و أخبار منشورة بالصحف و صور بعض

⁶⁰ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 113.

⁶¹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 125.

⁶² - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 132.

⁶³ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 133.

الاجتماعات التي عقدناها .كنا ملتفين حول الدكتور ثامر (الأخ يوسف الرويسي،
الطيب سليم، حسين التريكي،الهادي السعيد،الرشيد إدريس⁶⁴

بل إن تسمية الحزب الدستوري الجديد اختفت نتيجة خفوت صوت بورقيبة في
تونس بين 1938 و 1945 و هي مدة طويلة و حاسمة لتحلّ محلّها إمّا تسمية
الحزب الحرّ الدستوري التونسي أو تسمية الدستور الحركة الوطنية المغربية ممّا
وشى بغياب كامل لتأثير الفرنكوفيليين

و سيطرة تامة للجرمانوفيليين حتى في جمعية مثل جمعية الطلبة المسلمين الشمال
إفريقيين في فرنسا في هذه الفترة و لو أردنا أن نلخص فترة المهاجر الأوروبية
لأهميتها لقلنا إن الدستوريين الجرمانوفيليين كانوا في فترة الهجرة إلى روما و برلين
(ماي 1943-خريف 1943) هم الأكثر حيوية و نشاطا و كان ولاؤهم أثناءها
كاملا ل"ملكنا المنصف باي المضطهد في عرشه أعاده الله إلى الوطن مكرّما
منصورا"⁶⁵ تماما مثلما كان التفاهم حول زعيم "الحزب الحر الدستوري التونسي "
المرتبط قرابة بالعائلة المالكة الحبيب ثامر و إن كانوا يميلون إلى أن يخصصوا
بالزعامة مختلف مناطق البلاد باستثناء الشمال الغربي فالرويسي مثلا هو زعيم
الجنوب و "رفيقنا الحبيب بوقطفة زعيم الشمال التونسي"⁶⁶ والهادي شاكر⁶⁷ زعيم
صفاقس.

أما على المستوى العقدي فإن الإسلام كان هو المرجع الواحد الأحد لذلك نجد هذا
الولاء الفكري غير المشروط لشكيب أرسلان و لمفتي القدس أمين الحسيني و
لحليفهما الألماني الذي يعتبر حربا على "إستعمار الحلفاء" و قد كتب الرشيد إدريس
في 23 جويلية 1943:

⁶⁴ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 143.

⁶⁵ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 122.

⁶⁶ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 122.

⁶⁷ - الهادي شاكر (1908-1953) تاجر صفاقسي نشط في الحزب الدستوري القديم و أصبح من أركان الحزب الدستوري الجديد في
صفاقس، قُتل سنة 1953.

"إننا نقوم بهذا العمل في أرض غير أرضنا، و قد وجدنا من الدولة الألمانية استعدادا يذكر فيشكر و سيكون موقفها إزاء حركتنا خالد الذكر في صفحات التاريخ. و يساعدنا على هذا التعاون حسن تفهمّ الألمان إلى كثير من شؤوننا.و كثير منها ستعمل الأيام على تقريب وجهة النظر فيه فتكون الثمرة صالحة طيبة.و هو المرغوب المنتظر.كما تعمل الأيام على زيادة تفهم قوى المحور الأخرى إيطاليا و اليابان و جميع الشعوب التي اعتنقت المذهب المحوري في السياسة و الاجتماع لكنه العرب و الإسلام.و في تفهم ذلك حلّ الكثير من القضايا الراهنة"⁶⁸

أما الفترة الباريسية (خريف 1943 - أوت 1944) فيتحدث عنها الرشيد إدريس على النحو التالي:

"و أخيرا قد تمت مقابلتنا في باريس في خريف 1943 بعد أن اضطر الأخوان [ثامر و الرويسي] إلى مغادرة روما التي حرّرها الحلفاء [إلى برلين] (...) و فعلا تمكنت بعد تلك الزيارة الاستطلاعية التي اجتمعت فيها بالإخوان الدكتور حافظ إبراهيم وعمار خيضر المسؤول عن منظمة العمال الجزائريين و محمد خلفاتي عضو حزب الشعب الجزائري الذي كان قد زارنا في تونس و غيرهم، عدت إلى برلين و اتفقت مع سماحة المفتي على الانتقال إلى باريس و انتقلت أسرة السيد حسين التريكي معنا و بقي الأخ الصادق بسباس قائما بأعمال المكتب في برلين"⁶⁹. و يتبين من حديث الرشيد إدريس عن هذه الفترة التي تقرب من العام أن الاتصالات بين بعض ساسة بلاد المغرب أصبحت وثيقة:

"أما في باريس فقد كان نشاطنا بين 1943 و أوت 1944 نشاطا مكثفا باسم الدستور الحركة الوطنية المغربية (...) و كئنا متصلين بالإخوان الجزائريين و المغاربة خاصة سي الجيلاني أحد مؤسسي حزب نجم الشمال الإفريقي و حزب

⁶⁸ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 127.

⁶⁹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 140.

الشعب الجزائري و جريدة "الأمة" و عمّار خيضر المسؤول عن حركة العمال الجزائريين و الأخوين خلفاتي

و شعبان و غير هؤلاء من الجزائريين و الأخ محمد الدويري و أحمد العلوي و تاج الدين بوزيد من المراكشيين.

كما كنّا متصلين بالطلبة التونسيين أمثال السيد محمد الميلي أو بأفراد الجالية التونسية أمثال الدكتور حافظ إبراهيم و الإخوان محمد بوجمعة و محمد بوننترو و محمد الحفشي...⁷⁰

كما أن العلاقات بين هؤلاء الساسة الشمال إفريقيين و ألمانيا لم تكن أقل وثوقا:

"و قد ظهر معنا في العمل العلني بعض الإخوان الجزائريين و المراكشيين كالأخ سي الجيلاني و غيرهم ممن أخذوا الكلمة في الاجتماعات العامة التي نظمناها إلى جانب الدعوة المتواصلة لدى الجالية المغربية لتوحيدها و تذكية الشعور الوطني فيها (...) و من أهم ما حققناه في نطاق حركتنا العناية بشؤون العمال أصيلي شمال إفريقيا.

و قد اعترفت منظمة "طود" الألمانية المتخصصة في شؤون العمال بصفتنا التمثيلية و كلفنا الأخ حسين التريكي بأن يكون مندوبا لديها للدفاع عن حقوق العمال أصيلي شمال إفريقيا. و قد احتطنا قبل مباشرة المهمة

بالاتفاق مع منظمة العمال الجزائريين التي كان يشرف عليها الأخ عمّار خيضر و الأخ خلفاتي و كذلك مع ممثلي الحركة الاستقلالية المغربية.

و في نطاق نشاط مندوبية الدستور الخاصة بشؤون العمال (...) تمكنا من الإطلاع على ما يقاسيه العمال المغاربة (...) و قد رفعنا في ذلك تقرير الحكومة الألمانية بواسطة المفتي نستكر فيه ذلك الوضع"⁷¹.

⁷⁰ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 143.

⁷¹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 144.

و قد لا يكون من الضروري أن نشير إلى أن موقف من ذكرنا من الدساترة
الجرمانوفليين من الصهيونية بل من اليهود كان واضحا لا يحتمل لبسا مثلما يبين
ذلك ما أورده أحدهم و هو الرشيد إدريس نفسه عن بعض الجرائد الفرنسية:

"و كتبت جريدة "لوماتان" في عددها الصادر يوم 11 أفريل 1944 خبرا عن
اجتماعنا بعنوان "دستور باريس ضد اليهود في فلسطين" جاء فيه "حدد يوم 1 أفريل
لانتهاه العمل بالإجراءات التي تضمنها الكتاب الأبيض البريطاني فيما يخص هجرة
اليهود إلى فلسطين و احتجاجا على المناورات التي ترمي إلى بقاء العمل بتلك
الإجراءات و إلى إنشاء دولة يهودية في ذلك القطر عقدت هيئة الدستور الحركة
الوطنية الشمال إفريقية اجتماعا كبيرا بعد ظهر يوم الأحد بدار الكيمياء برئاسة سي
الجيلاني حضره عدد كبير من العرب أصيلي شمال إفريقيا .و بعد أن ندّد الخطاب
بالاحتلال اليهودي لفلسطين ذلك الاحتلال الذي يكون من نتيجته عدم التسامح الديني
و اضطهاد الإسلام، أكدوا تضامنهم مع إخوانهم في فلسطين و قالوا: لا بدّ أن
نتحرّر من كلّ تدخل أجنبي و أن نحقق وحدتنا و استقلالنا"⁷²

من الطبيعي إذن أن تهاجر الجماعة من فرنسا إلى إسبانيا الفرنكوية (جويلية
1944- جوان 1946) عندما بدأ الحلفاء بالنزول في نورمانديا

في 6 جوان 1944 " فلم يكن من العسير أمام تدهور الوضع الحربي من إقناع
السلط الألمانية بضرورة سفرنا و قد سمح لنا [بذلك] في آخر
الأمر ما عدا الدكتور ثامر فقد احتفظوا بوثيقة سفره و طلبوا منه أن يبقى في باريس
ثم يعود إلى برلين.

و لكنه قرر السفر معنا دون وثيقة في نهاية شهر جويلية.و بعد مغامرة في فرنسا
المحتلة حيث بدأ الألمان يصعدون من الجنوب إلى الشمال
و أخذت حركة المقاومة الفرنسية تقوّى ضرباتها بنسف الجسور و تهديم معالم
الطريق وصلنا إلى الحدود الإسبانية فتمكّنّا من الدخول بصورة عادية ماعدا الدكتور

⁷² - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 149.

ثامر رحمه الله فقد استطاع بواسطة خبير في عبور الحدود من اجتياز الحدود بصفة غير قانونية سباحة في مجرى ماء يفصل بين فرنسا و إسبانيا⁷³ تشخّ المعلومات في مذكرات الرشيد إدريس فيما يتصل بفترة المهجر الإسباني على الرغم أولاً من طولها نسبياً إذ امتدت من جويلية 1944 إلى جوان 1946 (ما يقرب من عامين) و ثانياً مما أتاحته للاجئين السياسيين التونسيين من ربط صلات عديدة بقيادة الحركات الاستقلالية في بلاد المغرب للعداوة القائمة بين النظام الجمهوري الفرنسي و النظام الفرنكوي فنحن لا نكاد نعثر في مذكرات إدريس على أكثر ممّا يلي :

" تواصلت إقامتنا في إسبانيا سنة و عشرة أشهر حاولنا خلالها السفر إلى المنطقة الخلفية فلم نفلح.و لم يكن لنا مجال للعمل القومي ما عدا بعض الاتصالات ببعض الزعماء المغاربة كالأخ عبد الخالق الطريس⁷⁴ الذي قدم في زيارة إلى مدريد مع ديوان المغرب و بعض الصحافيين

و أهمهم السيد حيّان ابن أميّة الذي كان يكتب في مجلة "الموندو" و ينشر بعض التعاليق عن القضايا العربية و هو يقول إنه من سلالة بني أمية و يفخر بذلك و اتصلنا بالسفارة المصرية لمطالعة الصحف العربية.

و سألنا السفير المصري عن إمكانية السفر إلى مصر فأظهر لنا استحالة ذلك⁷⁵.و لما أعلن عن قيام الجامعة العربية في مارس 1945⁷⁶ بدأنا نشعر بقليل من الأمل و لم تمض أسابيع قليلة حتى قرأنا بجريدة ال(ABC) أ،ب،ث، الإسبانية خبر وصول المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة إلى القاهرة بعد مغامرته عبر طرابلس⁷⁷ فأطلعت إخواني على الخبر و حررنا رسالة إلى الزعيم لمحاولة تنسيق عملنا و الالتحاق به

⁷³ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 150.

⁷⁴ - عبد الخالق الطريس (1970-1910) رئيس حزب الإصلاح الوطني في المغرب الخلفي.

⁷⁵ - توافقا مع الموقف البريطاني من الجماعة

⁷⁶ - بتشجيع و دفع من بريطانيا التي ستقبل بتغيير موقفها منهم معارضة منها و من الولايات المتحدة لنمط الاستعمار الفرنسي في

شمال إفريقيا.

⁷⁷ - كان من المقرر حسب سليمان بن سليمان أن يسافر البلهوان إلى القاهرة.

في القاهرة. و لم يكن لدينا عنوانه و لكن كنا نعرف عنوان الشيخ محمد الخضر حسين فكتبنا للزعيم بواسطته.و بذلك تم الاتصال .و سرعان ما ردّ على رسائلنا و بذل منتهى الجهد بحماسه المعهود حتى نلتحق به في أقرب وقت، و فعلا فقد تمكّنّا من مغادرة إسبانيا إلى القاهرة في 9 جوان من سنة 1946⁷⁸ و لكن بورقيبة القاهرة هو في حقيقة الأمر بورقيبة الذي اختار دوليتل منذ 1942 أن يشملته برعايته فهل من المنطق عندئذ أن يتشبث الرشيد إدريس و الطيب سليم و الهادي السعيد و من اصطف في صفهم في المهجر المصري بركوب" الجواد الخاسر" أي الحبيب ثامر في المرحلة الجديدة (1946-1949).

⁷⁸ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية، مصدر سبق ذكره، ص، 151-152.

الفصل الثاني

علي الحمامي من تيهرت إلى القاهرة

(1947-1902)

كتب محمد علال الفاسي عن علي الحمامي:

"عرفت من أحاديثه أنه ولد في الجزائر⁷⁹ من أب ريفي⁸⁰ من جبل الحمام⁸¹ و أم سوسية⁸² ثم هاجر مع والده إلى المشرق و هو صغير حيث أقام بالإسكندرية و تعلم بمدارس الإفرنسييس⁸³"

⁷⁹ - في تيهرت سنة 1902 حسب ش.بوعمران في تقديمه رواية علي الحمامي IDRIS, Roman Nord africain , Alger, Entreprise Nationale du livre, 2ème éd., 1988, p.8.

⁸⁰ - ريفي تعني في المصطلح الجغرافي المنتسب إلى الجبل و هو يكوّن ، إضافة إلى الريف المنطقة الخاضعة للاحتلال الإسباني.

⁸¹ - جبل الحمام هو جبال جرجرة في الولاية المسماة حاليا بتزي وزري و المقصود هو عين الحمام أو Michelet في الزمن الفرنسي.

⁸² - أم سوسية أي تنتسب إلى منطقة السوس

⁸³ - جريدة العلم بتاريخ 21 ديسمبر 1949.

أما الحمامي فكتب عن نفسه :

" ظلّ إدريس ابنا للجبل و لكن تعليمه تطوّر. فبفضل استعداده الفطري اتسعت معارفه و تعودّ على استعمال الفرنسية و العربية على حدّ سواء. كانت الآداب تستهويه و كان فضول دافع إلى معرفة كلّ شيء قد عودّه منذ وقت مبكر على الميكانيك و العلوم الطبيعية. إن الأمر يحتاج طبعا إلى كثير كي تجد معارفه العلمية الوسائل التي تمكّن من التعمّق في معطيات المعادلات و القوانين المعقدة شيئا ما و لكن بلدا [تحدّد فرنسا سياسته التعليمية] لم يُننِ إطلاقا على أساس يسمح لشاب "أهلي" موهوب بأن يواصل السير كيفما شاء في درب يمكن أن يقوده إلى أن يحذو حذو واحد مثل لابلاس⁸⁴ أو لامارك⁸⁵ .

و فاس ليست هي بالمدينة التي كان يمكن لإدريس فيها أن يتابع مرحلة تعليم قد تتوجها السوربون .فباريس لا تفتح كل أبوابها في وجه المغاربة.إن مدينة النور لا توزع عليهم منّها الفكري إلا بالتقتير.و حتى هذا لا يجب أن يتعدّى الحقوق و الطبّ. فهل حدث أن رأى أحدهم مرّة شمال إفريقي يتخطى بوابة البوليتكنيك⁸⁶ لم يتبق إلا الشرق إذن.و المغرب مسلم و شرقي رغما عن اسمه الذي إذا كان يبرره الموقع الجغرافي فيربطه ببلاد المغرب المتوسطي فإذا ثقافته و طرق حسّه و تفكيره و عمله توجّه أنظاره دوما إلى المشرق.

و الشرق بالأمس هو الإمبراطورية العثمانية و الشرق اليوم هو مصر" و إذن فإنه يمكن القول أن الحمامي عصاميّ autodidacte و لكن هل سيدرس الحمامي في جامعة القرويين؟ بل هل كان حقا من أصل جبلي ريفي ؟

⁸⁴ - La Place (1749-1827) - عالم فرنسي.

⁸⁵ - Lamarck (1744-1829) - عالم فرنسي.

⁸⁶ - لم يتخرج التونسي محمد علي العنابي من البوليتكنيك إلا في ثلاثينات القرن العشرين. وهو أول خريجي هذه المدرسة من المغاربة بل إنه في مجال اللغة و الأدب العربيين لم يحصل التونسي محمد عطية على التبريز إلا في التاريخ سالف الذكر. و مع ذلك لم تسند إليه غير وظيفة نائب مدير المدرسة الصادقية الفرنسي Bollon

نحن لا نعتقد ذلك. و حتى علال الفاسي ، الذي أورد نقلا عن الحمّامي المعلومات القليلة التي استغللناها في هذا الجزء من البحث، لا يعتقد ذلك.

و لكن انتصار الحمّامي لمحمد بن عبد الكريم الخطابي في ثورته ضد الإسبان و الفرنسيين و التحاقه به مكنّاه من معرفة جيدة سواء بالجبل أو بالمدينة (فاس) فاستغل ذلك لنقد هذه الجامعة التقليدية نقدا وصل إلى حدّ تسميته أشهر شيوخها بـ"مناة" مقابلة منه بين الببغائية المدنية و صفاء الذهن الريفي حتى و إن كان بسيط التكوين:

"من الصعب على طفل الكتاب و لو حفظ القرآن عشر مرات أن يكون أي فكرة عن الرسم إذ لا يوجد وجه شبه بين الكتاب و السنوات الأولى في مدرسة ابتدائية حديثة و لن يبدأ التلميذ الجبلي بالتدرب على اكتشاف خفايا النحو و تركيب الجمل إلا في وقت لاحق عندما يلتحق بجامعة القرويين ثم يلتحق بعد ذلك إن شاء الله (و هذا أمر نادر) و إن توفرت الإمكانيات بتونس أو بالقاهرة لإنهاء و إكمال تعليم ابتداء على هذا النحو السيئ جدا ⁸⁷

مردّ تعليمه إذن إلى أبيه الذي كان كثير السفر إلى بلاد المشرق و ثانيا إلى الحياة التي امتازت في هذه الفترة بالذات في المغرب الأقصى بتنافس القوى العظمى و انقسام العرش العلوي و شدة مقاومة القبائل الغزو الأجنبي ، و هي قبائل لم يقع إخماد صوته نهائيا في حقيقة الأمر إلا في بدايات ثلاثينات القرن العشرين فانفسح المجال بداية من هذه الفترة أمام نضال من نوع جديد و هو النضال السياسي ممثلا في قادة الأحزاب الأكثر شهرة :محمد علال الفاسي و محمد بن الحسن الوزاني في المغرب السلطاني و عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطني ،في المغرب الخليفي، خاصة و من يقرأ بتمعّن رواية "إدريس" فسيلاحظ مدى تأثير الأب في الطفل و خاصة أثر هذه الحروب فيه و هو مازال صبيا في الكتاب:

⁸⁷ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.65

"تمكّن بملازمة أبيه من إصلاح نواقص تربيته المختصرة (...) إن رواية سفراته و ما مثله حياته من قدوة و معارك القبائل ضد الغزاة كلّ ذلك أثر في شبابه و فتح عينيه على آفاق جديدة"⁸⁸

لقد كان أبوه الذي شارك في عدد من هذه الحروب مثلما سيشارك في حرب الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي في بداية عشرينات القرن العشرين مضطرا إلى أن يقبل بأن يلازمه ابنه ملازمة دائمة و ذلك على الرغم من أنّه كان شديد الإيمان بأن طريق الحمامي يجب أن تختلف عن طريقه هو، أي أن تكون طريق المدرسة. لذلك نراه يصرّ حتى بعد أن أنهى الحمامي الكتاب أن لا ينقطع عنه:

"هذا هو الوسط الذي استهل فيه حياته .ففي سن الثانية عشرة [1914]، و بعد أن لازم "المسيد" منذ أربع سنوات أو خمس، كان كلّ ما حفظه لا يتعدّى استظهار القرآن من دون أن يفهم منه شيئا"⁸⁹

كان الأب ينتظر أن يبلغ الحمامي العشرين [1922] فيبعث به إلى القرويين في فاس :

"و كان يعتقد أنه يمكن بعد تربص في القرويين أن يجد له مكانا في الزيتونة أو الأزهر. كان فيما يشبه نوعا من تبرئة الذمة يوجهه هذه الوجهة، و في انتظار ذلك كان يتركه ينمو بحرية في هواء الحياة الجبلية الطلق بين الصيد و أحلام الوحدة و المناظرات الطويلة في ظل شجرة

التين التي يجتمع تحتها آيت⁹⁰ أربعين القرية"⁹¹

⁸⁸ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.65

⁸⁹ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.71

إن هذا هو ما يفسّر إرسال الحمامي بين 1914 و 1918 للدراسة في تطوان عاصمة المغرب الخلفي. وهنا في تطوان سيكون لأحد رجال الدين الإسبان غير الاتباعيين تأثير كبير في الحمامي فبعد أن:

"تعلم [الحمامي] في تطوان أثناء إقامته بها الإسبانية. كان يقرأ قليلا صحف مدريد و يُسأف⁹² كل يوم لغة سيرفانيس⁹³ التي تشبه سرعتها إلى حدّ كبير صوت القيثارة" تعرف برجل دين اسباني متمرد على تحريف أقوال المسيح لا يكف عن التنديد بتحالف الثلاثي:الثكنة و السجن

و الكنيسة فكان له في الحمامي التأثير الذي وصفه على النحو التالي:

"في الوقت الذي كان فيه الأب توركوأتو **Torcuato** يبحر نحو أمريكا [1920] كان [الحمامي] يهيئ نفسه للذهاب إلى فاس. لم يعد مثلما كان تلميذ الكتاب القديم. لقد نمت معارفه (...) لم يكن قطعاً، في عمره ذاك يضاهاى حائزاً على البكالوريا يساويه ذكاء و يهيئ نفسه لاجتياز مناظرة البوليتكنيك أو مدرسة الترشيح و لكن عناصر المعرفة المتناثرة التي جمعها كانت الآن كافية لمجابهة أسرار فاس⁹⁴ إن إشارات علال الفاسي المقتضبة إلى نشأة علي الحمامي و مصاحبة أبيه في رحلته المشرقية قبل أن يعود إلى الريف في بدايات العقد الثالث من القرن العشرين ليشارك في ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي (1921-1926) ضد الإحتلالين الفرنسي و الإسباني أي الإشارات المتعلقة بفترة تقرب من ربع القرن تتطلب مزيداً من التوضيح.

⁹⁰ - آيت تعني بالبربرية الجماعة و الأربعون تعني الرقم المعروف.

⁹¹ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.153-154

⁹² -من السيف S'escrimer

⁹³ -سيرفانيس Cervantés كاتب إسباني (1547- 1616) ألف "دون كيشوط الشهير.

⁹⁴ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.199

و ما من سبيل إلى ذلك غير رواية "إدريس" التي إن وصفها صاحبها بأنها رواية شمال إفريقية فيمكن أن نصفها نحن بأنها من وجوه عديدة ترجمة ذاتية إذ يستحيل في نظرنا فهم هذه الرواية، إن لم يكن القارئ مطلعاً بما فيه الكفاية علي تاريخ بلاد المغرب قديمه و حديثه و المغربيين الأقصيين : السلطاني⁹⁵ و الخلفي⁹⁶ بصفة خاصة فـ **Larrogant** ليس إلا الماريشال ليوتي⁹⁷ و **Trück** ليس إلا خلفه الجنرال ستيق

Steeg⁹⁸ و سان لوشان ليس إلا لوسيان سان أمّا فيما يتعلق بالمغاربة فإدريس ليس إلا علي الحمامي و سي تاشفين هو علال الفاسي⁹⁹. على أن تناول هذه الترجمة الذاتية يجب أن يقترن بالحدز الشديد إذ كثيراً ما يعمد علي الحمامي إلى المطابقة بين تفكيره هو و تفكير أبيه مثلاً أو ينسب تجارب فكرية عاشها هو إلى أبيه مكتفياً بالإشارة إلى أن أباه كان يتوصل إلى ما يتوصل إليه بفضل "حسنّ جبلي" يكاد يكون حكراً على سكان الجبال من دون أهل المدن الذين يتحفظ إزاءهم سواء أكانوا من فاس أم الجزائر أم تونس أم المشرق أم باريس فهذه الرواية عبارة عن منجم فكري سياسي نظراً إلى فترة كتابتها (في العراق أثناء ثورة عالي الكيلاني) و من أسباب عدم انتشارها معاداتها المفرطة لكل الايديولوجيات الوطنية و القومية العربية و الإسلامية و الاشتراكية

و الشيوعية و الرأسمالية و الصهيونية و قولها بشعار واحد هو القومية المغربية على أساس من هذا الصفاء الأصلي الذي هو سمة البربري الجبلي لا المدني مما قد يدفع المرء إلى التساؤل عن أي حزب سياسي كان يمكنه في أربعينات القرن العشرين أن يتبنّى روائياً -مفكراً سياسياً من عيار علي الحمامي.

⁹⁵ - المغرب السلطاني ، الواقع تحت الحكم الفرنسي.

⁹⁶ - المغرب الخلفي، الواقع تحت الحكم الإسباني.

⁹⁷ - الماريشال ليوتي (1854-1934) هو الذي قاد حملة احتلال المغرب السلطاني و أنهت ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي إقامته العامة سنة 1925.

⁹⁸ - الجنرال ستيق : خلف ليوطي في الغرب السلطاني سنة 1925 .

⁹⁹ - محمد علال الفاسي (1908-1974) رئيس حزب الاستقلال المراكشي.

و مما زاد الأمر تعقيدا أن الجزائري علي الحمامي (و لا معنى لهذا الوصف عند الحمامي) اختار فكريا أن لا ينتسب في روايته إلى المغرب السلطاني لموقف العرش العلوي المتخاذل من فرنسا و لا إلى الجزائر

و تونس لهيمنة التيار المطلبي على هذين البلدين و اختار الانتساب إلى الجبل و الريف موطني ثورة الخطابي مما دفع الكثيرين إلى نسبته إلى المغرب الأقصى لا إلى الجزائر فهذه جريدة النهضة تكتب في تأبينه :

"إن المرحوم علي الحمامي من أصل مغربي و قد نشأ في الجزائر و تلقى دروسه الابتدائية و الثانوية فيها فبات بحكم إقامته الدائمة فيها جزائريا صميما و بات غيورا عن [كذا] تلك البلاد متحمسا في الدفاع عنها"¹⁰⁰ على أن الجزائريين تفتنوا عند قيام الدولة الوطنية في الجزائر إلى القيمة الفكرية السياسية للحمامي فأعادوا طبع روايته الداعية إلى الفكرة المغربية الرافضة لمصطلح "المغاربة" باللغة الفرنسية و كان عليهم أن يبذلوا جهدا أكبر فيعرّبوا هذه الرواية التي لم نر لها مثيلا في الإنتاج الروائي الفكري السياسي في أربعينات القرن العشرين¹⁰¹ .

و لسوف تفاجئ حرب الريف الحمامي و تختلط الأحداث بين 1921 و 1926 حتى أصبحنا نرى الحمامي طالبا و مقاتلا بلغ يأسه أقصى ما يمكن أن يبلغه عند انهزام "أسد الريف" إذ كتب:

"إن مسرحية فاجعة من مسرحيات مأساة العصور الحديثة كانت أحداثها تدور في الريف من دون خاتمة ممكنة فبلا انقطاع كانت تصل فرق يدفع بها في الحين إلى قلب المعركة. وكان هذا الذي مكّنه التاريخ شرف إلحاق الهزيمة في جحيم فردان

¹⁰⁰ - جريدة النهضة ، 16 ديسمبر 1949.

¹⁰¹ - تفتن محمود تيمور لقيمة هذه الرواية عند نشرها سنة 1948 فقد عقد عنها [كذا] سعادة الأستاذ الكبير محمود تيمور بك فصلا في إحدى الصحف الأدبية رفع فيها القصة و مؤلفها إلى العلا " (الحرية، 25 ديسمبر 1949) و قد تمكنا من العثور على هذا الفصل ، بعد عناء كبير ، فانظر نصه في الملاحق.

Verdun [يقصد الماريشال بيتان] بوريث العرش الإمبراطوري الألماني و أفسد خطط رئاسة أركان الحرب الألمانية يجد نفسه مضطرا إلى التوقف بل قريبا من الارتداد على أعقابه بفعل عدد قليل من القبائل المراكشية يقودها رئيس لا يتجاوز تكوينه العسكري حدود الارتجال .لقد امتلأ العالم سنتي 1925 و 1926 بضجة هذه المعركة باسم أمغار¹⁰² أجدير¹⁰³ و لكن الصُلب انتصر.إن بإمكان البندقية أن تصمد، عند اللزوم، إزاء الرشاشة و لكنه ليس بإمكانها أن تصمد إزاء القوى المشتركة : قوة المدفع و الدبابة و الطائرة والحصار. ذات مساء يوم من أيام ماي 1926 انتشر خبر قرب توقيف العمليات الحربية ووصول مبعوثي الأمغار إلى الخطوط الأمامية بغاية الحصول على شروط الهدنة.وبعد أسبوع صمّت صوت المدفع و دخلت بلاد المغرب في صمت¹⁰⁴

" و دخلت بلاد المغرب في صمت" ما أشد وقع هذه العبارة الدالة على وحدة مصير بلاد المغرب العربي على النفس المؤمنة بالفكرة المغربية. إنه لن تبقى أمام الحمّامي، بعد أن نزل الصمت على بلاد المغرب إلا أن يغادرها إلى حيث توجد فسحة للكلام فكانت هجرته سنة 1926 إلى باريس ، عاصمة الدولة الغازية.

كتب علّال الفاسي عن الحمّامي:

"سافر إلى باريس و اتصل بالأمير خالد و شارك في الحركة التي كان يترأسها الزعيم الجزائري ثم أسس معه و مع السيد مصالي الحاج¹⁰⁵ جمعية نجم شمال إفريقيا¹⁰⁶ و بعد ذلك انخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي¹⁰⁷ فكان يكتب في

¹⁰² - أمغار: الشيخ بالبربرية.

¹⁰³ - أجدير : قرية الخطابي.

¹⁰⁴ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.297

¹⁰⁵ - أحمد مصالي الحاج (1898-1974) من مؤسسي نجم شمال إفريقيا سنة 1926 و حزب الشعب الجزائري 1937.

¹⁰⁶ - النجم الإفريقي (1926-1937) تأسس سنة 1926 و حلّ محله سنة 1937 حزب الشعب الجزائري P.P.A

¹⁰⁷ -الحزب الشيوعي الفرنسي Parti Communiste Francais ، تأسس سنة 1920 عقب الانشقاق في صلب الحزب

الاشتراكي في مؤتمر تورس Tours

الإنسانية¹⁰⁸ فصولاً عن شمال إفريقيا. و تغلغل في العمل النقابي حتى صار من العاملين في هيئة س.ج.ط.¹⁰⁹ ثم حدث له خصام مع طوريس¹¹⁰ زعيم الحزب الشيوعي أدى بهذا الأخير إلى شتمه فرماه الحماي بدواة جرح بها وجهه. و تدخلت موسكو¹¹¹ في الأمر فانتقل الحماي موظفا بعاصمة السوفييات بإدارة تتعلق بتنسيق أعمال الفلاحين في العالم. و قد مكث الأستاذ الحماي في موسكو مدة ثلاثة أعوام¹¹² درس فيها الحالة في روسيا و أدّاه ذوقه و إدراكه إلى أن النظام الروسي ليس هو المثل الأعلى الذي كان ينشده¹¹³

هذه الإشارات المقتضبة إلى أحداث جدّت في حياة الحماي بعد هجرته إلى فرنسا عقب هزيمة محمد بن عبد الكريم الخطابي في "الريف" توجز خمس سنوات من حياة الحماي لا بد من التوقف عندها لأنها تمثل فترة مفصلية في حياة الحماي سواء منها السياسية أم الفكرية إذ هي سنوات تفسّر حضور فكرة "العدالة الاجتماعية" التي تعد لازمة في روايته التاريخية.

يتحدث علال الفاسي، نقلاً عن الحماي نفسه، أنه كان من ضمن الجماعة المؤسسة لنجم شمال إفريقيا 1926 و يذكر إضافة إليه كلا من الأمير خالد و أحمد مصالي الحاج ممّا يطرح قضية شائكة تتصل بانتماء من قامت عليهم هذه الجمعية طبقياً و بما يُلوّن تفكيرهم السياسي

¹⁰⁸ - الإنسانية L'humanité، صحيفة يومية أسسها سنة 1904 جان جوريس Jean Jaurès و أدارها إلى سنة مقتله

1914. أصبحت منذ 1920 لسان الحزب الشيوعي الفرنسي.

¹⁰⁹ - س.ج.ط. C.G.T Confédération Générale du travail (الكونفدرالية العامة للشغل)

¹¹⁰ - طوريس Maurice Thorez (1900-1964) ، الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي بداية من 1930

و من هنا يظهر خطأ علال الفاسي الذي تحدث عن رئاسة طوريس للحزب قبل 1930.

¹¹¹ - بعد أن أزاح ستالين بين 1925 و 1927 من إدارة الحزب الشيوعي السوفيياتي زينوفيف Zinoviev

و كامينيف Kamenev و تروتسكي Trotsky ، شرع سنة 1929 مع بداية المخطط الخامس في تشييع الأرض

Collectivisation و القضاء على كبار الفلاحين (Koulaks) مما يفسّر وظيفة الحماي.

¹¹² - من 1928 إلى 1931.

¹¹³ - علال الفاسي ، جريدة العلم، 21 ديسمبر 1949.

و الاجتماعي إذ لا اتفاق بين الباحثين لا حول هؤلاء المؤسسين و لا حول ميولهم الطبقية¹¹⁴ فعمار بوحوش و أمثاله ممن تغلب عليهم النزعة الإسلامية يجتهدون في ردّ تأسيس جمعية النجم إلى ساسة ذوي ميول إسلامية و لكن باحثين آخرين يذهبون إلى أن نجم شمال إفريقيا تأسس في وسط عمالي قبائلي محض متحفظ إزاء حركة الأمير خالد الجزائري (توفي في دمشق سنة 1936) لأن هذا الأمير كان سنة 1930 مثلما كتب عنه مصالي الحاج نفسه "يجمع حوله البرجوازية و شعب العاصمة

و كان قد أسس جريدة تحمل اسم "إقدام"¹¹⁵ التي كان يكتب فيها إذاك فرحات عباس و محمد الصالح بن جلول و هما آنذاك من دعاة الاندماج. و يضيف مصالي :

"كان برنامج الأمير خالد السياسي هو برنامج "الإصلاحيين" نفسه. كان يطالب إجمالاً بإلغاء قانون الأهالي و بتحسين الوضع الاقتصادي و بتمثيل برلماني يتمثل في ستة نواب في البرلمان و ثلاثة نواب في مجلس الشيوخ و لكنه لا يثير قضية استقلال الجزائر"¹¹⁶ و عندما نظم "النجميون" سنة 1930 في باريس لقاء حاشداً للتنديد بمئوية احتلال الجزائر و دعوا إليه الأمير خالد سلك الأمير سلوكاً وصفه مصالي الحاج في مذكراته على النحو التالي:

"اعتقد الجزائريون أنه سيحضر بين لحظة و أخرى ثم قالوا إن شاغلاً جدياً منعه من ذلك. غير أنه لم يبعث حتى برسالة اعتذار. و في اليوم التالي استقبلنا سي أحمد بعلول

¹¹⁴ - انظر في الموضوع : محمد الحاجي ، المسألة البربرية في الجزائر المعاصرة (1926-2004) (ش.د.م. غير منشورة)، منوبة، كلية الآداب، 2003. و محسن الرياحي ، الفكرة المغربية نشأتها و تطورها، (1926-1962) (ماجستير، غ.م.) ، منوبة، كلية الآداب، 2004.

¹¹⁵ -Messali Hadj , Mémoires, Paris, Lattés, 1982 , P.119.

نفا عن درس الأستاذ محمد ناصر النفزاوي "التيارات الفكرية السياسية في الثورة الجزائرية" ، الذي ألقى على طلبة شهادة التعمق في البحث بكلية منوبة، السنة الدراسية 2002-2003.

¹¹⁶ -Messali Hadj , Mémoires, op.cit.p.138.

ممثل الأمير خالد. وقد أعلمنا أن الأمير قد استاء لأننا أدرجنا اسمه في منشور الاستدعاء للقاء و أضاف أنه بادر من تلقاء نفسه بالكتابة إلى وزير الداخلية لتبرئة ذمة الأمير من المسؤولية . ولقد أصبنا بالذهول ذلك أننا كنا بعيدين عن توقع موقف مثل هذا الموقف."

فهل يستغرب المرء من مصالي الحاج بعدما سلف أن كتب عن علاقة النجم بالأمير خالد:

"بيننا مثلا و بين الأمير خالد تباين يشبه تباين النهار و الليل "

و إذا كان هذا هو رأي مصالي الحاج في الأمير خالد فنحن نستبعد أولا أن يكون موقف الحمامي من الأمير مخالفا لموقف مصالي الحاج و ثانيا أن يكون الأمير من مؤسسي النجم ذلك أن أشهر هؤلاء المؤسسين كانوا يرون حتى في مصالي الحاج، الذي رأينا موقفه من الإصلاحيين ، شخصية تشكو نقصا في التكوين المادي التاريخي.

"وفعلا فمن المجمع عليه أن مصالي الحاج خطا خطواته السياسية الأولى في ظل الشيوعي القبائلي حاج علي عبد القادر الذي كان إضافة إلى نظرتة المادية التاريخية إلى الأشياء يقول منذ عشرينات القرن العشرين أي منذ ولادة الفكرتين الشامية على يدي أنطون سعادة

و العربية التقليدية على يدي ساطع الحصري، كان يقول بالفكرة المغربية المتمثلة في أن "هذا الطائر الذي هو المغرب الكبير لا يمكن أي يمتطي الهواء إلا كاملا بجسمه و جناحيه، أما الجسم فهو الجزائر لحجمها

و موقعها و أما الجناحان فهما تونس و المغرب" ثم صاغ هو و بقية قادة نجم شمال إفريقيا الشعار المثبت في بطاقة الانخراط في هذا التنظيم

و هو" أيها المسلمون الجزائريون و المغاربة و التونسيون لتتحد"

و لكن حاج علي عبد القادر رئيس نجم شمال إفريقيا(1926) سبق أن لفت انتباه مصالي الحاج منذ 1925 بعد أن استمع إلى خطبة قصيرة ألقاها مصالي الحاج

إلى "أن هذه الكلمة تبدو في آذان البعض أوغل في الدين و في ماضي الإمبراطورية العربية فلا بدّ من الإكثار من المطالعة لمعرفة أفضل بعدد من المشاكل الأخرى"¹¹⁷ و يعلق مصالي الحاج على التنظيم الذي سينشط فيه أي نجم شمال إفريقيا و كان يضمّ من الشيوعيين على الأقل الأعضاء التالية أسماؤهم : "الرئيس حاج علي عبد القادر ، أمين مال شابيلة الجبلاني و المسؤول النقابي معروف محمد و العضو آيت تودرت و العضو الشغل بوطيل على النحو التالي:

"كانوا (يقصد الشيوعيين) يشبهون المسيحيين الأوائل. و لكن الأمر فيما يخصّني لم يصل إلى هذا الحدّ. فلقد كان الإسلام دائما يملأ قلبي و يحرك كل كياني"¹¹⁸ إن هذا الشعور هو الذي يفسر إلى حدّ كبير حذر الشيوعيين الآخذين بنظرة تاريخية مادية إلى الأشياء المتزايد من مصالي الحاج و من ثم سبب سعيه إلى تقليص علاقاته بالشيوعيين و تمتينها بالاشتراكيين:

"كنا كذلك نسعى إلى تعبيد الطريق نحو الحزب الاشتراكي و جمعية حقوق الإنسان و الكتل السياسية اليسارية حتى نكسر طوق الخلوة بالشيوعيين"¹¹⁹ و لسوف تزداد علاقة مصالي الحاج بالشيوعيين سوءا على مرّ الأيام فيكون ذلك من أسباب انشقاق الشق اليساري الراديكالي في النجم سنة 1937 بقيادة عمّار عيماش "أب الفكرة الأمازيغية حسب كثير ممّن أرخوا لها و صاحب كتيّب : "الجزائر في مفترق الطرق: السير نحو المجهول (بالفرنسية باريس، المط. المركزية، 1937) الشهير من ناحية

و من ناحية ثانية من أسباب سوء ظن مصالي بالفكرة الأمازيغية إذ أصبح يرى فيها الخطوة الممهدة لأنجلة ثلاثة أخماس سكان المغرب.

¹¹⁷ - Messali Hadj , Mémoires, op.cit.p.142

¹¹⁸ - Messali Hadj , Mémoires, op.cit.p.145

¹¹⁹ - Messali Hadj , Mémoires, op.cit.p.173.

و مثل هذه التهمة التي سيتبناها الكثيرون كانت لأسباب حزبية وعلى من ينشدون فكرة قريبة من الحقيقة أن يراجعوا ما يتصل بالمسألة الأمازيغية سواء في طورها الأول (حتى 1937) أو طورها الثاني (1949) عندما أُقيل الحسين آيت أحمد من قيادة المنظمة السرية و عُوض بين بلة) أو طورها الأخير أثناء حرب التحرير ثم عهد الاستقلال. وإذا كان هذا هو موقف مصالي الحاج من القوى السياسية الشيوعية و من النزعة البربرية فهل يتصور المرء إمكانية وجود تقارب فكري بينه و بين الحمامي الذي مازال أولا عظيم التقدير لموقف الأُممية الثالثة و الحزب الشيوعي الفرنسي من حرب الريف:

" خاطر إدريس بالقول فيما يشبه التأمل:

لم يُعَنَّ إذن غير الشيوعيين، معنويا على الأقل"

و ثانيا شديد الإيمان بالمركزية البربرية في تاريخ بلاد المغرب

إن كل شيء ،تقريبا، يحول دون أي تلاق فكري بين الحمامي و مصالي الحاج و إذا كان هذا التلاقي الفكري بين الثلاثي الأمير خالد و مصالي الحاج و علي الحمامي على ما رأينا فكيف يمكن للمرء أن يتحدث عن اشتراك الثلاثة في تأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1926؟

على أنه يمكن للمرء أن يتصور تلاقيا قصير الأمد فرضته ظروف الهجرة و عدم معرفة البعض بما يقوم عليه تفكير البعض الآخر و هو تلاق انتهى بإيغال الأمير في نهجه الإصلاحية و إيغال مصالي الحاج في النهج الإسلامي خاصة بعد أن تعرف على شكيب أرسلان، أكبر داعية إسلامية بعد جمال الدين الأفغاني و إيغال علي الحمامي في نهج شيوعي يريده "أصوليا"

هذا هو التفسير الوحيد لنشاط علي الحمامي في المهجر الفرنسي بين 1926 و 1928، هذا النشاط الذي اتخذ وجوها عديدة منها النقابي (نشاطه ضمن س.ج.ت)

و الثقافي (التحرير في L'humanité)

و السياسي الذي انتهى بخصومة بينه و بين مورييس طوريس، الشيوعي اليهودي الفرنسي الشهير.

و لكن تماما مثلما انفصل الحمامي بعد فترة قصيرة عن النجم، سرعان ما انفصل عن القادة الشيوعيين ساسة و نقابيين بسبب ما رأينا من قوله بالشيوعية "الأصولية"، هذه الأصولية التي حكمت عليه بالألا يستقر على شيء. و فعلا فهذا "البربري المسلم" لا يتمكن من التفريق بين ما يسمى بأخلاق التأسيس و أخلاق الممارسة، أي بهذه الأخلاق التي ترافق ظهور كل دين و كل نظرية و تكون معبرة عما هو كائن لأنها خاضعة لعوامل عديدة. فاليهودية و المسيحية و الإسلام ديانات صادرة عن نبع واحد

و تتصف عند النشأة بالصفاء و لكنها حالما تسكن جسد الدولة تفقد شيئا فشيئا و على مرّ الأيام و السنوات و القرون صفاءها فتتحول إلى "أضرحة" و شأن الشيوعية شأن هذه الديانات :يتساوى القائلون بها في هذه "الطباع الذنبية" التي بنى عليها هوبز فلسفته "واقعية منه". هذه الطباع الذنبية" هي التي تفسر عند الحمامي كيف يكون الديمقراطي في بلده مدافعا عن "حقوق الإنسان" و في البلد الذي يستعمره بلده دافنا لها. إنها بلغة اليوم سياسة "الكيل بمكيالين" بل إنه من دون هذه السياسة يعارض المرء الطبيعة: فلو دافع العامل في فرنسا مثلا عن العامل في بلاد المغرب بمثل ما يدافع به عن مصالحه في بلده الأصلي لذابت هذه المصالح أي لانتفت الثنائية الفاصلة بين منطق نشوء الدعوة و منطق تجسيد هذه الدعوة فالدعوة توحيدية و الدولة تنافسية "ذنبية".

بتركيز علي الحمامي على فكرة التناقض بين القول و العمل ،و النظرية و التطبيق،و التنظير و الممارسة أي الروح و الجسد حكم على تفكيره بأن يرفض من الأساس الفكرة القائلة "السياسة هي فنّ الممكن" فما عرف مفكرا إلا كان عمر معرفته به عمر الزهور، إن صح أن نستعمل هذه الصورة الأدبية.

فلنقرأ له ما كتب في كل الإعتقاديين:

إنني أحذر منهم [الشيوعيين] حذري من الآخرين. أنا لا أومن بأحد. فخبائتنا تكررت إلى حدّ يحول دون التسليم من دون تأكد ببوار رأي تمليه ظروف داخلية بحث و يمكن للمرء أن يتفهمه عند شعب يهيمن عليه المذهب الرأسمالي و النظام البرلماني على حدّ سواء. إن نضالنا هنا في الأرض المغربية ليس غير مناسبة لمثل هذه الانتخابات التي لا رهان لها غير السلطة. و أيّا كان اللون الذي تتصف به هذه السلطة ستبقى متمسكة بالموقف نفسه مثلاً. فنحن لسنا في نظر الملكي أو الجمهوري أو الشيوعي غير مستعمرات أي قيمة استعمال و غير سلعة يحدّد استخدامها أو مبادلتها بالنسبة إلى المجموعة الفرنسية درجات من الازدهار و المتعة تعجز الوصايا الإيديولوجية عن الفعل فيها. إن هذه المداخلات هي من كل الوجوه محض ديماغوجيا. ففي الزمن الذي كانت فيه مراكش تتعرض لصدام الجيشين الفرنسي و الإسباني كان مجلس النواب الفرنسي يردّد صدى صخب القسم الشيوعي في المجلس. كانت الأمم المتحدة تشكو عجزاً دعائياً فارتدت و هي تلاحظ أن أوروبا تستعيد شيئاً فشيئاً عافيتها بعدما لحقها من خراب في الحرب و تشرع في الإفلات من قبضة الأمم المتحدة و شعاراتها، ارتدت على الشرق الذي وقع نسيانه شيئاً ما منذ أطروحات مؤتمر باكو فكانت الصين و شمال إفريقيا مرعاها " ¹²⁰.

و ما يصح على الأحزاب السياسية يصح كذلك، في نظر الحمامي، على النقابات الفرنسية سواء أكانت اشتراكية أم شيوعية:

" إن عنصرنا العمالي المصنف ضمن منطقة خاصة بسبب الظروف السياسية التي تحكم المغرب، هو بادئ ذي بدء بعيد عن أن يأمل في الاستفادة من المنافع التي يفترضها مبدأ تساوي الأجر بتساوي العمل. فهو محروم حرماناً منظماً من الامتيازات النقابية و الطائفية المعترف

¹²⁰ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.292

بها للعمال الفرنسيين و في صلب هذه الطبقة العمالية التي لا تقبل على المستوى النظري البحث أي تمييز عرقي نرى طبقة البروليتاريا الشمال افريقية تلعب دور كبش الفداء في مقابل ارسنقراطية عمالية تتمتع بأجور لا يُستهان بها مثلما تتمتع بكل الحقوق التي كرّستها قوانين البلد الأم، فرنسا ، ارسنقراطية الآلة هذه تحصل على ما يمكنها من العيش و زيادة و تستفيد من جملة حقوقها السياسية و تقرر مصير اللعبة الانتخابية

و الأحزاب التي تتنافس لنيل أصواتها و تبدي من ثمة استعدادها لدعم مصالحها في وسط المجالس التداولية أو عند حدوث نزاعات يولدها الجدل الذي لا ينتهي بين رأس المال و العمل.و بهذه الطريقة ترصن هذه الارسنقراطية العمالية و تتعقل و تتبرجز و إن أذاها ذلك إلى أن تعقد ضدّ طبقتنا العمالية كل موافيق التضامن الممكنة مع أرباب الصناعة الذين يؤجّرونها.إنه عندما تخفق العلم الأحمر فوق أبراج "نوتردام" Notre-Dame مثلما هو يخفق اليوم فوق جدران الكرملين لن يتحسن وضعنا نحن، و لتكونوا متأكدين من ذلك، على الرغم من تمارين الخطابة التي يقوم بها بعض "ديمستانات" Démosthenes قصر البوربون Palais-Bourbon (...) فلا ننخدع بالكلمات" ¹²¹

لا أثر مثلما نلاحظ من قراءة الشاهد الطويل المتقدم لمعاداة النظرة المادية التاريخية و الاشتراكية و النقابات و لكن هناك نوع من القول بطبائع الأشياء أي أولوية المصالح على المبادئ التي تحول دون تبني بلاد المغرب المستعمرة النظريات الحزبية الغربية لأنها غير مهياة حضاريا لمثل هذا التبني:

" النظريات الغربية نتاج أوروبي.إن الامبريالية سواء أكانت ملكية أم جمهورية أم اشتراكية أو شيوعية لا تستلهم العقائد.فالظاهر العقدي لا مبرر له غير التغطية على عملية النهب شأنها في ذلك شأن المأسلة (Jonchaie) التي تخبئ الفخّ.فسياستها

¹²¹-.Hammami, Idris, rom.cit. , p.297

المستندة إلى مركبات مؤقتة وإلى مصالح دائمة هي سياسة واحدة و ثابتة. و في هذا الشأن لم يكن لا كانط و لا روسو و لا ماركس بقادرين على بيان عدم صحة هذه الأطروحة التي دافع عنها أرسطو و عرفها تهكم توماس هوبز أحسن تعريف في حديثه عن "**homo homini lupus**". إن العالم الاجتماعي على الرغم من قوانينه الإنسانية لم يكن البتة غير غاب هائل ليس فيه مكان لغير سلطة الناب و قوة المخلب¹²².

هناك إذن طبيعة و ثقافة و لقد كانت الغلبة باستثناء فترات قصيرة هي فترات انتصار الحق على القوة (بدايات اليهودية و المسيحية و الإسلام مثلا) للطبيعة فكأن هناك قانونا طبيعيا يحكم أعمق ما في الإنسان من نزعات و حدث أن كان القرن العشرون هو المثال الصافي على هذه الحقيقة :

"هذه الحضارة المبنية على الربح و التي لا يقع الاقتصاد في امتداح خيراتها مع الحرص على قصر التمتع بها على أوروبا وحدها، هذه الثقافة ذات الواجهة اللامعة و الطعم المُسكر إسكر شراب الأبيست (**Absinthe**) الذي يقدّم في مقاهي "السلم" و في الخمّارات المربية في الضاحية الباريسية و المقاطعات، و هذا المشهد المثير ، مشهد الآلات و الأرقام و الرموز حيث كلّ شيء، يردّ إلى قاسم مشترك يقع تحت تأثير العجل الذهبي¹²³ : إن كل هذه القوة و هذه الثروات تعرض علانية بغية الوعد و الوعيد (...) إن أساس البناء يبدو خاليا من العيوب و هو، في الحقيقة، أساس فاسد. و من يشك في ذلك فليس عليه إلا أن يتأمل عن كثب التناقضات التي تتخرقواه¹²⁴

مأخذ الحمامي على الحضارة الغربية الحديثة هو إذن قيامها على أساس كمّي و لعلّ هذا المأخذ الأساسي هو الذي يفسّر انتقاله إلى موسكو بين 1928 و 1930 حيث

¹²²-Hammami, Idris, rom.cit. , p.279

¹²³ - Veau d'or - العجل الذهبي

¹²⁴ - Hammami, Idris, rom.cit. , p..279

اشتغل في ميدان "تنسيق أعمال الفلاحين في العالم" في هذه الفترة التي شرع فيها ستالين مع بداية المخطط الخامس في تشييع **Collectivisation** الأرض و القضاء على كبار الفلاحين لقد كان الحامي منذ عهد مبكر " يهتم بالحياة الاجتماعية و بمسائل الاقتصاد المعاصر و بأسباب و أهداف الامبريالية التي لم تضعف اقتناعه نتائجه المؤسفة ¹²⁵

على أن الإقامة في الإتحاد السوفياتي لم تدم إلا سنوات معدودات لا تتجاوز الثلاث فبم نفس ذلك ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن هذه الفترة و قد يكون ما رأيناه من إلحاح على الحامي على هذه الخصوصيات التي تميّز مختلف الأمم و منها الأمة المغربية و مخالفة هذه النظرية الأسس التي تقوم عليها الشيوعية السبب الذي عجل بمغادرة الحامي موسكو

و البحث عن مرسى جديد في جنيف هذه المدينة التي كان ينشط فيها الداعية الإسلامي العروبي شكيب أرسلان ¹²⁶ الذي أصبح منذ ثلاثينات القرن العشرين و خاصة بعد صدور الظهير البربري في مراكش في 1930 و زيارة الأمير طنجة في السنة نفسها قبلة المغاربة و خاصة منهم المراكشي محمد بن حسن الوزاني ¹²⁷ و الطنجي عبد السلام بنونة ¹²⁸

¹²⁵ - Hammami, Idris, rom.cit. , p.279

¹²⁶ - شكيب أرسلان (1869-البرازيل 1946) أمير درزي كان له دور حاسم في نشر الفكرة العروبية الإسلامية.

¹²⁷ - محمد بن الحسن الوزاني (1910-1977) من أهم الوجوه السياسية الوطنية في مراكش، من مؤسسي كتلة العمل المراكشي، انشق عنها ليؤسس الحزب القومي سنة 1937، نُفي حتى 1944 إلى جنوب المغرب ، ثم أسس حزب الشورى و الاستقلال المراكشي، هَمَّش دوره بعد الاستقلال، توفي سنة 1977.

¹²⁸ -عبد السلام بنونة (؟ -1935) أسهم في تطوان سنة 1925 في تأسيس المدرسة الأهلية " لسد النقص في التعليم و كان من أساتذتها، محمد داود و الحاج عبد السلام بنونة و أخوه الحاج محمد [بنونة]. و هي التي تطورت إلى "المعهد الحر" سنة 1933.

و مؤسس نجم شمال إفريقيا مصالي الحاج¹²⁹. إن هذه الفترة القصيرة من حياة علي الحماصي (1931-1932) ستمثل خيبة بالنسبة إلى علي الحماصي الذي إذا كنا رأينا سابقا موقفه السلبي من مصالي الحاج فسيشمل مثل هذا الموقف كلا من عبد السلام بنونة و شكيب أرسلان على حدّ السواء إذ تبرز الرسائل المتبادلة بين بنونة و أرسلان ضيقهما بالحماصي الذي كان من جهته ينفر من الحاج عبد السلام بنونة بسبب مهادنة الاستعمار الإسباني و من شكيب أرسلان لما يحيط به نفسه من مظاهر "أميرية درزية" و قد عبّر شكيب أرسلان عن بعض مآخذة على علي الحماصي في رسالة بعث بها إلى عبد السلام بنونة سنة 1931 على النحو التالي :

"تعرفت في برلين بشاب (...) هذا الشاب هو الحمّامي .و قد كان يكتابني ثم جاء وواجهني و لقيته في حفلة عملها لي الطلبة السوريون

و العراقيون. و قد شكّا لي منهم.ففي الحال قلت له : " يا أخي يلزم تتصفوا.إن الحاج عبد السلام بنونة هو ركن المغرب.و لم أجد أشدّ منه حميّة على الإسلام.لكن ماذا يصنع؟بلده لا تقدر على مقاومة الأسبان وفيها 50 ألف مسلم إذا لم يدافع عنهم فإنهم يضمحلّون تماما.و هل يقدر الحاج عبد السلام أن يرفع الأضرار عن مسلمي تطوان إن لم يحسن السياسة مع الإسبانيول؟ قلت له :إن المترلفين إلى الأجانب حبّا بأنفسهم لكم الحق أن تقولوا فيهم ما شئتم.فأما الذين هم مضطرون لمحاسنة الأجانب أملا بتخفيف الشرور عن قومهم مع التهاب قلوبهم بالحميّة على ملّتهم فهو لاء أنا أعذرهم بل أشكرهم. فما زلت به حتى أقنعتة و قال: إن الحاج عبد السلام بنونة هو أذكى رجل بالمغرب"¹³⁰

¹²⁹ - مصالي الحاج (1898-1974) ساهم في تأسيس نجم شمال إفريقيا، ثم تولى رئاسته سنة 1927، أسس حزب الشعب الجزائري سنة 1937 ، أسس الحركة الوطنية الجزائرية التي دخلت في صراع مسلّح مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية، عانى الكثير من الاعتقال و النفي، أصيب بالسرطان و توفي في 3 جوان 1974.

لمزيد التوسع انظر : Achour Cheurfi,Mémoire Algérienne,pp.609-910.

¹³⁰ - الطيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان و الحاج عبد السلام بنونة ، طنجة ، دارا الأمل ،

و يفسّر الطيب بنونة موقف علي الحمامي من أبيه عبد السلام بما يؤكد ما جاء في رسالة شكيب أرسلان:

"نحن لا نستغرب أن يكون الحمامي حانقا على كلّ وطني من أهل المدينة لكونهم لم يلتحقوا بالبادية و ينضمّوا إلى الثورة المسلحة. و بنونة [عبد السلام] كان من صنف رجالات المغرب الأحرار الداعين إلى نشر العلم و المعرفة لإنقاذ الأمة من الجهل و التخلف و إنشاء الصناعات الحديثة لأجل تدعيم الحركة الوطنية بقوة اقتصادية و كان من الوطنيين المتطلعين للاستقلال و العاملين له بالطرق السلمية و الوسائل السياسية"¹³¹

لم تكن العلاقة بين علي الحمامي و شكيب أرسلان و الجماعة المحيطة به إذن ،طيبة و هذا ما يفسر انتقاله إلى برلين سنة 1932 "حيث اشتغل مع بعض الشرقيين في تحرير جريدة عن المغرب و شارك في بناء مسجد في العاصمة الألمانية و تأسيس جمعية إسلامية للدفاع عن قضية البلاد المنكوبة بالاستعمار"¹³²

غير أن سوء الأوضاع الاقتصادية و بؤس انتصار النزعة النازية في ألمانيا لم يسهّل على علي الحمامي الإقامة في برلين ففكر بعد أن بلغه نبأ إعلان قيام المملكة العربية السعودية سنة 1932 في الهجرة إلى البلد الوهابي السعودي فعاد إلى جنيف و فيها اتصل بالأمير فيصل¹³³ الذي قبل باستضافته من دون أن يمدّه،بسبب وضع المملكة المالي السيء إذّاك، بأي عون يمكنه من الانتقال إلى الرياض ممّا اضطره إلى أن يستتجد، على مضض ، بالأمير شكيب أرسلان الذي وصف وضع الحمامي في رسائله على النحو التالي:

"و مرّة جاءنا علي الحمامي شاب مغربي منفي من كل المغرب مقيم ببرلين ضاقت به سبل العيش فالتجأ إلينا طالبا منا تسفيره إلى الحجاز لأنه لا يقدر أن يدخل إلى

¹³¹ - الطيب بنونة، نضالنا القومي مصدر، سبق ذكره، ص.168 ، هامش 7.

¹³² - علّال الفاسي، جريدة العلم، بتاريخ 21 ديسمبر 1949.

¹³³ - فيصل بن عبد العزيز آل سعود (1905-1975) وزير الخارجية السعودية تولى العرش السعودي سنة 1964 و قُتل سنة

المغرب و لا إلى مصر و لا إلى سورية و لم يجد ملجأ سوانا فلزم أن نعاونه و تكفلنا نفقات تسفيره. فلما وصل إلى بورسعيد لم يتركوه يذهب إلى الحجاز فردّوه إلى تريستا (Trieste) فبعث يستصرخنا ثاني مرّة. و نحن كنّا تكلفنا مبلغا أنا و زميلي الجابري و أخي عادل في سفرته الأولى فالتزمنا أن نبعث إليه مبلغا ثانيا إلى تريستا، و من الجملة أخذنا من الحاج حسن أبي عياد خمسين فرنكا سويسريا و قلنا له هذا من بلادك¹³⁴ و إن كان في الحقيقة كل بلاد الإسلام سواء في نظر المسلم. ثم كتبت إلى المرحوم [عبد السلام بنونة توفي سنة 1936] بخبر الحمامي وأعطيته عنوانه في تريست. فما مضت جُمعتان حتى جاءني من الحمامي يقول إن الحاج عبد السلام أرسل إليه عشرة جنيهاً¹³⁵. و في رسالة أخرى بتاريخ 30 نوفمبر 1932:

"قبلا كتبت لكم بشأن علي الحمامي و تسفيرنا إياه إلى جدة و إعادة الحكومة المصرية إياه من بورسعيد بحيث ذهب ما أديناه عنه من المصاريف سدّى. و لما أرجع إلى تريستي أرسل يستغيث بنا ثاني مرة و كتبنا إليكم أملا بأن تعاونوه بشيء من تطوان. و في هذه الأثناء أنذرت الحكومة الإيطالية بالخروج و ضاقت عليه الأرض بما رحبت و لم يكن في يده شيء فبعث إلينا يستعجل البرّ حتى يركب باخرة إيطالية إلى مصوع و منها يأتي إلى جدّة. فاضطررنا أنا و الأخ الجابري حتى لا يهلك هذا الرجل جوعا أن نرسل إليه 300 فرنك سويسري و يساعد الحسن بن عياد منها بثلاثين فرنكا و أرسلناها إليه أمس. فالمقصود إن كنتم أرسلتم إليه معاونة رأسا بعنوانه في تريستي فأفيدونا"¹³⁶

¹³⁴ - بلادك : نلاحظ هنا اختلافا حول "مراكشية " أو "جزائرية" الحمامي.

¹³⁵ - الطيب بنونة، مصدر سلف ذكره، نضالنا القومي، ص. 350.

¹³⁶ - الطيب بنونة، مصدر سلف ذكره، نضالنا القومي، ص. 303.

في آخر الأمر، و بعدما وصفنا من معاناة الحمامي، وصل إلى المملكة العربية السعودية " و تجوّل في الجزيرة العربية و عرف أحوالها"¹³⁷ فهل كانت تجربته في هذا البلد أسعد ممّا كانت عليه في أوروبا ؟

يدل وصف علي الحمامي للمملكة بشرا و إيديولوجيا على عكس ذلك تماما. لقد بدت مختلف مدن المملكة و حياتها الاجتماعية و الفكرية لعيني الحمامي اللتين خبرتا فرنسا و الاتحاد السوفييتي و ألمانيا" خارجة عن التاريخ"فهاهو يكتب عن جدّة عندما وطئت قدماه أرضها لأول مرة :

"نزل[ت] من الباخرة في جدّة و هي مدينة رمادية لا ماء فيها قاحلة عارية رتيبة رتابة كئيبة و انقضّت عصابة من المطوّقين الذين اتخذوا من الحجّ وسيلة سلب على ظهر السفينة مثلما تنقضّ أرجال من العُقبان. كانوا يلبسون لاويات طويلة ذات أكمّام واسعة و فوق رؤوسهم طرابيش من القش زرعت فيها مربعات صغيرة متعددة الألوان غُلّفت بعمائم موصالية بيضاء و في اليد اليسرى من الواحد منهم سبحة من العنبر و عن شفّتيه تصدر تمتّات لا يفقه المرء مضمونها أما اليد اليمنى فاستقرت على كتف الحاج مثلما تتقبّض مخالب ضبع على الجيفة التي تمكّن من تعريتها. فبمثل هذه الصورة ظهر مشعوذو الأماكن المقدسة لعيني [إدريس]"¹³⁸

و بعبارة واحدة فإن جدّة "بلدة مضجرة"¹³⁹

و إذا كان ما أوردناه هو الانطباع الذي حصل للحمامي في جدّة فهل كان انطباعه عن مكة مختلفا ؟

"صعدوا ربوة ذات هيئة حجرية و فجأة تبدّى مشهد المدينة المقدسة لعيونهم المنبهرة. إنه لا شيء و الحق يقال يبعث على الدهشة في هيئة هذه الجبال الصخرية المقطّعة التي لا أثر للنبات فيها و التي تحدها جدران محترقة في لون الصدا تشقها

¹³⁷ - علال الفاسي، جريدة العلم، بتاريخ 21 ديسمبر 1949.

¹³⁸ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.96

¹³⁹ -A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.96

أخايد تمل إلى الخضرة بل إن كل هذا يبعث في النفس شعورا بالضيق و نوعا من الانزعاج، و يبعث، لا أدري أي نوع من الشعور بالحزن و الكآبة ثم إنه، و كلما تتالت الذكريات التاريخية و استرجع المرء بطريق الوراثة طباع الأجداد استرجعا مشبعا تدينا، ولد معه و اندغم فيه و ملكته ذكريات مبهمة بنتها فيه أجيال متعاقبة، يحسّ نوعا من الانفراج و يختفي الانطباع الأول مفسحا المجال لحبّ اطلاع متعاطف¹⁴⁰

و في موضع آخر:

" هذه الالتواءات الصخرية المتجهة نحو الداخل الممتلئة رملا و حطاما تقف شاهدا على الخطوات الأولى في حياة مؤسس الإسلامية. و لا يبدو أن شيئا قد تغير منذ ذلك الحين. بقيت لأشياء تقريبا مثلما كانت عليه طيلة أربعة عشر قرنا. وهذه المنبسطات الكئيبة التي تسمرت في قوقعتها الطبيعية تكاد لا تهتم بقوانين التطور. في كل مكان يسود سيادة مطلقة مبدأ الجمود"¹⁴¹

إن الجملة الأخيرة هي مثلما يُقال في الأدب، بيت القصيد. و الشرط الوحيد لتقييم كل حركة فكرية هو في نظر الحمامي، ما تتضمن من بعد اجتماعي. لا تغيير، إذن، أحدثه قيام المملكة العربية السعودية نتيجة التحالف بين السيف السعودي و القلم الوهابي بعون من بريطانيا و لذلك فليس في إمكان الحمامي إلا أن يقسو على هذه الحركة لأنها لا تصلح لمسلمي القرن العشرين الذين عليهم أن ينزلوا المسألة الاجتماعية منزلة المركز من اهتماماتهم :

" استحوذ في نهاية المطاف ابن عبد الوهاب في بداية القرن الماضي على سلفية ابن حنبل و أعطاهما في صحراء نجد بدعم من آل سعود هيأتها و طابعها الحالي. و لكن

¹⁴⁰ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.97

¹⁴¹ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.97-98.

الوهابية و الحق يقال ليست إلا مجرد حالة نفسية عكسها تعصّب ولد في بيئة قبلية و عبّر عن أكثر ما فيها من غريزية و بدائية و ابتذال¹⁴²

إن نظرة علي الحمامي إلى المملكة العربية السعودية و إيديولوجيتها الوهابية تكفي لتفسير قصر المدة التي قضاها في المملكة إذ سنراه ينتقل منذ 1933 إلى بغداد، عاصمة الملك الهاشمي فيصل الأول (1883 - 1933) و خصم الدولة الوهابية السعودية ف" عينه جلاله الملك فيصل عاهل العراق رحمه الله في وظيفة مدرّس للتاريخ الإسلامي بإحدى المدارس الثانوية"¹⁴³

و إذا كانت للفكرة الوطنية الوهابية السعودية المكانة الحاسمة في الرياض فإن بغداد كانت في ثلاثينات القرن العشرين عاصمة تتصارع فيها الفكر الوطنية و القومية و الأممية الشيوعية شأنها في ذلك شأن بلاد الشام التي ظهرت فيها الفكرة القومية الشامية على يدي أنطون سعادة

و بلاد المغرب التي ظهرت عند بعض ساستها من مؤسسي نجم شمال إفريقيا و عند بعض طلبتها الدارسين في فرنسا الفكرة المغربية و مثل هاتين الفكرتين، أي الشامية و المغربية، لن يرى فيها القوميون الذين كانوا ينشطون حول ساطع الحصري في عراق ثلاثينات القرن العشرين غير فكرتين تقفان حجرة عثر إزاء الفكرة القومية العربية خاصة في هذه الفترة التي ركّز فيها الحصري نشاطه على الدعوة إلى الفكرة العربية فحظيت برواج كبير :

" كان القوميون في تلك الأيام يعترفون بدور العراق القيادي الذي سبق معظم البلدان العربية الأخرى في الحصول على الاستقلال السياسي الشكلي و كانت أول دولة عربية قبلت في عصبة الأمم (عام 1932). أمّا الجوّ الملائم نسبياً لنشاط القوميين الذين جاؤوا بغداد من مختلف البلدان العربية فكان حصيلة تصدّي العناصر الوطنية

¹⁴² -A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.92.

¹⁴³ - علال الفاسي، جريدة العلم، بتاريخ 21 ديسمبر 1949.

في الجيش ومجلس النواب للضغط البريطاني، و نهوض الحركة الديمقراطية في
أوساط الجماهير العراقية.

و ممّا له دلّالته أنّه منذ أواسط الثلاثينات بالذات صارت النظرة القومية، التي روج
الحصري لها خلال ما يقارب العقد الكامل، تصادف قبولاً واسعاً، و صار ينظر إلى
صاحبها على أنّه رائد الوحدة العربية. و في هذه الفترة بالذات انخرط الحصري في
حياة البلاد السياسية، و هو أمر، سيتجنبه مستقبلاً و بكل إصرار فيذكر [بعض
الباحثين] أنّ الحصري

دعا إلى التصفية الجسدية للعميل عبد الإله الذي وصل إلى الحكم على أسنة رماح
الإنكليز عقب القضاء على انتفاضة رشيد عالي الكيلاني

التحريرية في حزيران - يونيو 1941. و أياً كان الأمر فقد أدرج اسمه في قائمة
أخطر أعداء الحكم العميل، فسُحبت الجنسية العراقية منه كما سحبت من وطنيين
آخرين و أبعد من العراق في الشهر ذاته¹⁴⁴

إننا لا نملك، و الحق يقال، كثير شيء عمّا كانت عليه العلاقة بين الحصري و
الحمامي و مع ذلك يمكننا، على سبيل الاجتهاد، أن نختم ما كتبناه عن الفترة
العراقية من حياة الحمامي بالملاحظات التالية:

أولى هذه الملاحظات أنّ الحصري طرد من العراق في جوان 1941 أي في
الوقت الذي شرع فيه الحمامي في كتابة رواية إدريس (ديسمبر 1941 جويلية
1942)

ثانية هذه الملاحظات أنّ الدعوة إلى الفكرة المغربية لا يمكن أن يرحب بها القوميون
العرب.

ثالثة هذه الملاحظات أنّ بعض هؤلاء القوميين كتبوا ما يفيد ضيقهم بالحمامي فهذا
أكرم زعيتر يكتب عنه :

¹⁴⁴ - تاتيانا تيخانوفا ، ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي ، موسكو، دار التقدم، 1987، ص.34.

"لما جاء إلى العراق اعتنينا به معشر حملة الفكرة العربية و اقتطعنا من مرتباتنا مبلغا شهريا له ... و مع ذلك فلم نسلم و لا سيما كاتب هذه السطور من انتقاداته رحمه الله" ¹⁴⁵

رابعة هذه الملاحظات أنه ما إن سمع بلجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي السياسي في ماي 1947 إلى مصر حتى عزم على إعادة ربط الصلة بمن يعتبره "يوغرة" القرن العشرين فغادر العراق بعد إقامة امتدت قرابة الأربع عشرة سنة إلى القاهرة و لازم فيها "أمير الريف" حتى موته سنة 1949 في حادث الطائرة التي مات فيه رفيقاه في الدعوة إلى تحقيق الفكرة المغربية، التونسي الحبيب ثامر و التطواني أمحمد بن عبود .

¹⁴⁵ -الطيب بنونة، نضالنا القومي، ص. 168، هامش 8.

الفصل الثالث :

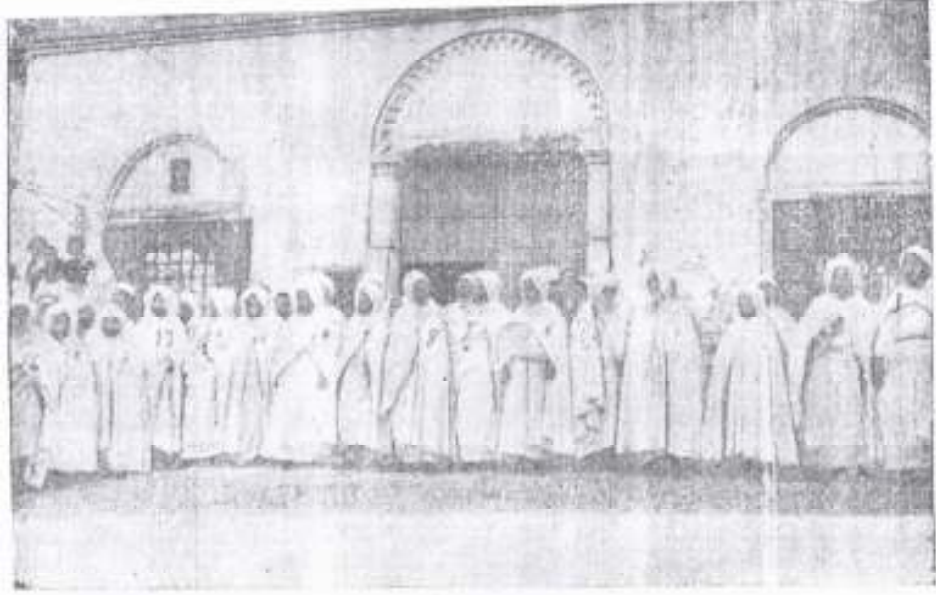
محمد أحمد بن عبود من النشأة إلى تمثيل المغرب الخليفي
في جامعة الدول العربية (1946)

فرضت فرنسا و اسبانيا الحماية على المغرب الأقصى من سنة 1912 إلى سنة 1956 و بذلك أصبح هناك مغربان:مغرب الجنوب الذي نصّب الجنرال الفرنسي "ليوتي" السلطان يوسف سلطانا عليه (1912) و تخيّر له الرباط عاصمة و مغرب الشمال الذي نصّب الجنرال الاسباني "ألفا" المهدي خليفة لسلطان مراكش عليه (1913) و تخيّر له - منطقيا -تطوان عاصمة له



الخليفة مولاي المهدي -السا على كرسي الخلافة السلطانية وقد وقف الى جانبه وزيره الصدر السيد محمد بن عزوز مع ضابط اسباني والترجمان طوباو

ثم وافقت سلطة الحماية الإسبانية على أن تتشكل حكومته الخليفية على النحو التالي :



وجهاً تطوان عند تأسيس الحكومة الخليفة بها ويرى من اليمين الى اليسار :

1 - السيد محمد بن عزوز - الصدر الاعظم - توفي عام (1350)

2 - السيد علي السلاوي - مدير الاحباس - (1342)

3 - العلامة السيد احمد الرهوني - وزير العدلية - (1373)

4 - القاضي سيدي التهامي افيال - (1339)

5 - العلامة سيدي محمد البقالي - (1336)

6 - الامين السيد عبد الكريم البادي - (1351)

7 - الكاتب الحاج محمد راغون - (1337)

8 - الامين الحاج ادريس بناني

9 - المهندس السيد الزبير سكبرج - (1351)

10 - الفقيه سيدي محمد الزواقي - (1347)

11 - الكاتب السيد العربي السطحي ؟

12 - الفقيه سيدي محمد المودن - (1337)

13 - الكاتب سيدي احمد الفيلالي - (1361)

14 - الفقيه سيدي احمد العمراني - (1350)

15 - الفقيه السيد عبد القادر الفاسي - (1345)

16 - الشريف سيدي محمد بن الحسيني البقالي - (1358)

إثنان من وزراء الحكومة الخليفة لم يتمكن محمد داود صاحب كتاب "مختصر تاريخ تطوان"¹⁴⁶ من تحديد تاريخ وفاتهم و ثلاثة منهم توفوا بعد 1934 أما البقية

¹⁴⁶ - محمد داود ، مختصر تاريخ تطوان، تطوان ، المطب. المهدية، 1955.

فقد توفوا (إضافة إلى الخليفة) قبل هذا التاريخ أي أثناء العقد الثالث من القرن العشرين. لم هذه الملاحظات ؟ لأن المغرب الأقصى جنوبا و شمالا و على العكس من تونس و الجزائر لن تظهر فيه حركة سياسية إلا بعد موت كثير من هؤلاء أي بعد أن خفت صوت السلاح في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين إذ إذا كان "المجاهدون من أبناء الأطلس ما يزالون يقاومون، و كانت مقاومتهم الصامدة (...) استمرت حتى سنة 1933 في آيت عطا"¹⁴⁷ فإن أهم رموز الحركة الوطنية السياسية في الشمال بدأوا ينشطون في "العشرينات والثلاثينات يوم أنزل البطل عبد الكريم السلاح في الريف"¹⁴⁸

هذه الحركة السياسية ليس بإمكانها أولا إلا أن تكون مدينية و ثانيا محصورة في الطبقة الميسورة خاصة في تطوان أي في هذه الطبقة التي تبدو حلقة وصل بين من رأينا من الوزراء و جيل يعدّ طبقيا امتدادا لهم

و إن كان سيحصل على تكوين جديد خاصة في بلاد المشرق يساعده في ذلك الخليفة الجديد الحسن بن المهدي و كذلك إسبانيا التي لم تضع عراقيل في وجه البعثات الطلابية التطوانية إلى المشرق لعدة أسباب ليس أقلها مناوئة حكم الجمهورية الفرنسية الثالثة.

إن ما كانت تخشاه إسبانيا هو ما اكتوت به من هزائم على أيدي الريفيين و الجبليين خاصة في معركة أنوال الشهيرة جوان (1921) التي ستكون من أسباب قيام حكم الجنرال Primo de Rivera (1923-1930) أما الطبقة المدنية المرفهة في تطوان خاصة فهي لم تسهم في ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي .كتب أحد الدعاة إلى إعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية في المغرب الخليفي:

¹⁴⁷ - عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال، الدار البيضاء، مطر الشركة

المغربية للطبع و النشر، ج. 1 ، 1976 ، ص.23.

¹⁴⁸ - عبد الكريم غلاب ، الحركة الوطنية ، مرجع سبق ذكره، ص.9.

"وقف مجتمع الصفوة المثقفة ، بكل فصائلها من هذا الاحتلال [الاسباني] موقف المتفرج:فالثابت تاريخيا أنه لم يحرك ساكنا و يغضب و يتحرك ضده، بل ركن إلى الدعة و الاستسلام و أخذ إلى الراحة كان الأمر لا يعنيه بالدرجة الأولى [في حين] نهضت البادية المغربية بالشمال الغربي، كما ما هو معروف بعبء الكفاح المستميت ، و أخذت على عاتقها مناهضة التعسف الاسباني في أعقاب سقوط تطوان تحت أقدام جيش الاحتلال فخاضت ، بكل جسارة و صمود معارك ضارية ، غير راضية عن الحماية و حافظت مدة طويلة على جذوة العمل المسلح"¹⁴⁹

لقد كانت هذه الطبقة المدنية ترى أن الخلاص يكمن في التعليم و الاقتصاد فهي لم تكن لتثير مخاوف اسبانيا و لهذا يمكن أن نفهم حرص أحد الآخذين بهذا الأسلوب التحريري الأنجع و هو محمد داود (ولد 1901) على التأكيد على أن اسبانيا دخلت تطوان "سلميا" فلم يكن القوم يطلبون من اسبانيا أكثر من حكم ذاتي أو قريب من الذاتي أي مزيدا مما مكنتهم منه اسبانيا إذ أسست "في تطوان حكومة لها أميرها

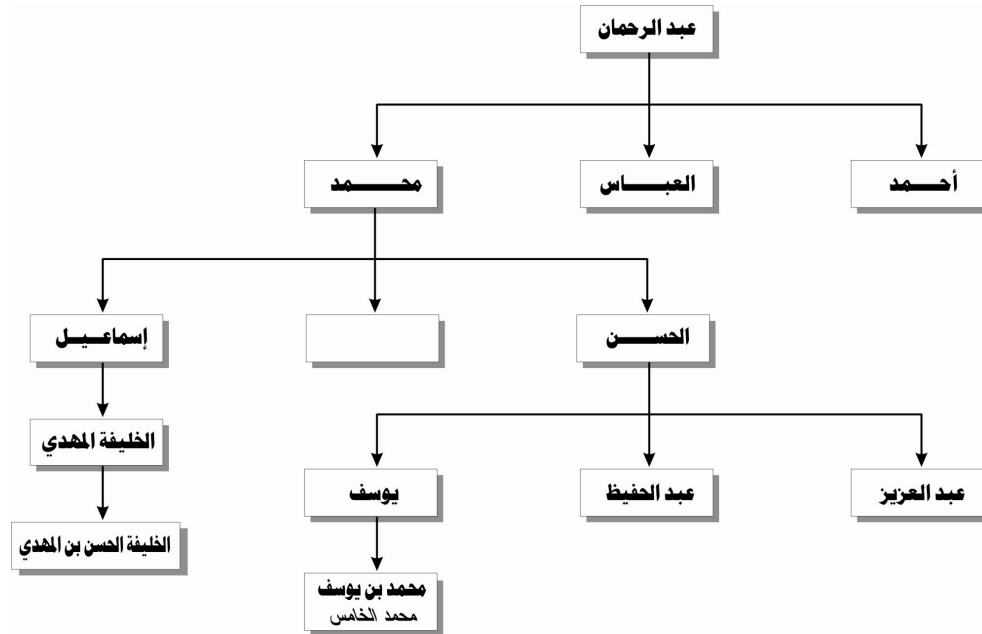
و لها وزراؤها و كتابها ، و أصبحت تطوان بذلك عاصمة شمال المغرب"¹⁵⁰ يوحى كلامنا أننا ننسب إلى الشمال نزعة انفصالية و الأمر ليس كذلك إذ نحن نكتفي بالقول إن حكم التطوانيين بصفة عامة على العرش العلوي كان دائما حكما قاسيا و الكثيرون منهم إن اجتهدوا في اكتشاف سلطان علوي واحد يستحق لقب السلطان فهو عند هؤلاء السلطان إسماعيل مؤسس العرش العلوي في القرن السابع عشر و لم يكن السلطان يوسف الذي نصبه ليوطي سلطانا في الرباط ليغير من حكمهم القاسي على العرش العلوي و لذلك كان تعلقهم بالخليفة المهدي أولا ثم بابنه الخليفة الحسن بن المهدي أكثر من تعلقهم بالسلطان يوسف (1912- 1927)

¹⁴⁹ - عبد العزيز التسماني خلو، احتلال تطوان و ردود فعل الحركة الجهادية الجبلية (1913-1915) ضمن تطوان في عهد الحماية

، تطوان، المجلس البلدي ، 1992 ، ص.22.

¹⁵⁰ - محمد داود ، مختصر تاريخ تطوان، مرجع سلف ذكره، ص.230.

و بعد ذلك بابنه السلطان محمد بن يوسف (1927-1961) على الأقل حتى خطاب محمد بن يوسف في طنجة في 10 أبريل 1947 عندما انحاز نهائيا إلى الحركة الوطنية الاستقلالية المغربية و ذلك رغم أن السلطان يوسف و الخليفة المهدي ينتميان معا إلى العرش العلوي مثلما تبين شجرة الأنساب التالية ذلك :



فهذا الموقف التطواني مبرر إذن و ليس بإمكان الاتفاقات الدولية المتعلقة بالمغرب الأقصى التي تصف علاقات الخليفة المهدي بالسلطان يوسف بأنها علاقة "خليفة " بسلطان مما يوحي أن العلاقة هي علاقة تبعية أن تغير مّا نذهب إليه من وجود هذا التنافس الشديد بين أفراد العرش العلوي على السلطة من ناحية و بين اسبانيا و فرنسا من ناحية ثانية

و بين قادة الحركة الوطنية في المنطقة السلطانية و المنطقة الخليفية (الفاسي و حزب الاستقلال في الجنوب و عبد الخالق الطريس و حزب الإصلاح الوطني في

الشمال و محمد المكي الناصري و حزب الوحدة الوطنية الذي يقع بينهما) من ناحية ثالثة.

و هل يوجد دليل أفضل على صحة ما نذهب إليه من هذه الطريقة التي سينهجها السلطان محمد بن يوسف سنة 1956 في التعامل مع الخليفة الحسن بن المهدي و التي يشي بها الشاهد التالي على الرغم من اجتهاد صاحبه في التلطيف من إحياءاته: "في يوم 7 أبريل 1957 وقع في مدريد بحضور جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه التصريح المشترك المغربي الاسباني الذي تعترف فيه إسبانيا [بعد فرنسا] باستقلال المغرب الأقصى و انتهاء الحماية.و بعد يومين أي يوم 9 أبريل كانت الزيارة الملكية التاريخية لمدينة تطوان. و من شرفة القصر الخلفي [قصر الحسن بن المهدي] المظلة على ساحة الفدان أعلن جلالة الملك محمد الخامس و هو محاط بولي عهده الأمير مولاي الحسن و بخليفة جلالته في المنطقة الشمالية الأمير مولاي الحسن بن المهدي و بحكومة الاستقلال الأولى التي يرأسها

مبارك البكاي و بالحكومة الخليفية ، أعلن جلالة الملك استقلال المغرب ووحدة الشمال و الجنوب. و قام سموّ ولي العهد الأمير مولاي الحسن بتقديم أعضاء الحكومة إلى شعب الشمال- هذا رئيس الحكومة مبارك البكاي -هذا وزير الداخلية الحسن اليوسي...هذا وزير العدل عبد الكريم بن جلون ...إلخ و كانت المفاجأة للحكومة الخليفية التي لم يكن قد أعلن عن حلها بعد، و كان منتظرا أن تحضر الحكومة الخليفية حفل عشاء سيقممه سمو الخليفة لجلالة الملك في مساء ذلك اليوم ، و لكن سمو الخليفة نبّه وزراءه السابقين لعدم الحضور بعد أن قدم ولي العهد للشعب المغربي في الشمال أعضاء حكومة المغرب الموحد.و بذلك انتهت الحكومة الخليفية و انتهت مهمة سمو الخليفة مولاي الحسن بن المهدي (...) و أسندت إليه سفارة المغرب في لندن " ¹⁵¹

¹⁵¹ -محمد عزيمان ، تطوان في عهد الحماية، النظام الإداري ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سلف ذكره، ص.20.

إننا لن نتوقف أكثر مما فعلنا عند هذا الانقسام "الوطني" الذي سبق الغزو الاستعماري و تنامي عندما "ودّعت تطوان و نواحيها عهد الوحدة الوطنية و الاستقلال المغربي ، و احتلت اسبانيا مدينة تطوان و بسطت عليها نفوذها و أصبح لها التصرف الكامل المطلق فيها"¹⁵² و لم يتمكن المغرب الأقصى من تجاوزه إلا سنة...1956 عندما أعلن "جلالة الملك" [محمد بن يوسف] استقلال المغرب ووحدة الشمال و الجنوب" و لكننا على العكس من ذلك نرى وجوب التوسع في ما يميز في هذه الفترة (فترة نهاية حرب الريف) النشاط الثقافي و السياسي في الشمال عن النشاط الثقافي و السياسي في الجنوب حتى نفهم البيئة العامة التي نشأ فيها محمد بن أحمد بن عبود الذي كان ينتمي إلى العائلات التطوانية المتنفة في تطوان مثل آل بنونة و الطريس و داود فكونت أساس تفكيره و نشاطه السياسي.

¹⁵² - محمد داود،، مختصر تاريخ تطوان، مرجع سلف ذكره، ص.230.

و قد سبق لإسبانيا أن هددت باحتلال تطوان على عهد عبد الرحمن (1859) ثم احتلها فعلا و بقيت فيها مدة عامين و نصف على عهد ابنه و خليفته محمد (1859-1973) و في ذلك كتب محمد داود التطواني يلوم العرش العلوي: "أما نحن المغريين فيجدر بنا أن نتساءل : ماذا ربحنا من هذه الحرب و ماذا خسرنا فيها؟

أما لائحة الأرباح فليست طويلة و لا عريضة و لا تحتوي لا على صفحات و لا على صفحة واحدة، و لعلها مجموعة في جملة فريدة هي أننا لم نربح شيئا ما عدا معرفة الحقيقة التي كانت حكومتنا تجهلها كما كان يجهلها كثير من الناس في الداخل و الخارج و هي أن حكومة المغرب كانت لا تستطيع محاربة دولة منظمة، لأنه لم يكن لديها نظام حقيقي مناسب للعصر، و إنما كانت لديها أنظمة عتيقة و تقاليد أكل الدهر عليها و شرب و لم تعد صالحة للنهضة الحديثة التي نهضتها دول العالم و شعوبه، أما الخسائر فلوانحها طويلة عريضة"

(محمد داود،، مختصر تاريخ تطوان، مرجع سلف ذكره، ص.195).

بلعربي العلوي



علال الفاسي



ذلك أن وطنيي الجنوب إذا كانوا يؤرخون لحركتهم، تماما مثل وطنيي الشمال بسنة 1926 فهم يردون هذه الحركة إلى أبناء الطبقة المدينية في فاس و الرباط أمثال علال الفاسي و أحمد بلافريج و محمد بن الحسن الوزاني(1910-1977) : " في

سنة 1926 ترأس الشاب علال¹⁵³ جمعية وطنية في فاس و قاد بلافريج نظيرا لها في الرباط و كان هذان الزعيمان الاستقاليان (استقبالا) [يقصد بعد 1944] لا يعرف الواحد منهما الآخر، و كذلك لم تكن لإحدى الجمعيتين معرفة بالثانية¹⁵⁴ و معروف أن الجماعة ستتنسب إلى ما يسمى ب"السلفية الجديدة" و إلى ممثلها في الجنوب الشيخ بلعربي العلوي.

أما وطنيو الشمال فهم يؤرخون لبداية حركتهم سنة 1926 و لكنهم يردون حركتهم الوطنية إلى أبناء الطبقة المدنية في تطوان أمثال عبد الخالق الطريس و الطيب بنونة و محمد داود أي قادة حزب الإصلاح الوطني منذ 1936

¹⁵³ - علال الفاسي (1906-1974) ، من أهم الوجوه السياسية الوطنية في مراكش ، من زعماء الحركة السلفية ، من مؤسسي كتلة العمل المراكشي ، أسس الحزب الوطني سنة 1937. توفي حتى 1946 إلى الغابون. جعله مؤسسو حزب الاستقلال زعيما لهم اعترافا بريادته. توفي بوادبست أثناء زيارة رسمية سنة 1974.

¹⁵⁴ - محمد العلمي، علال الفاسي راند الحركة الوطنية المغربية، الرباط، مط. الرسالة، 1980، ص. 51.



عبد الخالق الطريس (1910-1970)

ما إن سكنت البنادق في الجبال و البوادي حتى بدأت صفوة من سكان المدينة من رجال الفكر و الجاه و النسب و الشرف تفكر في أسلوب آخر لمحاربة الاحتلال الاسباني في كل مظاهره السياسية و الاقتصادية و الفكرية و الاجتماعية¹⁵⁵

و معروف أن الجماعة تنتسب خاصة إلى عبد السلام بنونة (ت.1936) و ترى فيه أب الحركة الوطنية.

¹⁵⁵ - زكي مبارك ، تطوان من معقل للوطنية المغربية العربية الإسلامية إلى مركز لقيادة حركة التحرر المغربي،(1930-1956)، ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره، ص.31، و يقصد زكي مبارك من سكوت البنادق في الجبال و البوادي فشل ثورة الريف الخطابية و استسلام ماء العينين في الصحراء و حمّو الزياني في الأطلس .

و تفكير "السلفيين الجدد" ليس مطابقاً لتفكير "الإصلاحيين الوطنيين" فمن يقرأ كتابات
علال الفاسي خاصة يحس بهذا التقارب بين الوهابية السعودية و الوهابية الجديدة
ممثلة في "السلفية الجديدة" و كأن الخيط الرفيع الذي يجمع بين الحركتين هو
التحالف بين القلم الوهابي و السيف السعودي¹⁵⁶ في نجد و التحالف بين القلم السلفي
الجديد و العرش العلوي في مراكش.

أما همّ عبد السلام بنونة الأكبر فهو التعليم العصري من ناحية
و الاقتصاد من ناحية ثانية كتب عبد السلام بنونة سنة 1930 رسالة إلى ابنه الطيب
بنونة الذي كان إذاك طالباً في المشرق العربي يلخص فيها هذا الأسلوب المدني
التطواني الذي تبنته الطبقة العليا في مجتمع المغرب الخلفي وسيلة للنضال:

"....الاستقلال و الحرية شيء يؤخذ و لا يعطى و أخذه بقوة السلاح مع الجهل لا
يدوم و نتيجته الثورة المتتابة القاضية على البلاد و أهلها [و] الوصول إلى
الاستقلال التام بقوة القلم و كثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال اللهم إلا إذا
ساعدت الظروف بأسباب خارجية. و محصل هذا كله أن الأمة المغربية تتوقف على
رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب، يسيرونهم حسب
إرادتهم لمصلحة الدين

و الوطن. و يجب إيجاد هؤلاء الرجال ما دام بالقبائل الداخلية رمق من الحياة
الحزبية"¹⁵⁷

ماذا تقوم عليه بعبارة أخرى، هذه النظرة السياسية إلى العلاقة بين الوطنيين و
الاحتلال الإسباني؟

تقوم هذه النظرة على مقومات ستة:

¹⁵⁶ قامت الدولة الوهابية السعودية الأولى في القرن الثامن عشر على تحالف بين رجل العلم الديني الحنبلي محمد بن عبد الوهاب و

الأمير العنزي محمد بن سعود.

¹⁵⁷ -المرجع سالف الذكر الصفحة نفسها.

أولها: ضرورة الاعتقاد النهائي في هذه المرحلة التاريخية من حياة الشعب المغربي أن كل ثورة من هذه الثورات الشبيهة بثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي في "الجال و البواځي" سيكون مآلها الفشل بل ستلحق ضررا بالشعب المغربي قبل أن تلحق ضررا بإسبانيا لانعدام توازن القوى بين الطرفين المتنازعين.

ثانيها: أن قيادة المجتمع يجب أن تتحول من الريف إلى المدينة (تطوان) و من قادة قد يكونون من أصول "لا جاه فيها و لا نسب أو شرف" إلى قادة إصلاحيين من رجال الفكر و الجاه و النسب و الشرف"

ثالثها: علاقة هؤلاء القادة بالمجتمع يجب أن تكون علاقة عمودية.

رابعها: الأساس العقدي لهذه الوطنية أساس مزدوج هو الدين و الوطن.

خامسها: عندما يقدر هؤلاء القادة أن الظروف التاريخية أصبحت متوفرة للعمل المسلح ضد الاحتلال يلعنون ذلك بسبب وجود الاحتياطي المحارب ممثلا في " القبائل الداخلية التي ما زال فيها رفق من الحياة الحزبية"¹⁵⁸

سادسها: أن الاحتلال الأصلي و الأكثر خطرا هو الفرنسي لا الإسباني. و نحن نعلق على ما سبق أن الإجماع حاصل إذن حول الصيغة المدنية للعمل السياسي في المغرب الأقصى منذ بداية ثلاثينات القرن العشرين مضيفين إلى ما ذكرنا استنتاج جاك بيرك الصائب:

"بداية من الثلاثينات أصبح ميدان الأحداث هو المدينة"¹⁵⁹ بل موافقين حتى على مقارنته بين عمري النشاط السياسي في كل من تونس و الجزائر و مراكش:

¹⁵⁸ - المرجع سالف الذكر الصفحة نفسها.
¹⁵⁹ - Jacques Berque, Le Maghreb entre deux guerres, Paris, Seuil, nouv.ed., rev.et augm., 1961, p. 116.

"وجد في تونس مقارنة ببقية بلدان إفريقيا الشمالية في ميداني النضال السياسي الاجتماعي سبق يقدر بالجيل تقريبا.فمنذ 1919 نشر الشيخ الثعالبي في باريس مثالب فرنسا في" تونس الشهيدة" (...) و في فيفري 1920 تأسس الحزب الدستوري الذي قدّم منذ البداية برنامجا جذريا هدف منه إلى الاستقلال و لكنه حوله في السنة الموالية [1921] إلى شكاوى إصلاحية"¹⁶⁰

أما ما نود التركيز عليه هنا ، لأنه أساسي لفهم حياة محمد أحمد بن عبود الفكرية السياسية، فهو هذا الاختلاف بين مقومات حركتي الإصلاح في كل من المغرب السلطاني و المغرب الخليفي إذ ما أبعد تفكير الشيخ بالعربي العلوي الذي ينتسب إليه علال الفاسي عن تفكير عبد السلام بنونة الذي يبدو على الرغم من الصبغة الوطنية الإسلامية لحركته صاحب نظرة سياسية أكثر اتساعا فهو مثلا لم يحصر الحركة في نطاق المثقفين (أصحاب القلم) ممّا يدخله مباشرة ضمن المثاليين القائلين إن الفكر وحده هو محرك التاريخ و لكنه أدمج هؤلاء المثقفين ضمن جماعة أوسع تشمل "ذوي المعارف بأنواعها " و منهم التجار و الصناعيون إذ أن "الوصول إلى الاستقلال التام بقوة القلم و كثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال اللهم إلا إذا ساعدت الظروف بأسباب خارجية"

و لذلك فإن تفكيره على الرغم من أنه أحلّ عامة الناس في محلّ التابع ضمن علاقة عمودية بين الدولة و المجتمع، هو تفكير مؤهل أكثر من تفكير "السلفيين الجدد" في المغرب السلطاني لانفتاح أكبر على المجتمع .نكاد نقول إنه تفكير يحمل في صلبه بذور الديمقراطية و ما ذلك إلا لأنه ، على العكس من تفكير السلفيين الجدد، لا يتمحور حول العرش العلوي لأسباب تاريخية ليس أقلها العلاقة القديمة المتوترة بين تطوان و مراكش.

¹⁶⁰ - Jacques Berque, Le Maghreb entre deux guerres ,op.cit.p.19.

هل كان هذا التفكير إذن ، يتمحور حول شخصية الخليفة؟ إننا لا نعتقد ذلك لأن مركز الخليفة في حد ذاته لا يخدم مفهوم "المركزة" و لذلك سنرى دائما تعاوننا متبادلا بين الخليفة الحسن بن المهدي خاصة والقوى المتنفة في الشمال لن تقود إلا إلى مزيد من تغذية شبكات سلطان مراكش و أحزاب المنطقة الجنوبية(الاستقلال بزعامة علال الفاسي

و الشورى بزعامة محمد بن الحسن الوزاني...)حول النتائج البعيدة لمثل هذا التحالف.

و أيا كان الأمر فإن حزب الإصلاح الوطني (1936) الذي جلب إليه كل الآخذين بنظرة الأب الروحي للوطنية الشمالية سوف لن يخرج في مسلكه السياسي عن الأسس التي رأينا أن تفكير عبد السلام بنونة يقوم عليها:

وطنية دينية مما يعني "نفورا" من الاشتراكيين و "الحرر" و من ثم "ميل أرسلاني إلى الأنظمة الشمولية غير المادية التاريخية فهذا عبد الخالق الطريس يكتب:

"دفع المغاربة للكفاح [ضد الجمهوريين الإسبان] الخوف من مسّ عواطفهم الدينية إذا استفحل أمر الشيوعية"¹⁶¹

قول بسياسة الخطوة خطوة و قبول بالتعامل مع مختلف الأنظمة الحاكمة في إسبانيا بشرط الحصول منها على مكاسب وطنية أوسع مما سيدفع وطنيي الشمال إلى البحث عقب استقالة بريمو دي ريفيرا¹⁶² ثم سقوط الملكية¹⁶³ في إسبانيا (1931) عن تحالف مع الجمهورية الإسبانية الثانية(1931-1936) حتى إذا ظهر

¹⁶¹ - عبد الخالق الطريس، جريدة الحرية، لسان حزب الإصلاح الوطني، ج.4، 1938، نقلا عن مداخلة بوهادي بوبكر، الحركة الوطنية شمال المغرب و الحرب الأهلية الإسبانية، ملاحظات عامة ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سلف ذكره، ص.46.

¹⁶² - بريمو دي ريفيرا (1870-1930) جنرال و رجل سياسة إسباني. استولى على الحكم سنة 1923 و رأس حكومة ألغت الحريات الديمقراطية و قد مكّنه الانتصار الفرنسي الإسباني على محمد بن عبد الكريم الخطابي(1925) من شعبية كبيرة و لكنه اضطر سنة 1930 إلى الاستقالة من الحكم .

Petit Larousse, illustré, éd.1980.

¹⁶³ - ملك فرنسا الثالث عشر من 1902 إلى 1931 و أفسح المجال لدكتاتورية بريمو دي ريفيرا و اضطر إلى مغادرة البلاد بعد إعلان

الجمهورية الإسبانية الثانية (1931).

Petit Larousse, illustré, éd.1980.

لهم أنها غير قادرة على تحقيق مطالبهم لتحالف الجبهة الشعبية فيها مع الجبهة الشعبية في فرنسا تحولوا عنها إلى اليمين الفرنكاوي أثناء الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) زمن المقيم العام الإسباني الشهير بيكيدر **Beigbeder** بل ساندوا الجنرال فرانكو علنا بتشجيع من الأمير شكيب أرسلان و الخليفة الحسن بن المهدي ف"المخزن الخلفي [ساند] حركة فرانكو كممثلة شرعية للدولة الإسبانية"¹⁶⁴ و ذلك في وقت كان فيه السلطان محمد بن يوسف في الجنوب يعدّ "سلطان الفرنسي"

إن هذه الميول الفرنكاوية تفسر إضافة إلى ما ذكرنا من نفور الوطنيين في الشمال من أنظمة الحكم اليسارية بما مكنهم فرانكو منه إذ أن فرانكو ، لأسباب سياسية دولية و لعلاقته المتوترة بالجمهورية الفرنسية الثالثة ذات الروابط الفكرية السياسية المتينة بالجمهورية الإسبانية الثانية التي قضى عليها بعد إعلان تمرده انطلاقا من المغرب الخلفي و لأسباب تاريخية معقدة تميز علاقة الإسبان بسكان المغرب الخلفي . رأى أنه لا بدّ من تمكينهم من مكاسب أكثر بكثير مما ناله سكان المغرب السلطاني ف"في عهد فرانكو و تلبية للمطالب الوطنية المغربية أعلن استقلال القضاء الإسلامي و لم تعد وزارة العدلية خاضعة لمراقبة نيابة الأمور الوطنية و لم يبق للمراقبين علاقة بالقضاء كما أعلن استقلال الأجناس

و أصبح النظار في المدن و القبائل تابعين لوزارة الأحباس¹⁶⁵ في الحكومة الخليفية دون تدخل من سلطات الحماية.و استقلال العدلية واستقلال الأحباس من الميزات التي امتازت بها منطقة الحماية الإسبانية عن منطقة الحماية الفرنسية"¹⁶⁶

¹⁶⁴ - بوهادي بوبكر، الحركة الوطنية شمال المغرب و الحرب الأهلية الإسبانية، ملاحظات عامة ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سلف ذكره، ص.42.

¹⁶⁵ - تولاها سنة 1937 عبد الخاق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطني.

¹⁶⁶ - أحمد عزيمان ، تطوان خلال عهد الحماية النظام الإداري، ضمن تطوان في عهد الحماية ،مرجع سبق ذكره ذكره، ص.15.

من هذه المكاسب التي مكّن فرانكو الوطنيين في المغرب الخليفي بعض ما يتصل بالميدان التعليمي أي ما يتصل بالبعثات التعليمية إلى المشرق العربي التي سيكون محمد أحمد بن عبود سنة 1938 من ضمنها :

"سياسة البعثات العلمية التي دشّن بها فرانكو سيطرته على المنطقة (...) هدفت رغم تدشينها لسياسة "التفاهم" مع نخبة المنطقة إلى استثمارها سياسيا"¹⁶⁷ و بين هذه البعثات بعثة 1938 التي سيكون من ضمنها محمد أحمد بن عبود¹⁶⁸ هذه السياسة التعليمية الفرنكاوية ليست في حقيقة الأمر إلا توسيعا لنطاق البعثات العلمية التي وضع قواعدها الشيخ عبد السلام بنونة انطلاقا من تفكيره السياسي و الاجتماعي الذي تعرضنا له بإيجاز قبل الآن و التي تحصر أفراد البعثات التعليمية في الطبقة العليا من المجتمع المدني التطواني أي تحديدا في أهل تطوان "و جلهم من بقايا أهل الأندلس أهل الحضرة و الهدوء و الأمان و الرفاهية و المياه

و الظلال و الريحان"¹⁶⁹ أي في ما يشبه عندنا في تونس عائلة ثامر و سليم و إن كانت العائلات الأولى في الغالب من أصل غرناطي و عائلتا ثامر و سليم من أصل مملوكي وقد يكون من المفيد أن نثبت هنا جدولا بالبعثات الطلابية¹⁷⁰ يبيّن أولا اقتصرها على بلاد المشرق (نابلس سوريا لبنان و مصر) و يفسر في نهاية

¹⁶⁷ - أحمد بوحداد، ملاحظات حول بعض الجوانب الخاصة "للسياسة" الإسبانية التعليمية ، ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق

ذكره، ص.38.

¹⁶⁸ في الوقت الذي كان فيه فرانكو يسلك هذه السياسة التعليمية إزاء وطنيي الشمال سعى إلى التفريق بينهم على أساس مدني / جبلي أو بربري "أندلسي" إذ "أصدر المقيم العام أوامره بإحضار مجموعة من طلبة الريف فقط و إرسالهم باستعجال ضمن بعثة الشيخ المكي الناصري بالقاهرة للإشارة فقد كانت هناك بعثة علمية أخرى بالقاهرة يطلق عليها بعثة عبد الخالق الطريس] ، أحمد بوحداد، المرجع سالف الذكر، الصفحة نفسها.

¹⁶⁹ محمد داود ، مختصر تاريخ تطوان ، مرجع سبق ذكره، ص.181.

¹⁷⁰ - استندنا في إقامة هذا الجدول على مقال Jacques Cagne, Un exemple de mission estudiantine en Orient . Naplouse. dans les années trente. Des Lycéens Tétouanais à ذكره، ص.301-309.

الأمر السياسة الاسبانية المشجعة على الدراسة في المشرق العربي حتى قبل استيلاء
فرانكو على الحكم

البعثة الطلابية التطوعية الأولى 1928	بنونة (الطيب بن عبد السلام) أفيلال (محمد بن مصطفى)
البعثة الطلابية التطوعية الثانية 1929	بنونة (مهدي بن عبد السلام) بن عبود (أحمد أحمد) الخطيب (عبد الله) الخطيب (امحمد بن عبد السلام) الخطيب (محمد بن محمد)
البعثة الطلابية التطوعية الثالثة (1931 - 1932)	الفاسي (محمد بن الحاج عبد السلام) ابن جلون (عبد السلام بن الحاج أحمد) ابن جلون (أحمد بن عبد الكريم) ابن عبد الوهاب (حسين)
البعثة الطلابية التطوعية الثالثة (1933)	بنونة (عبد الكريم) بنونة (إدريس) مدين (أحمد) حسّسان (محمد بن احسين عبد الله)

و في سنة 1938 سيرسل الحسن بن المهدي بعض الطلبة للدراسة في مصر
نرجّح¹⁷¹ أن يكون محمد أحمد بن عبود من ضمنها إذ أنه "تخرج في الحقوق

¹⁷¹ - لم يتسن لنا الحصول على الطبعة الثانية من "مركز الأجانب في مراكش" لمحمد أحمد بن عبود التي تتضمن ترجمة لحياته رغم ما بذلناه من جهة في هذا الغرض و أيا كان الأمر فنحن نؤرخ لحياة الشخصيات الفكرية

بجامعة فؤاد الأول عام 1943¹⁷² و دراسة الحقوق مثلما نعرف تدوم ثلاث سنوات أو أربع.

إن هؤلاء الطلبة التطوانيين الذين درسوا بالشرق العربي سيتميّز تفكيرهم السياسي إن قليلا أو كثير عن مجايلهم في المغرب الجنوبي مثل محمد بن الحسن الوزاني الذي كان تماما مثل التونسي بورقيبة لا يتحمل أن يبقى مدة طويلة بعيدا عن "باريس" "مكّته" المفضلة فهم متشبعون بالثقافة العربية الإسلامية أيما تشبع و البعض منهم ينظم شعرا عربيا خالصا لا يقل جودة عن شعر كثير من الشعراء المعتمدين في تدريس الشعر العربي الحديث فهذا امحمد أحمد بن عبود ينظم سنة 1939 أي عندما كان طالبا مبتدئا في الحقوق في الخصومة بين المحافظين و دعاة الإصلاح:

وهبت غنيمة و حرمت منها	لتشرب من كؤوس زنجبيل ¹⁷³
رأيت بنور قلبك في رياض	نعيم الله كنت له السبيل
فأهدت البرية ¹⁷⁴ خير هدي	و نلت جزاءك الشكر الجزيل
تعيش لفكرة و تذود عنها	و تتخذ العذاب لك الدليل
و تلقى في حياتك كل هون	و تخلق بعدها ذكرا جميلا
كشفت نقائصها ووصفت داء	و صرت تقاوم الداء الوبيل
فقاومك المريض يريد فتكا	يجس و لو قليلا ¹⁷⁵
ظلمت و كان ظلمك شر ظلم	فأهون بالممات له مثيلا ¹⁷⁶

و السياسية و هذه يمكن استخراجها من مصادر و مراجع متعددة بل متناقضة.

¹⁷² - جريدة الحرية التونسية ، 25 ديسمبر 1949.

¹⁷³ - زنجبيل: جنس نباتات عشبية

¹⁷⁴ - البرية : الخلق

¹⁷⁵ - خلل في العجز لسقوط بعض الكلمات

¹⁷⁶ - محمد بن عبود (ابنه) ، تطوان و مكتب المغرب العربي في القاهرة (1947-1949)، ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سلف

ذكره، ص.132، هامش 27.

لقد عاد محمد أحمد بن عبود إلى تطوان سنة 1943 أي بعد أن نزل الحلفاء بشواطئ المغرب السلطاني و بدأوا منه عملية غزو المغرب العربي و دحر قوات المحور القريبة إيديولوجيا من فرانكو. أما اسبانيا الفرنكوية فهي إن بقيت بمعزل عن الحرب العالمية الثانية فهي لم تغلق أبوابها في وجه أعداء الحلفاء سواء أكانوا من التونسيين أم الجزائريين أم وطنيي المغرب الخليفي و قد أصبحت لذلك مهجر الجرمانوفليين القدامى و منهم التونسيين الذين هاجروا إليها سنة 1944 هربا من الحلفاء المنتصرين و أقاموا فيها حتى هجرتهم إلى مصر سنة 1946 فتعرفوا فيها على وطنيي الشمال ووثقوا علاقاتهم بهم و عندما سيعين محمد أحمد بن عبود في فيفري 1946 ممثلا رسميا للمغرب الشمالي في لجان الجامعة العربية سيكون قبلتهم في المهجر المصري :البعض منهم سيضع يده في يده (مثل الحبيب ثامر) و البعض الآخر سيعدلّ إن لم يُغير تماما من مواقفه السابقة (مثل الرشيد إدريس) فتحدث جفوة بين الطرفين.

و لكن هذا الموضوع ليس موضعه في هذا الفصل إذ سنتناوله في الفصل الأول من القسم الثاني.



المؤامدة محمد بن عبد الكريم الخطاطي وأخوه محمد بعد ترويضاً بالقاهرة يوم 31 ماي 1947 بين الأتومين
والرئيس الحبيب رياض الصالح بين الأتومين والرئيس الحبيب بورقيبة على يسار ابن عبد الكريم الخطاطي وعلى
يسار بورقيبة الشهيد أحمد بن عود كما تشاهد الأستاذ الرشيد إدريس، أحد الأعضاء المؤسسين في المغرب
العربي في القاهرة بين بورقيبة وابن عود



الشهيد محمد أحمد بن عود مع الماهل السجدي خلال اللقاء ١١ معمد

القسم الثاني : ثامر و الحمامي و ابن عبود في المهجر
المصري

الفصل الأول

نشاط الثالوث السياسي والفكري



محمد امحمد بن عبود



علي الحمامي



المؤلف المحامي شامس

إذا كان لا بدّ من تقييم أنشطة ثامر والحمامي وابن عبود السياسية في القاهرة فإنه يمكن القول من دون تردد إن نشاط محمد احمد بن عبود كان الأكتف والأحد.

وفعلا فهو قد سبق الجميع في الهجرة إلى العاصمة المصرية إذ قرّر مولاي الحسن بن المهدي أن يبعث به، بموافقة السلطات الإسبانية، ممثلاً للمحمية الإسبانية في لجان الجامعة العربية في القاهرة فحل بها وفد الخليفة (محمد احمد بن عبود ومحمد الفاسي) في 7 فيفري 1946 : " محمد احمد بن عبود ، وهو من الريف الإسباني

ومن أعظم المجاهدين المغاربة تكلم باسم المغرب العربي بحرارة وحمية في مناسبات عدّة.

ولا [كذا] زلنا نذكر خطابه الداوي الذي ألقاه في افتتاح الدورة الأولى للجامعة العربية¹⁷⁷ والذي هزّ به العالم العربي هزّاً. وكانت (النهضة) هي التي تفردت بنشره في حينه وساهم ابن عبود في مختلف المؤتمرات والاجتماعات التي كانت تعقد للدفاع عن قضية المغرب العربي من قبل التجاء الزعماء الدستوريين والأمير عبد الكريم الخطابي إلى البلاد المصرية.

وسافر ابن عبود إلى نيويورك حيث حضر الدورة الثانية للمنظمة الأممية كمُلاحِظٍ واستفّر همّ أعضاء المنظمة لإثارة قضية المغرب العربي في المنظمة الأممية وكان يؤيده في نشاطه الشاب التونسي العابد بوحافة الذي يقوم بمهمّة مراسل خاص لجريدة المصري في الولايات المتحدة الأمريكية وقد واصل نضاله في القاهرة دفاعاً عن المغرب الأقصى تحت إشراف الأمير عبد الكريم الخطابي حيث كان يشغل خطة مدير مكتب المغرب العربي¹⁷⁸. نقلنا تعمّداً هذا الشاهد من جريدة تونسية لأن المرء لن يعثر على إجماع حول من كان أكثر من غيره من الساسة في هذه الفترة تشبهاً بالفكرة المغربية أو من كان أسبق من غيره في السعي إلى "مغربة" النضال السياسي أو مشرقته وأسلمته بل تدويل القضية المغربية والصحيفة التونسية تؤكد أن

177 - مارس 1946

178 - جريدة النهضة، التونسية ، 16 ديسمبر 1949

المغرب الخليفي (أي حزب الإصلاح الوطني أو ما هو قريب منه) قد امتاز عن الحزب الحر الدستوري الجديد في شقه البورقيبي وعن حزب الاستقلال في المغرب السلطاني وكذلك عن حزب الشعب الجزائري بالريادة في الدعوة إلى القضية المغربية ،فإذا أضفنا إلى ذلك هذه العلاقة الوطيدة بين محمد بن عبود

" والشاب التونسي العابد بوحافة " الذي تمتلئ، كتابات بورقيبية المتعلقة بهذه الفترة بضروب اتهامه بشتى التهم اقتنعنا أننا منذ 1946 بإزاء علاقة لن تكون البتة في المستقبل ودية بين محمد بن عبود وأغلب ساسة بلاد المغرب خاصة عندما سيلجأ "ريفي" آخر، من عيار ثقيل إلى مصر، هو محمد بن عبد الكريم الخطابي.



الغاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي وعلى يساره الشهيد محمد بن عبود وعلى يمينه الشيخ غلال القاسي

لقد أشرف الأستاذ المشرف على هذا العمل على رسالة ماجستير¹⁷⁹ تناول هذه العلاقة ولذلك فإننا في هذه الصفحات التي يجب أن لا تتجاوز الثلاثين صفحة سنكتفي بتناول ما يتعلق بهذه المسألة بالاعتماد بصفة أساسية على البحوث التي كتبها محمد ابن عبود سواء في "المجلة المغربية" أو فيما هو قريب منها مخضعين ما جاء في هذه البحوث للنظرة الشاملة التي تحكم هذا البحث.

سبق أن ذكرنا العبارة "الحزب الحرّ الدستوري" في شقة البورقيبي فماذا يعني هذا ؟ هو يعني استثناء الشق الثامري أو الرويسي الذي بقي على معتقده المغربي العربي الإسلامي أولاً وعلى عداوته المتأصلة للحلفاء ومن ثم على ولائه للنظرة الأرسالية التي كم ستقرب بين ثامر ومن يذهبون مذهبه وبين محمد أحمد بن عبود وحزب الإصلاح الوطني الذي يرأسه عبد الخالق الطريس خاصة بعد أن اضطرّ الجرمانوفيليون التونسيون إلى الهجرة إلى إسبانيا الفرنكاوية (1944-1946) فتونقت صلاتهم ببعض " الإصلاحيين الوطنيين " أو بمن هم قريبون منهم. وفعلاً فإن الحزب الحرّ الدستوري التونسي كان منذ قيامه سنة 1934 (سنة تأسيس لجنة العمل المراكشي في المغرب السلطاني وما يقرب منها في المغرب الخلفي) تتنازع تيارات ثلاثة لم تتبلور إذاك حتى تصبح قابلة للمعاينة خاصة أن المطلب الوطني كان يطمس ما عداه من المطالب :

تيار بورقيبي لا يكاد المرء يتبين ما الذي يميّزه عن معتقدات الحزب الراديكالي الفرنسي الذي كان يتحكم في نهاية المطاف في مختلف حكومات الجمهورية الثالثة وهو شق أقلّي يكاد ينحصر في بورقيبية الذي بقي على معتقده حتى موته سنة 2000 ممّا يجعل منه حالة فريدة بين الساسة المغاربة ولكّنه

179 - محمد الطاهر براهمي، محمد بن عبد الكريم الخطابي في المهجر المصري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس،

سيتمكّن من الحكم في خمسينات القرن العشرين لأسباب متعدّدة لا مجال لتناولها في هذا البحث.

و شق يساري أكبر رمز له هو سليمان بن سليمان (1905-1986) الذي سيناصر بورقية معاداة منه لأسس المجتمع التقليدي ورموزه إلى أن يطرده بورقية من الديوان السياسي سنة 1950 بسبب ركوبه جواد الإتحاد السوفيتي أي " الجواد الخاسر" حسب بورقية. أما الشق الثالث فهو الشق المغربي العربي الإسلامي الذي إن انخرط في الحزب الدستوري الجديد في ثلاثينات القرن العشرين فإن من الصعب على المرء أن يتبين الخطوط التي تفصله حقا عن الحزب الدستوري القديم. هذا الشق تتعدد الأسماء المنتمية إليه فمنها الحبيب ثامر ومنها يوسف الرويسي ومنها الرشيد إدريس.

من هنا نفهم حتى قبل نهاية الحرب العالمية الثانية العلاقة الخاصة التي ستربط فيما بعد محمد احمد بن عبود ومحمد بن عبد الكريم الخطابي مثلا بالرويسي و ثامر والعايد بوحافة مثلما نفهم، وقبل الهجرة إلى مصر، العلاقة المنتشجة بين الاتجاه السابق واتجاه بقية ساسة بلدان المغرب العربي أمثال بورقية وعلال الفاسي وممثل مصالي الحاج في القاهرة الشاذلي المكي. بهذا يمكن أن نفهم أن التونسيين ثامر و الرويسي كانا منذ 1944 يفكران في وضع أسس مكتب المغرب العربي الذي لن يتأسس إلا سنة...1947 كتب الرويسي: "لكي نضع نشاط مكتب المغرب العربي في دمشق في إطاره الصحيح ينبغي أن نعود بالذاكرة إلى الاجتماع الذي انعقد في قرية "أوبين" من مقاطعة سكسونيا في ألمانيا سنة 1944 بيني وبين الحبيب ثامر وتمّ فيه تحديد الأهداف ودرس الوسائل التي يسير بمقتضاها العمل في الخارج بأوروبا والمشرق العربي بشكل مفصل . وقد نشر البعض من هذه الأهداف والوسائل بجريدة "المغرب العربي" التي كانت تصدر في برلين آنذاك وبقي القسم

الأخر طي الكتمان، وهو القسم المتعلق بالمشرق العربي مثل جلب أعداد من الطلاب المغاربة إلى المشرق، بعضهم يلتحقون بالكليات لإتمام دراساتهم الجامعية فتتكون منهم عناصر الثورة الثقافية والبعض الآخر يرسلون إلى الكليات الحربية فيتخرج منهم ضباط يكونون ركائز الثورة التحريرية المسلحة أيام الكفاح الوطني وإطارات الجيش الوطني في عهد الاستقلال. وكنا نصدر في هذه القرارات عن اقتناع تام بأن تحقيق أهدافنا القومية والبعيدة منها الرامية إلى استقلال المغرب العربي وتوحيد أجزائه وتحقيق سعادة أبنائه كخطوة لتحقيق الوحدة العربية الشاملة سوف لا يتحقق إلا بنتيجة ثورة شعبية مسلحة تشمل جميع أقطار المغرب العربي تواكبها ثورة ثقافية تقضي على الاستعمار الثقافي وتعيد للمغرب انطلاقة شخصيته العربية الإسلامية " ¹⁸⁰ يتلخص الشاهد في النقاط الثلاث التالية:

أولا : تواصل الفكرة المغربية التي ظهرت عند جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا **A.E.M.N.A.** منذ تأسيسها سنة 1927 ولكن على أيدي الشق الثالث في الحزب الحرّ الدستوري التونسي الجديد.

ثانيا : ونتيجة لذلك بروز فكرة الثورة الثقافية ممّا يعني نفور هذا الشق من الشق "المفرنس" (بورقية) واليساري (ابن سليمان) فيه.

ثالثا : بداية التفكير في تكوين ضباط بالمشرق العربي ممّا يعني تأكيدا للنفور من الشقين سالفين الذكر.

رابعا : الصبغة الواضحة لما يجب أن يكون عليه مستقبل المغرب العربي أي " انطلاقة شخصيته العربية الإسلامية..." وفي هذا تأكيد للمرة الثالثة على نفور هذا الشق من الشقين الدستوريين سالفين الذكر.

¹⁸⁰ - يوسف الرويسي ، نشاط مكتب المغرب العربي بدمشق، المجلة التاريخية المغربية، العدد 12، 1978.

فما يجمع إذن بين هذا الشق الدستوري المغربي العربي الإسلامي وبين حزب الإصلاح الوطني بصفة عامّة هو أكثر ممّا يجمع بين هذين الدستوريين الجديدين والحيّيب بورقيبة وسليمان بن سليمان ولذلك عندما سيؤسس مكتب المغرب العربي في القاهرة سنة 1947 لن يكون الاختلاف مبنيا على القطرية أو المغربية أو الحزبية بقدر ما سينبني على اختلاف في النظرة الحضارية أي على مسألة الهوية لقد ركّزنا على الثنائي التونسي ثامر و الرويسي ولم نذكر الرشيد إدريس مثلا (ولد 1917) لأن الرشيد إدريس سيتحوّل من الثامرية إلى البورقيبية حزبيا ولكّنه إيماننا عميقا كان أقرب إلى الثامرية منه إلى البورقيبية ممّا يجعل منه شخصية إشكالية تستحق دراسة خاصّة بعد أن أصدر سنة 2000 كتابه " في طريق الجمهورية" ¹⁸¹ ولسوف يعثر هذا الشق في القاهرة على مجال نشاط لا حدود له بفضل عاملين أحدهما عربي وثانيهما إسباني أوروبي ساعدا على إبراز دور محمد احمد بن عبود الذي أصبح طيلة الفترة الممتدّة من فيفري 1946 إلى ديسمبر 1949 محوريا. كيف ذلك. ما " أن تأسست الجامعة العربية في 22 مارس [1945] من طرف دعاة القومية العربية الذين كانت لهم — على رأسهم شكيب أرسلان — علاقات وصلات وطيدة بالوطنيين في منطقة الحماية الإسبانية [حتى قامت] بتوجيه دعوة للوطنيين بتطوان قصد تشكيل وفد يمثل منطقة الشمال المغربي" ¹⁸² فنقرّر بموافقة فرانكو، " في فيفري 1946 إيفاد بعثة لدى اللجنة الثقافية للجامعة العربية تتألف من محمد الفاسي وامحمد أحمد بن عبود وامحمد عبد السلام بن عبود " ¹⁸³ .

¹⁸¹ - الرشيد إدريس، في طريق الجمهورية ، 2000 وقد وقعت برمجّة للدراسة النقدية في إطار شهادات الماجستير.

¹⁸² - عبد الحفيظ حمان، الأحزاب الوطنية بالشمال من المطالبة بالإصلاح إلى المطالبة بالاستقلال (1936-1953) ، ضمن تطوان

في عهد الحماية ، مرجع سبق ذكره ، ص176

¹⁸³ - عبد المجيد بن جلون ، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد

الحماية، مرجع سبق ذكره، ص 111

لقد لاقى تأسيس جامعة الدول العربية صدى طيبا عند فرانكو على عكس ما لاقى عند ساسة الجمهورية الرابعة الفرنسية (1944-1958) ممّا يفسّر أنه " في أواخر سنة 1946 اتصل كل من ميكيل غارسيا رودريكييس **Miguel Garcia** من وزارة الخارجية الإسبانية كزا ريبيل **Casa Real** و الوزير الإسباني المفوض بالقاهرة آنذاك بالجامعة العربية وذلك للاقتراح على العرب توثيق عرى روابط بلدانهم معهم. ابتداءً من هذا التاريخ تعزّزت العلاقات بين الطرفين من خلال فتح أو ترقية التمثيل الدبلوماسي المتبادل و تصويت الدول العربية لصالح إسبانيا في هيئة الأمم المتحدة وكذا تبادل الزيارات الرسمية"¹⁸⁴

وهكذا سيصبح محمد أحمد بن عبود أوّلاً " رئيساً للوفد الخليفي في اللجان الثقافية لدى الجامعة العربية بالقاهرة ¹⁸⁵ من فيفري 1946 إلى ديسمبر 1949 وثانياً رئيساً لمكتب المغرب العربي من 1947 إلى وفاته صحبة ثامر والحمامي في 15 ديسمبر 1949 ¹⁸⁶ إضافة إلى أنه كان من المقربين من الملك فاروق الذي لم يكن ليردّ له طلباً في مستطاعه مثل طلب تمكين محمد بن عبد الكريم الخطابي من اللجوء إلى مصر في ماي 1947 أو ليرفض بذل مساعيه إذا كان الطلب صعب التحقيق مثل طلب إطلاق سراح الباي الوطني التونسي محمد المنصف.

أي بمعنى آخر سيصبح محمد أحمد بن عبود لصفته التمثيلية الرسمية ولعلاقته الوثيقة بالدولة المصرية ، أقوى الدولة العربية وأرقاها حضارة، هو واسطة الساسة المغاربة يطلبون ودّه عن اقتناع بدوره أو عن حسابات سياسية خاصّة في فترة خفت

¹⁸⁴ - عبد المجيد بن جلون، المرجع سالف الذكر، الصفحة نفسها.

¹⁸⁵ - عبد الحفيظ حمان، الأحزاب الوطنية بالشمال .. مقال سبق ذكره، ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره، ص 176

¹⁸⁶ - خلفه بعد موته في ديسمبر 1949 في رئاسة مكتب المغرب العربي في القاهرة الإستقلالي المراكشي عبد المجيد بن جلون من 1950 إلى سنة 1955. ومعروف أنّه بموت ثامر سيختفي التمثيل التونسي ذو الإتجاه الثامري الخطابي على عكس الاتجاه البورقيبي الذي سينصرّف عن العمل في إطار مغربي لينشط في اتجاه قطري بورقيبي أبرز ممثليه الطيب سليم والرشد إدريس و الحجري. في حين سيسعى يوسف الرويسي إلى تأسيس حزب جديد

فيها صوت الأحزاب الاستقلالية المغربية لا في مختلف مناطق المغرب العربي فحسب ولكن حتى في جمعية الطلبة المسلمين الشمال افريقيين في فرنسا التي أصبحت رئاستها تؤول منذ أن غادرها الحبيب ثامر إلى أمثال طالبي الطب التونسيين الصادق المقدم وامحمد بن سالم وأشباههما ومثل هؤلاء الرؤساء لا تذكر رئاستهم لا من قريب أو بعيد برئاسة ثامر في حين تضخم فيها صوت المغربيين العربيين الإسلاميين في المشرق العربي.

لذلك على المرء أن يتصور ما سيكون عليه وقع هذه التطورات على المغربيين العربيين الإسلاميين الجرمانوفيليين (سابقا) التونسيين المقيمين في اسبانيا الفرنكوية منذ أن التجأوا إليها في جويلية 1944 فرارا من الحلفاء أمثال الحبيب ثامر والرشيد ادريس والطيب سليم ... لقد انفتح أمامهم، أخيرا، باب الهجرة إلى مصر ولكن انفتاحا كاملا بالنسبة إلى البعض (ثامر مثلا) ونصف انفتاح بالنسبة إلى البقية إذ سيكون محور النشاط السياسي في القاهرة لا الحزب الدستوري الجديد ولا حزب الشعب الجزائري ولا حزب الاستقلال ولكن بطريقة صريحة أو ضمنية حزب الإصلاح الوطني أي بعبارة أخرى ممثلو المغرب الخليفي وأشهرهم محمد أحمد بن عبود الذي سيتقوى بعد قليل بهجرة مواطنه محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مصر فإذا " بتطوان و الجبل " يفيضان سياسيا على بقية المناطق المغربية سواء أكانت مراكش أم جزائرية أم تونسية .. إن مثل هذا الواقع الجديد لن تقبل به كل الأحزاب التي عدّنا ولكن سيقبل به الثلاثي ثامر (الذي هاجر صحبة الرشيد ادريس والطيب سليم إلى القاهرة في جوان 1946) والحمّامي وابن عبود بطبيعة الحال. ولسوف نرى عند تحليل رواية " ادريس " للحمّامي أنّه يرى في الجبل الأصل وفي المدينة الفرع والجبل عنده يمتد من الريف إلى جبال جرجرة إلى جبال خمير وهو الرابط الحقيقي بين بلاد المغرب. ولقد التبتست " جنسية " علي الحمّامي على معاصريه التباسا عجيبا لأنّه عمد في روايته إلى الخلط بين " أصوله " إيماننا

منه بأنه لا وجود لتونسي أو جزائري أو مراكشي لأنه، في نظره، لا يوجد في هذه الجهات المغربية غير إنسان واحد هو الإنسان المغربي¹⁸⁷

إن ما نذهب إليه في هذا البحث هو وحده الكفيل بتفسير ما سيطرأ على الفكرة المغربية عندما توضع على محك الممارسة من انتكاس. فلا قيمة حقيقية للتركيز على تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة (1947) أو لجنة تحرير المغرب العربي (1948) إن لم يتبين المرء قبل ذلك الرؤية الفكرية التي كانت توجهه، وفي العمق، لا على المستوى السياسي أو الدبلوماسي، خطى ساسة المغرب العربي على أن هذه الملاحظة الأساسية لا تمنع، بعد "تمثلها" بشكل جيد من تتبع نشاط محمد أحمد بن عبود والحبیب ثامر خاصة السياسي في المهجر المصري. أشهر أنشطة هذين السياسيين ثلاثة : تأسيس مكتب المغرب العربي في فيفري 1947 والعمل على تمكين محمد بن عبد الكريم الخطابي من اللجوء إلى مصر في ماي 1947 والمشاركة في أول مؤتمر ثقافي عربي في بيروت في سبتمبر 1947. هذه الأنشطة الكبرى الثلاثة تحتاج لصياغتها في كل سياسي يجمع حباتها المتناثرة إلى مناقشة مسألة هامة يلخصها التساؤل : هل أن قرار تأسيس المكتب المغربي كان تطويرا لما كان القوم يقولون به من فكرة قومية مغربية فحسب أم أن الذي حسم في الأمر هو هذه الإشاعات التي بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وفي سنة 1946 على وجه التدقيق تشير إلى إمكانية التغيير من وضع القائد الريفى المنفى في جزيرة " لا رينيون " محمد بن عبد الكريم الخطابي؟ بعد أن وجه طلبا إلى الحكومة الفرنسية يطلب فيه نقله إلى فرنسا.

¹⁸⁷ - لا نكاد نعثر على ما يفيد نشاطا سياسيا للحمامي في المهجر المصري، إذ هاجر إليها بعد حلول الخطابي بها ومات بعد ذلك بقليل

ولكن من المعروف أنه كان ملازما للخطابي من ناحية وأن روايته هي من الثراء الفكرى السياسى بحيث يمكن اعتبارها من روائع الأدب السياسى المغربى. إن هذا هو ما يفسر قصر الحديث في هذا الفصل على الثانى ثامر التونسى والتطوانى محمد أحمد بن عبود.

هذا التساؤل على غاية من الأهمية لأنه يقلب طريقة تناول الموضوع رأساً على عقب إذ يصبح مثلاً تأسيس مكتب المغرب العربي نتيجة لا سبباً؟

وفعلاً فكيف نفسّر، إن لم نأخذ بهذا الرأي ، أولاً أن المقيم العام في المنطقة الإسبانية أسس أواخر سنة 1946 حزب الوحدة الريفية في مدينة مليلة وكان هدف هذا الحزب مقاومة ابن عبد الكريم في حالة رجوعه ¹⁸⁸ مفتحاً بذلك سياسة مقاومة حزب الإصلاح الوطني.

وكيف نفسّر ثانياً أنّه بعد ذلك بقليل أي " في فبراير 1947 قبلت الحكومة الفرنسية طلبه [وقد] جاء هذا القرار بعد اقتراح وزير الخارجية (M. Bidault) الذي وافق عليه مجلس الوزراء في 5 فيفري 1947" ¹⁸⁹ أي قبل انعقاد مؤتمر القاهرة بداية من 15 فيفري.

ثم كيف نفسّر ، ثالثاً، وعلى المستوى الداخلي المراكشي البحت أن السلطان محمد بن يوسف الذي كان يعتبر منذ توليته على مراكش وحتى بداية هذه السنة " سلطان الفرنسيين" توجه في 10 أفريل 1947 إلى طنجة وأعلن تبنيه لبرنامج حزب الاستقلال أولاً وثانياً عن إيمانه بمصير مراكش العربي الإسلامي ؟

إن القضايا المصيرية لا تطرح في البرلمانات الغربية إلا إذا نضجت بما فيه الكفاية فيقع التفكير في " سيناريوهات " عديدة يحتفظ التاريخ بما يطبق منها ثم ألا يحق لنا التساؤل إن كان محمد بن عبد الكريم نفسه لم يفكر في أن يطلب من فرنسا تمكينه من الهجرة إليها إلا بعد أن بلغته أخبار تمثيل المغرب الخلفي في جامعة الدول

¹⁸⁸ - محمد بن عيود وجاك كاني، مؤتمر المغرب العربي سنة 1947 وبداية نشاط مكتب المغرب العربي في القاهرة وعملية ابن عبد

الكريم، المجلة التاريخية المغربية، تونس ، عدد 25-26 جوان 1982 ص. 15.

¹⁸⁹ - محمد بن عيود وجاك كاني، مؤتمر المغرب العربي سنة 1947، مربع سلف ذكره، ص. 13 وحاشية 18 من الصفحة نفسها.

العربية سنة 1946. كتب محمد بن عبود وجاه كاني عن " عملية ابن عبد الكريم "

:

" لا توجد لحدّ الآن أية دراسة دقيقة وموضوعية حول هذا الحدث، حيث حاول الذين روه إبراز دورهم الشخصي أو دور الحزب الذي كانوا يمثلونه " ¹⁹⁰ ونحن نرى أنه لا توجد إلى حدّ الآن أية دراسة دقيقة وموضوعية حول المسببات الحقيقية لكثير من الأحداث التي جدّت سنة 1947 مثل تأسيس مكتب المغرب العربي (فيفري) وخطاب السلطان محمد بن يوسف في طنجة (10 أبريل 1947) والتحاق زعماء من الإستقلال (علال الفاسي) والإصلاح الوطني (عبد الخالق الطريس) بالقاهرة هل كان ذلك سعيًا منهم إلى تنشيط مكتب المغرب العربي وفيما بعد لجنة تحرير المغرب العربي (1948) أم سعيًا منهم إلى أن يكونوا "عيونا" للسلطان محمد بن يوسف على محمد بن عبد الكريم خاصّة بعد أن أعلن الطريس عقب خطاب طنجة ولاءه وولاء حزبه لسلطان مراكش ممّا يفسّر ما يكاد يجمع عليه الباحثون في مثل هذه المسائل من نفور " أسد الريف" من جميع ممثلي الأحزاب السياسية المغربية وبقائه في المهجر المصري حتى موته سنة 1963 أي حتى بعد استقلال آخر بلد مغربي وهو الجزائر سنة 1962 ؟

ثم إن ما نذهب إليه يمكن من الإجابة عن تساؤل ابن محمد أحمد بن عبود، صاحب المقالات التي نستشهد بها منذ بداية هذا الفصل وهو : " هل كان [غياب الأسماء اللامعة في الأحزاب الوطنية المغربية] مجرد صدفة أم عملاً قصده منظمو المؤتمر ويريدون به الابتعاد عن الزعماء الذين كانوا يسعون إلى فرض شخصيتهم ، الأمر الذي لم يكن يرضاه بعض الوطنيين "الدائمين" في مصر مثل الحكيم الحبيب

¹⁹⁰ - محمد بن عبود وجاه كاني، مؤتمر المغرب العربي سنة 47، المرجع سالف الذكر، ص 17

ثامر الذي كانت بينه و بين الأستاذ بورقيبة خلافات أو المرحوم محمد أحمد بن عبود المجيد جلون وفضلوا البحث عن اتجاه غير اتجاه الأحزاب الموجودة"¹⁹¹ إن التونسي عز الدين عزوز الذي شارك في المؤتمر بإمكانه أن يجيب عن هذا التساؤل بشكل قاطع وفي ما يحض المفوضين التونسيين :

"لقد تأسس مكتب المغرب العرب ووقع انتخاب الحبيب ثامر رئيسا ممثلا لتونس على أن تكون الرئاسة مناوبة بين كل واحد من البلاد الثلاثة. كان الجو على مستوى الشمال الإفريقي يبعث على التحمس ولكنه كان يبدو على المستوى التونسي الصرف محبطا، فنزعة الرشيد إدريس و الطيب سليم وخليفة حواص "الانفصالية" لم تقبل بهذه الهزيمة. وقد بذل أصحابها كل جهد من أجل تخريب عمل الدكتور ثامر الرائع (...) حتى اضطر ثامر بعد أن بذل الجسيم من الجهد والكثير من الأناة إلى أن يطرد من مكتب المغرب العربي الرشيد إدريس والطيب سليم (...) وأنى لأذكر مسارة الدكتور ثامر أثناء هذا المؤتمر الشهير :

" لقد انتهزت فرصة غياب بورقيبة عن القاهرة(كان إذاك يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية) لعقد هذا المؤتمر للمغرب العربي "¹⁹².

لقد رأينا أن الحزب الدستوري الجديد ضم تيارات ثلاثة فالذي شاركوا في المؤتمر كانوا يمثلون (لغياب التيار اليساري ممثلا في سليمان بن سليمان) التيارين المتبقين و هما التيار البورقيبي والتيار الثامري الذي يكاد يندغم في النظرة الخطابية إلى الأشياء فالقضية هي إذن على غاية من الخطورة والهوة شاسعة بين

¹⁹¹ - محمد بن عبود و جالك كاني، مؤتمرالمغرب العربي سنة 1947 مرجع سبق ذكره، ص.29.

¹⁹² - Azzeddine Azzouz, L'histoire ne pardonne pas, op.cit., p. 114.

أنظر في الملاحق توسعا في هذا الموضوع

البورقيبية والثامرية ولسوف تتعمق أكثر عندما يلجأ محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مصر فتتكون لجنة تحرير

المغرب العربي (1948) وتتمحور حول ممثلي المغرب الخليفى بما أن مكتب اللجنة تكونت على النحو التالي.

الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي: رئيس دائم.

الأستاذ أحمد بن عبود: أمين الصندوق.

الأستاذ الحبيب بورقيبة: أمين عام.

ولنتصور عندئذ لجنة مكونة من ثلاثة مغاربة شماليين (جبلين و تطواني) يرون أن "المغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش، و على الإسلام سيسير في حياته المستقبلية" و من أمين عام للجنة تونسي هو بورقيبة كان يعتقد طيلة حياته " أن الرباط و الجزائر و تونس و طرابلس هي أقرب إلى لشبونة و مدريد و باريس و روما منها إلى دمشق[عاصمة البعثية الأموية] و بغداد[عاصمة البعث العباسي] و الرياض [عاصمة الوهابية السعودية]"

نعم توجد بعض العوامل المشجعة على الانقسام مثل الميل المفرط إلى الزعامة ولكن القضية في نظرنا يجب أن تُتناول عن مستوى أعمق أي مستوى النظرة الشاملة إلى الأشياء التي تدخل ضمنها مسألة الهوية و من لم يتناولها هذا التناول لن يفهم لم لم تطبق قرارات المؤتمر ولا ما وقع الاتفاق عليه ضمن لجنة تحرير المغرب العربي بل لن يفهم حقيقة لماذا" أخبر الرئيس الحبيب بورقيبة و هو يقوم بجولة دعائية للقضية الوطنية ابتداء من أفريل إلى ماي 1948 بأن الأستاذ علال الفاسي قد أصبح أميناً عاماً في اللجنة عوضه) أي بعد بضعة أشهر فقط من تكوين اللجنة كما

لم يفهم أيضا أن تعويض علال الفاسى بورقيبة لن يكون تمتينا للحملة اللجنة إذ متى كان علال الفاسى و أغلب أعضاء وحزب الاستقلال من القائلين "بالكفاح المسلح" إن علاقات الحزب الدستوري الجديد في شقه البورقيبي بحزب الاستقلال(و بحزب الشعب في شقه المصالي) كانت وثيقة إلى أبعد الحدود على الرغم من بعد "سلفية علال الفاسى الجديدة" عن نظرة بورقيبة إلى الأشياء.

إن بورقيبة الذي "حارب" أتباعه الشق الثامرى عند انعقاد مؤتمر المغرب العربي في القاهرة في فيفري سيكون أكثر تحفظا إزاء الخطابية التي تكرست بتكوين لجنة تحرير المغرب العربي لذلك سينفردون بالعمل ضمن مكتب الحزب الدستوري الجديد و لن تعنى السنوات 1947 – 1949 بالنسبة إليهم غير مقاومة الحبيب ثامر فيه حتى اضطر إلى طردهم منه وكذلك فعل الشاذلي المكي فيما يتعلق بالمصاليين مما يؤكد ما أورده محمد بن عبود نقلا عن عبد المجيد بن جلون عن سلوك القوم حالما منذ أن بلغهم خبر وفاة الثلاثي ثامر والحمامي ابن عبود:

" ليس هناك جديد سوى أن المكتب مقفل وقد أقفلناه بعد قدوم الطيب سليم و الشاذلي المكي وقد كسر الأول- ونحن ننظر- باب غرفة الحبيب بورقيبة [المقصود هو ثامر] وكسر الثاني غرفة ابن عبود أخيكم رحمه الله فاضطررنا إلي استدعاء البوليس و إغلاق المكتب نظرا لتطور

الموقف وكان يسير ضدنا و كانت الظروف حرجة وسوف نستأنف النشاط بعد قليل.وقد اتصلنا بالأمير ابن عبد الكريم وأفهمناه كل شي وهو الآن راض عنا و غاضب عليهم ولكنه لا يريد أن يخطو خطوة إيجابية فإذا لم يفعل فعلنا نحن...¹⁹³ فكيف يمكن للمرء والحالة على ما وصفنا أن يذهب إلي أن محمد بن عبد الكريم الخطابي استطاع دون غيره أن يوحد الأحزاب المغربية تحت قيادته حيث مكنا من التغلب علي خلافاتها واصطداماتها فيما بينها وفرض وجودها رغم العراقيل التاريخية و الجغرافية والسياسية أمام وحدة المغرب العربي¹⁹⁴ نعم إن لتأسيس مكتب المغرب العربي ولجوء محمد عبد الكريم الخطابي إلى مصر وتأسيس لجنة تحرير المغرب العربي أثرا كبيرا في تعريب القضية المغربية بل تدويلها و لكنه لم يكن لهذه الأحداث الثلاثة اثر مشابه علي مستوي العلاقات الحزبية المغربية.

وهذا لا يقلل في شي من نشاط ثامر وابن عبود اللذين أخلصا للقضية المغربية خاصة أن بن عبود سيخطو سنة 1948 خطوة جديدة في نضاله هذه المرة ضد الاحتلال الاسباني فيما عرف بـ "أحداث تطوان الدامية"

وتتلخص هذه الأحداث في أن السلطات الاسبانية ممثلة في المقيم العام فاريلا استاءت من لجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي السياسي إلي مصر ثم ازداد استياءها عند تطور العلاقات بين خصمها القديم في حرب الريف ومحمد احمد بن عبود الذي كان من المفروض أن يمثل الوجه الوديع في الحركة الوطنية الشمالية. وقد يكون حدث

¹⁹³ - محمد بن عبود و جاك كاني، مؤتمر المغرب العربي سنة 1947 مرجع سبق ذكره، ص.29-30. و في الملاحق مراسلة خاصة من الفلسطيني محمد علي الطاهر إلى الحبيب بورقيبة يصف فيها هذا الوضع المتردي و يدعو إلى التدخل في الأمر

¹⁹⁴ - محمد بن عبود و جاك كاني، مؤتمر المغرب العربي سنة 1947 مرجع سبق ذكره، ص.28.

تطور في موقف عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطني فاتجه نحو مزيد من الراديكالية وهذا يعني قيام مصالحه بين الريف وتطون ممثلين في محمد بن عبد الكريم الخطابي من ناحية و أحمد بن أحمد بن عبود من ناحية ثانية هذا إضافة إلي أن السلطان محمد بن يوسف انحاز منذ أفريل 1947 إلي المطالب الوطنية مما أصبح يمثل لأول مرة إمكانية قيام وحدة وطنية في الشمال والجنوب مما يمثل خطرا علي الاستعماريين الأسباني والفرنسي لهذا السبب الذي أحست بخطورته الجمهورية الفرنسية الرابعة فعينت الجنرال جوان مقيما عاما في مراكش مكلفا بكبح جماح محمد بن يوسف الوطني الجديد عينت حكومة فرانكو الجنرال فاريلا ليقوم بالدور نفسه في المغرب الخليفي عندما قرر عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح الوطني ومحمد احمد بن عبود في فيفري 1948 القيام بزيارة إلي تطوان مسقط رأسيهما وسافرا إليها قادمين من القاهرة عبر لشبونة ووصلا في 4 فيفري إلي طنجة المنطقة الدولية التي تبعد عن تطون بحوالي سنتين كلم قرر المقيم العام فاريلا

منعهما من الدخول إلي مدينة تطوان فأنجر عن هذا القرار الذي يبدو بسيطا أحداث دامية لا يمكن أن يفسرها إلا تداخل مجمل الأحداث التي جدت منذ 1947 سواء في المهجر المصري أو في المغربيين السلطاني و الخليفي هذا السبب البسيط في الظاهر هو " منع الإسبان للأستاذ عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح و كاتبه العام المرحوم الحاج الطيب بنونة والشهيد محمد أحمد بن عبود (مدير مكتب المغرب العربي في القاهرة

و رئيس الوفد المغربي لدى اللجان الثقافية بالجامعة العربية) من الدخول إلي تطوان قادمين من القاهرة عبر لشبونة ثم طنجة الدولية (...)إلا أن هذا الحادث أدى إلى احتجاج

أعضاء حزب الإصلاح الوطني في تطوان وأدت هذه المظاهرة إلى اصطدام دموي شعبي مع الجيش الاستعماري الإسباني ثم إلى أزمة سياسية بين الإدارة الاستعمارية والحكومة الخليفة. باختصار أدى حادث بسيط في ظاهرة إلى سلسلة من الحوادث الخطيرة سمينها بحوادث تطوان الدموية" ¹⁹⁵ " مثلما أدت هذه الحوادث [على مستوى بعث وحدة وطنية] إلى مواجهة جميع الفئات المغربية للإدارة الاستعمارية الإسبانية فبينما كانت الأحزاب والفئات السياسية تواجه الإدارة الاستعمارية الإسبانية مواجهة علانية دون غيرها قبل حدوث هذه الحوادث، انضم إليها الخليفة

والباشا وأعيان مدينة تطوان وهي عاصمة منطقة الحماية الإسبانية إلى جانب الجماهير الشعبية بما فيهم سكان المدينة وسكان البادية الموجودون في المدينة آنذاك -فأصبحت جميع هذه الفئات الاجتماعية والسياسية تواجه الإدارة الاستعمارية مواجهة مباشرة ، مما أدى إلى تعقيد الوضعية السياسية في الشمال إلى درجة لم يعرف لها مثيل ¹⁹⁶ إن عبد الخالق الطريس الذي سيطالب بعد هذه الأحداث بـ"استقلال ذاتي" للمنطقة الشمالية سيضطر إلى الإقامة في طنجة إلى جانفي 1952 عندما ستلين السياسة الإسبانية فتعوض الجنرال **Varela** بمقيم عام جديد هو **Garcia valinio** أما محمد أحمد بن عبود فسيعود إلى القاهرة في مارس أو أبريل 1948 ليزود مكتب المغرب العربي

¹⁹⁵ - محمد بن عبود، وثيقة جديدة حول حوادث تطوان (8 فبراير 1948) ، المجلة التاريخية المغربية ، العددان 33-34 ، تونس 1984.

¹⁹⁶ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره ص 13.

و الصحافة الشرقية بمعلومات موثوقة عما حدث مما سيزيد من تعريب المسألة الاستقلالية في بلاد المغرب عموما وكسب أنصار لها جدد ولسوف يبلغ سخط الاستعمار الاسباني ممثلا في المقيم العام فاريلا علي محمد احمد بن عبودا حدّا دفع به إلي أن يمنع دفنه عندما توفي في ديسمبر 1949 في تطوان فدفن في مدينة طنجة الدولية.

لقد بذل محمد احمد بن عبود هذه الجهود الجبارة من أجل فضح الاستعماريين الفرنسي والاسباني على الرغم من يقينه أنه لن يلاقي فيما يتعلق بالاستعمار الاسباني الدعم الكافي من دول المشرق العربية للمصالح المتبادلة بينها و بين اسبانيا إذ كان أمين جامعة الدول العربية نفسه، عبد الرحمان عزام يرى أن " العرب و الإسبان " كالإخوة" حيث أن سياستهم الخارجية كانت متكاملة"¹⁹⁷ معطيا الدليل من خلال كلامه هذا على أن سياسة اسبانيا العربية حققت منذ زمن ليس بالقصير علي حساب فرنسا نجاحا ليس بالقليل.

هذا النجاح يمكن التأريخ ل بداياته منذ فترة السماح للتطوانيين بالهجرة الدراسية إلى المشرق العربي ثم عندما قبل الاسبان، بشروط ، مشاركة بعض الوطنيين في المؤتمر الإسلامي الأول في القدس في ديسمبر سنة 1931:

" الجدير بالإشارة أن الحاج عبد السلام بنونة دخل في مفاوضات مع السلطات الاسبانية بشأن مشاركة أخيه محمد بنونة [في المؤتمر الإسلامي الأول بالقدس سنة 1931] وقد كان ردّ هؤلاء إيجابيا بشرط أن يعمل [محمد بنونة] على تعريف العالم الإسلامي أجمع أن دولة اسبانيا الجمهورية تحترم عقائدكم الدينية وترغب في الاتفاق والوئام معكم وتعمل مجهوداتها تدريجيا لترقية شعبكم حتى يتطور بمهل ويملك رشده " ¹⁹⁸

¹⁹⁷ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره ص 13.

¹⁹⁸ - محمد خرشيش، الأهمية التاريخية لمراسلات الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سلف ذكره ص. 89، هامش 32.

لقد مُكّن امحمد بنونة من هذه المشاركة:

" في ظل الجمهورية سابقا نرى أن موظفا ساميا بالإقامة العامة الاسبانية بتطوان شجع امحمد بنونة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي في القدس المنعقد في دجنبر 1931" ¹⁹⁹ ومنذ هذه السنة ستتوطد العلاقات العربية الأسبانية خاصة بعدما لاحت بوادر انتصار فرانكو على الجمهورية الاسبانية الثانية ذات اللون الاشتراكي المشبوه في نظر القادة العرب :

فـ" مصر أقرّت مع اسبانيا منذ نهاية الحرب الأهلية الأسبانية فتح مفوضية في كل من عاصمتيهما" ²⁰⁰ و" في 12 دجنبر 1946 أوصت الجمعية العامة [للأمم المتحدة] بطرد أسبانيا الفرنكاوية من المؤسسات المختصة بالأمم المتحدة و اقترحت إضافة إلى ذلك أنه إذا لم يتم تشكيل حكومة اسبانية ديمقراطية في أجل معقول فسيقوم مجلس الأمن بدراسة القرارات الواجب اتخاذها لمعالجة هذا الأمر. في النهاية أوصت الدول الأعضاء بطلب عودة سفرائها و وزارائها المفوضين من مدريد فورا. وتجدر الإشارة أن الدول العربية الممثلة في هيئة الأمم المتحدة امتنعت عن التصويت إلى هذه التوصيات" ²⁰¹

ولقد كان لموقف أسبانيا الفرنكاوية من الصهيونية سنة 1947 وبعد قيام دولة إسرائيل الأثر الحاسم في سياسة العرب إزاء أسبانيا فـ" في سنوات 1947-1950 هناك عدد

¹⁹⁹ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره ص 111.

²⁰⁰ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره ص 111.

²⁰¹ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة بالمنطقة الشمالية وإسبانيا والمشرق العربي 1947-1952 ضمن تطوان في عهد الحماية، مرجع سبق ذكره ص 114.

من الدول العربية ومن بينها مصر ولبنان والأردن والعراق وسوريا والعربية السعودية إضافة إلى دولتين إسلاميتين هما تركيا وباكستان فتحت أو رقت مستوى علاقاتها الرسمية مع اسبانيا²⁰² فهل يستغرب المرء بعد ذلك أن يفسّر بعض الساسة العرب موقف جامعة الدول العربية المهادن لاسبانيا الفرنكاوية بأنه نابع خشية الجامعة العربية من أن تضم فرنسا إليها المغرب الخليفي إن قرر فرانكو منحه "حكما ذاتيا":

" في محادثة دارت بين رئيس الحكومة اللبنانية رياض الصالح والوزير الاسباني المفوض في لبنان تيودوري رويث دي كويفس Ruiz de Cuevas Teodori

في مارس 1948 لاحظ رجل الدولة اللبناني حينئذ علي الدبلوماسي الاسباني أن الجامعة العربية امتنعت على طرح قضية استقلال المغرب الخليفي مع اسبانيا لأن تخليها عن هذا الأخير من جهتها بموجب معاهدة 1912 سينتج عنه احتلاله من طرف فرنسا"²⁰³

والحقيقة أن التقارب العربي الاسباني ليس مرده فحسب إلى ما ذكرنا من موقف اسباني من إسرائيل ولكن كذلك إلى تلاقي الطرفين حول قضية

إيديولوجية هي معاداة المعسكر الاشتراكي زمن الحرب الباردة فـ" زيارة العاهل الهاشمي [عبد الله] لاسبانيا التي استمرت من 5 إلى 18 سبتمبر 1949 تميزت بعناية خاصة وكانت الغبطة أحيانا شاملة. وعقب نهاية زيارته صدر بلاغ مشترك [مما جاء فيه] :

²⁰² - عبد المجيد بن جلون ، الوطنيون المغاربة، مرجع سبق ذكره ص 111.

²⁰³ - عبد المجيد بن جلون ، الوطنيون المغاربة ، مرجع سبق ذكره ص 111.

" إن الوضعية الدولية المرتبطة بالشرق الأوسط التهديد الشيوعي السوفييتي تم تدارسها بصفة شمولية. وقد أعرب العاهل الهاشمي عن ارتياحه طيلة مباحثاته الودية وعن النية الحسنة التي تطبع السياسة المتوخاة من سلوك اسبانيا في المغرب. وإن المباحثات دارت حول الوضعية الحقيقية للقدس والأماكن المقدسة وكذلك حول مستقبل العلاقات بين اسبانيا والعالم العربي والأمم الإسلامية" ²⁰⁴

هذا التلاقي الإيديولوجي هو الذي يفسر توقيع اسبانيا مع لبنان بعض الاتفاقيات الثقافية في 7 مارس 1949" ²⁰⁵ ، مثلما يفسر الزيارة التي قام بها " طه حسين وزير المعارف آنذاك إلى اسبانيا في نوفمبر 1949

و دشن(...) بمديرد في 11 نوفمبر معهد فاروق للبحوث الإسلامية" ²⁰⁶
وقد نذهب إلي حد القول إن محمد أحمد بن عبود عنون كتابه وهو ممثل

ال خليفة في الجامعة العربية ب " مركز الأجانب في مراكش " (لا في تطوان)مجاراة لهذا التيار العربي المتعاطف مع اسبانيا الفرنكاوية أي الذي لا يميل في تلك الفترة إلى التركيز على الاحتلال الاسباني.

²⁰⁴ - عبد المجيد بن جلون ، الوطنيون المغاربة، مرجع سبق ذكره ص 112.

²⁰⁵ - عبد المجيد بن جلون ، الوطنيون المغاربة ، مرجع سبق ذكره ، ص 120 ، هامش 14.

²⁰⁶ - عبد المجيد بن جلون، الوطنيون المغاربة ، مرجع سبق ذكره ، ص 120 ، هامش 14



الشهيد محمد أحمد بن عبد صبحي الزعيم الوطني الهندي جواهر لال. جاء التعليق التالي على ظهر الصورة
يقدم الشهيد ابن عبد «لال» بنوداً ومن يمينه سليم بك أبو عر الذين استشار في القضية اللبنانية ومن يساره
مفتي الهند ١٩٤٨-١٩٤٩



مجموعة من المثقفين السياسيين للعارية والصنوبر منهم الشهيد محمد بن عبد وعلى يمينه عميد الأدب العربي
الدكتور طه حسين ثم الأستاذ العثماني وكيل وزارة المعارف والتعليم المصرية والملك إدريس الأول البوسني
والأستاذ محمد عبد السلام بن عبد والأستاذ محمد القاضي الخلفاوي الطولي

الفصل الثاني:

صدى نشاط الثالوث السياسي و الفكري من خلال مختارات من كلمات التأبين

كانت نيتنا و نحن نفكر في تخصيص هذا الفصل لصدى موت الثالوث المغربي أن نعود على الأقل إلى صدى هذا الحدث في الصحافة المغربية أولا و العربية و الإسلامية ثانيا إذ فكرنا في صحف ليبية مثل الأخبار

و طرابلس العرب و برقة الجديدة و جزائرية مثل البصائر و الشعلة
و الوطن و مراكشية مثل الأنوار و السعادة و الشهاب و العلم و الرأي العام و
مشرقية مثل بغداد و الزمان و سومر (في العراق) و المقتطف
و الهلال و المصور و مجلة العالم العربي و لواء الإسلام و رسالة الإسلام و
الرابطة العربية (في مصر).

و قد قضينا الصيف الماضي في المكتبة الوطنية و في مكتبة الأرشيف الوطني من
دون أن نخرج بشيء يذكر مما كنا نفكر فيه. فالصحف الليبية و الجزائرية و
المراكشية و المصرية و العراقية التي ذكرنا أسماءها تكاد تكون مفقودة تماما و ما
يوجد منها لا يتجاوز أعداد ضئيلة و حتى في هذه الحالة فبعضها مهترئ يُمنع
تصويره.

إن هذا الواقع هو الذي يفسر تقسيم الفصل إلى قسمين : قسم فيه تقديم لبعض ما
ورد في هذه الصحف و قسم ثان اقتصرنا فيه على تصوير المقالات التأيينية و
إثباتها لأن في ذلك إفادة تفوق تلخيصها لتعدد الشخصيات المتدخلة و الوضع النفسي
الذي كانت عليه هذه الشخصيات عندما وقع عليها خبر موت الثلاثي.

هذه الصحف أغلبها تونسية و هي قد تفيد من يطلع على هذا البحث من غير
التونسيين و أقلها غير تونسية: "منبر الشعب مراكشية" و "المصور" مصرية.
وقد نظم عبد المجيد بن جلون بهذه المناسبة رثائية نشرها مكتب المغرب العربي
هذه بعض أبياتها:

د اليوم بتنا نفقد الأحرار	"...بالجهاد! أعندما كثر العبيد
كانوا مثالا يحتذى و منارا	إننا فقدنا في الطليعة قادة
فبلادهم تبكيهم إكبارا	عاشوا و ماتوا في سبيل بلادهم
فمصيبرها أن تضمحلّ بوارا	و إذا البلاد استهونت بحماتها

و نظم الشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير مرثية نشرها مكتب المغرب العربي من أبياتها :

رزء شأى في هوله الأرزاء	نكب العروبة أمة و لواء
ما من فؤاد بالعروبة نابض	إلا تقطع حسرة و بكاء
يبكي ثلاثة فتية من خيرها	و طنية و حماسة و إباء
المغرب العربي أنجبهم لها	و لطالما أهدى لها النجباء

....من كابن عبود بشاشة طلعة	و النائبات تبلبل الحلماء
تلقاه مثل الطفل طيب سريرة	و هو الذي فاق الكهول دهاء
تبكي به مراكش علما لها	كادت تطول برأسه الجوزاء
أو من كحمّاميهم قلما إذا	نفث المدى جلّى به الظلماء
حمل السلاح مع (الأمير) على العدا	قُدما و أبلى في الجهاد بلاء
تبكي الجزائر منه حادي أمة	فقد أغذب ما يكون حذاء

أو من كثامرهم خلوص طوية	و سـمـاحة بين الورى و حياء
ساع يرى العمل الدؤوب	متاعه و يرى الجهاد عقيدة و فداء
أودى بتونس من عظيم فعالة	ما فات في أحزانها الخنساء

مقالات صحفية تأبينية

الحرية التونسية (25 ديسمبر 1949)

" لقد كان هؤلاء الثلاثة يمثلون الصفوة المختارة من العاملين المضحيين فحكم على الدكتور ثامر من تونس بالإعدام و نفي الأستاذ الحمّامي الجزائري و الأستاذ محمد بن عبود المراكشي...و لكن ذلك الاضطهاد لم يزددهم إلا إيماناً و ثباتاً فلجؤوا إلى مصر و اتخذوا منها، وهي موطن كل عربي مكافح، مركزاً لمتابعة جهادهم و

كفاحهم حتى كانت آخر مرحلة²⁰⁷ في سجل نشاطهم الضخم تلك الرحلة إلى المؤتمر الإسلامي الاقتصادي في كراتشي"

و نقلت الحرية عن المقطم بتاريخ 25 ديسمبر 1949 ما يلي :

"نبتت فكرة عقد المؤتمر الاقتصادي في كراتشي في رأس السيد غلام محمد وزير مالية الباكستان و دعا الدول الإسلامية إلى الإشتراك في هذا المؤتمر. و كان في طليعة تلك الدول دول شمال إفريقيا التي ما برحت عاصية على الاستعمار فأوفدت وفدا برئاسة الأستاذ الحمامي ليشارك في أعمال هذا المؤتمر. و لما وصل الوفد إلى مراكش فوجئ بالمفوضية الفرنسية تنشر في الصحف بيانا بأن هذا الوفد لا يمثل أهل المغرب العربي و أن المغاربة لم يخولوا أحدا التحدث باسمهم و أخذت السلطات الفرنسية تعاكس الوفد بكل طريقة ممكنة. فلم يكن من المجاهد المرحوم السيد محمد بن عبود إلا أن أذاع بيانا قال فيه : " إنني مراكشي و إنني مسلم و إنني أمثل بلادي في الجامعة العربية. و عندي خطاب من سعادة عزام باشا يقول فيه إنني ناطق رسمي بلسان أهل المغرب فهل يحق لأحد بعد ذلك أن ينازعني هذا الحق". كأنما كتب عليه أن يجاهد ضد المستعمر حتى في مؤتمر اقتصادي يعقد في مدينة نائية من مدن العالم(...) و مما يذكر للسيد عبود أنه كان رجلا حبيبا إلى النفس دمث الأخلاق وديعا عفيف اللفظ حلو المعشر رقيق الحاشية سمحا كريما أبيا مخلصا ودودا.

أما الدكتور ثامر فهو مجاهد تونسي كريم النفس أصدر من نحو عام كتابا بعنوان "هذه تونس" بسط فيه القضية بسطا جميلا و دافع فيه عنها (...) أما الأستاذ علي الحمامي الجزائري فقد قضى معظم عمره في المنفى و أمضى بضعة سنين في

²⁰⁷ - مات في حادث الطائرة إضافة إلى الثلاثي المغربي شفيق الخطيب مندوب مصر و فائز الدالاتي مندوب سوريا ممّا سيزيد من

تمتين العلاقات بين السوريين و مدير مكتب المغرب العربي بدمشق يوسف الرويسي.

العراق و هو أديب ممتاز و له قصة مطولة باللغة الفرنسية عنوانها "إدريس" نالت إعجاب جميع من طالعوها.

و قد عقد عنها سعادة الأستاذ الكبير محمود تيمور بك فصلا في إحدى الصحف الأدبية رفع فيها القصة و مؤلفها إلى العلى و هما أهلا للرفعة فعلا.

و المقطم ينتهز هذه السانحة الأليمة فيرفع إلى سمو الأمير الجليل عبد الكريم الخطابي بطل الريف و أمير المغرب²⁰⁸ و إلى شقيقه الأمير محمد و إلى سائر الكرام المجاهدين في مكتب المغرب العربي²⁰⁹ آيات العزاء في هذا الحادث الجلل و الرزء الجسيم و إنها لمحنة ألمّت بالعروبة في أقطاب عاملين

من يقرأ تأبين المقطم يحسّ بأن مركز الثقل في النشاط السياسي المغربي في المهجر المصري هو الخط الخطابي الذي يعدّ ثامر ممثله على المستوى التونسي فهذا التونسي محمد الصالح جراد يكتب في الحرية التونسية في العدد سالف الذكر في لغة شبه صوفية في وصف إنتماء ثامر السياسي:

" من أنت يا من بكاك الشرق الذي أنت ذاته . من أنت يا من ضاق عن جولانك ميدان بلادك فاجتزتها إلى الميادين الأوروبية ثم الجامعة العربية حيث وحدت كلمة الأمة المغربية و أثبت نفسك الكريمة إلا أن تطلب ما هو أوسع فرميت بنفسك في ميدان الجامعة الإسلامية التي أصبحت من حجرها الأساسي (...) من أنت يا من تجرّد اسمك من كلّ لقب؟ لكنك أنت الحبيب ثامر و كفى"

²⁰⁸ - ألا تؤكد هذه الصفة (1949) ما ذكرناه من التنافس السياسي بين المنطقتين مغرب الشمال و مغرب الجنوب السلطاني (محمد بن يوسف و حزب الاستقلال) ؟

²⁰⁹ - الذي غادره الشق البورقيبي (قطرية منه) من دون أن يستنكف من استغلال سمعة ثامر في الباكستان إثر موته فيبعث ببعض من طردهم ثامر من مكتب المغرب العربي لتمثيله في الباكستان و أندونيسيا (الرشيد إدريس و الطيب سليم) مما يعني أنه لو لم يكن ثامر في المهجر المصري بين 1946 و 1949 لما كان للشق البورقيبي في الحزب الدستوري الجديد شأن يذكر في المشرق العربي .

[illegible]

المجلد الثاني
العدد - 126
شعبة دوم
الجامعة
طريق الأولى 1009
الرياض 1006

حركة الواحدة المغربية، الاستقلالية

ترفع تعازيها الخالصة في شهداء المغرب

وجه حضرة الأستاذ المجاهد الكبير سيدي محمد المصطفى الناصري باسمه واسم حركة الوحدة المغربية الاستقلالية تعازيه الخالصة الى سمو الخليفة المعظم الامير مولاي الحسن بن المهدي بقاء الله والى عائلة المرحوم الاستاذ سيدي محمد بن عبود بتطوان، كما وجه التعزية الى حضرة الاستاذ المجاهد الكبير السيد الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الحر الدستوري الجديد بتونس، والى جبهة الدفاع عن شمال افريقيا ومكتب المغرب العربي بالقاهرة، وطلب من الله تعالى ان يرزق جميع العاملين الصبر والسنوات على فقد رفقاتهم في الكفاح الوطني المقدس، والى الامام، وفاء بشهدائنا البررة الكرام في سبيل الوطن والسلام !

العاصمة الخليفة تقيم صلاة الغائب

على ارواح شهدائنا الابرار

تطوان - بمجرد ما علم سكان العاصمة التطوانية بالحادثة المؤلمة التي اودت بحياة ثلاثة اشخاص مختارين من العناصر المجدة العاملة لقضية المغرب العربي، وعلموا انه كان يوجد من بينهم الاستاذ محمد بن عبود ممثل سمو الخليفة المعظم في اللجنة الثقافية بالجامعة العربية، انفقوا ان يقيموا صلاة الغائب في المسجد الاعظم، وفعلوا حضر للصلاة على شهدائنا الابرار جمهور فقير من كافة الطبقات، وكان المشهد جد رهيب يتناسب مع جلال الحادثة ورهبتها

العاصمة التونسية تعلن الحداد

على مصاب المغرب الاليم

تونس - عندما تأكد الجمهور التونسي في هذه العاصمة من وجود الاستاذ الحبيب تامر ممثل الحزب الدستوري في القاهرة بين ضحايا الحادثة المؤلمة الكبرى وافقوا الدكاكين والمقاهي ابوابها اعلانا للحداد على هذا المصاب الاليم

معرض كراتشي يقفل ابوابه يومين كاملين

كراتشي - احتراماً لذكرى الشهداء الذين ذهبوا ضحية الطائر المحطمة الخلق المعرض الصناعي الاسلامي في هذه العاصمة ابوابه لمدة يومين

٦ - أحداث في انتظار حدث "شبه"

ولما كان اليوم يوم الجمعة، الساعة العشرية بالباكستان

.. والزعمان سعدت بحالتها ..
الأسف والحزن ..
القوم يمضونه .. لم انقطع

وحانت الساعة الواحدة - الطير الباكستاني بعانقه ،
وعلى الوقت المحدد لوصول الطائرة - دون أن تسبح في البحر ..
وعلى نصف ساعة ، شقيق الطير وحنت طيبة ،
والقليل يسرى في النفوس ..
وعندما قامت الساعة الثانية ، لم تقبها حروق ، وإن لم تنج
من بعض شدوني .. وكذلك كانت حنتا ومياهه ، بن عبود ،
و.. الحماشي ، .. أما حنة ..
اشفاقا من اللقاء الأليم ..
ولكن الطائرة لم تكن تقل حنت ..
الشهداء ، وأما ألفت الاستاذ ..
الحسين بك الحماشي - مستشار حلقا

الباكستانية التي تغسل حنت
الشهداء ، شقيق الطير ،
و.. محمد بن عبود ، و.. عمل الحماشي ..
وتقدم القوم حسن محرم بك
نائباً عن رئيس الوزراء ،
الرحمن عزام باشا أمين الجامعة
العربية ، والسيد عبد الستار
سين سفير الباكستان في
مصر ، والأمير محمد الحماشي ،
شقيق الأمير عبد الكريم الذي
عدت الصدمة كيانه ، فلم يبق
على الحضور ..

كان لحادث الطائرة
الباكستانية التي سقطت بعض
مثل الدول الإسلامية لدى
المؤتمر الاقتصادي في كراتشي ،
وقع الهم في العالم الإسلامي
بأكمله .. وقد وفدت على مصر
ثلاث من جثث الشهداء ، فكان
مندوب الحضور ، وعبدستين
مستقبلها

كان المطار يرخر - بعد ظهر
السبت الماضي - برجال مصر
والباكستان والمغرب العربي ،
في انتظار الطائرة الحربية

- لقد عاش هذا الشاب
جديداً مجهولاً .. ومات جديداً
مجهولاً أيضاً ..
لم يطر برؤى ذكره
جهاده ، وكيف كان يتألم هذا
الشهر للقاء خطيبته التي ظلت
تنتظره خمس سنوات ، وبعثاً
تنتهي المرحلة الأولى من كفاحه
وقبل أن الطائرة التي تقل
الجنث تستقل في الساعة
الثالث ، نظرا للظروف الجوية
.. ولكنها لم تصل إلا بعد ذلك
بوقت طويل .. وما أن غبطت
الطائرة أميرا ، وفتح بابها ،
لمست توابيت الجنث الثلاث ،
حتى تعالى البكاء والنحيب ..
وصعد الحماشي الطير بك ،
والامير محمد الحماشي لاستلام
الجنث .. وبدأ منظر السفير

الباكستاني مؤثرا وهو يحنو
على الجنث باكيا .. وفجئت
القلوب حين تقدم شاب مصري
بقبل التابوت الحماشي وقد تعال
لتسبحة وهو يقول :
- لقد خير العرب إبلاها
ثم وقف حسن محرم بك لحنبا
باسم الحكومة الجنث الثلاث ،
التي نقلت على عربات ، وقد
اصطفت لتجبتها فرقة من
البوليس ..
وقد وفدت جنه الرحوم
شقيق الطير ، تحت دابل من
الطير ، يوم الأحد الماضي ، أما
جنتا ، بن عبود ، و.. الحماشي ،
فقد حفظنا في وزارة الصحة ،
رئيسا تتخذ الإجراءات لنقلها
إلى الجزائر والمراكش ،
لتسليمها رسميا ..

القسم الثالث : ثامر و الحمامي و ابن عبود في
مؤلفاتهم

الفصل الأول:
هذه تونس ،دراسة تحليلية



ج ۴۰۴۳۶



اکثر الزبیدی جلیبر

مختارہ تفہیم

مختارہ مکتبہ

المکتبہ المکتبہ



يقع كتاب الحبيب ثامر "هذه تونس"²¹⁰ في مائة و تسعين صفحة إثنان وعشرون منها خصصت لتقديم الكتاب و مراجعته و تحقيقه. أما الصفحات 23 – 198 فهي من تأليف ثامر و قد قسمها إلى مقدمة في ثلاث صفحات و إلى إثني عشر فصلا (145 ص.) في حين خصص إثنتي عشرة صفحة للخاتمة و الملاحق و المصادر و المراجع.

هذه الفصول الإثنا عشر هي التالية :

الفصل الأول: جغرافية تونس (9 ص.)

الفصل الثاني: عصور تونس التاريخية (22 ص.)

الفصل الثالث: الحماية الفرنسية (9 ص.)

الفصل الرابع: النظام الدستوري (12 ص.)

الفصل الخامس: السياسة الاقتصادية و المالية (20 ص.)

الفصل السادس: التعليم (8 ص.)

الفصل السابع: الصحة و الإسعاف العام (6 ص.)

الفصل الثامن: الإدارة و الوظائف العامة (6 ص.)

الفصل التاسع: نظام القضاء (5 ص.)

الفصل العاشر: الحريات العامة (5 ص.)

الفصل الحادي عشر : سياسة التجنيس (4 ص.)

²¹⁰ - الحبيب ثامر، هذه تونس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط.1 ، 1988.

الفصل الثاني عشر: الحركة الوطنية (39 ص.)

إن الفصلين الأول و الثاني (30ص.) بلغا حدًا من الاقتضاب يدفعنا إلى القول إن القصد من التأليف هو تعريف القارئ المشرقي بواحد من بلدان المغرب العربي لا يعرف عنه شيئًا تقريبًا وهذا القصد من التأليف هو نفسه الذي سيدفع ، مثلما سنرى ذلك في الفصل الثالث من هذا القسم ، التطواني محمد بن عبود إلى كتابة "مركز الأجانب في مراكش" و هو أمر يفسّر إلى حدّ كبير خلو الكتابين من كل بعد فكري فلسفي على عكس رواية "إدريس" لعلي الحمامي التي تحكمها نظرة شاملة و عميقة إلى الأشياء.

على أن ما يضيق به القارئ و هو يتصفح "هذه تونس" هو إضفاء صفة الفصل على وجوه من ظاهرة واحدة هي الاستعمار فما الذي يمكن للمرء أن يأمل من الاستعمار على مستوى السياسة الاقتصادية و التعليم والصحة و الإسعاف إلخ؟ و لذلك كان يمكن لنا أن ندمج الفصول التسعة (من الثالث إلى الحادي عشر) في كلّ واحد (75 ص.) ليخصص الفصل الأخير للحركة الوطنية (39 ص.)

إننا لا نقصد من هذا النقد التقليل من قيمة كتاب "هذه تونس" لأن الغرض من تأليفه (تماما مثل كتاب مركز الأجانب في مراكش لمحمد بن عبود هو غرض تعريفى و لكننا نقصد منه أننا لن نسلّك مسلك ثامر في تناول الموضوع لأن غاية هذا البحث ليست غايته إذ تهدف إلى بيان تفكيره السياسي و لذلك سنعمد هنا مثلما سنفعل مع محمد أحمد بن عبود إلى إعادة تقسيم الكتاب حتى يخضع لما نبتغي منه و بذلك يقع التركيز على المحاور الثلاثة التالية:

عصور تونس التاريخية و الحماية الفرنسية و أخيرا الحركة الوطنية

فكيف تناول ثامر إذن "عصور تونس التاريخية" أي ما هي نظرتة إلى التاريخ التونسي خاصة و المغربي عامة و هو التونسي الآخذ بالفكرة المغربية ؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نقدم فكرة عن نظرة علي الحمامي الذي سنتناول روايته بالدراسة في الفصل اللاحق إلى التاريخ المغربي حتى نتمكن من المقارنة بين النظرتين.

يرى الحمامي أن التاريخ المغربي يتوزع على فترات ثلاث :الفترة الأولى تمتد من أقدم العصور المعروفة إلى الفتح العربي و البربر والجبليون منهم خاصة هم العمود الفقري لهذا التاريخ فليس يمكن عندئذ الحديث عن مغرب و إنما عن بلاد البربر Berberie أما الفترة الثانية فهي تمتد من القرن السابع الميلادي إلى القرن الثاني عشر أي عندما تحققت الوحدة المغربية على أيدي الموحدين. و هذه الفترة تتميز بتمكن الجنس البربري من "هضم" العرب الفاتحين مما نتج عنه ظهور جنس جديد هو الجنس المغربي فلم يعد بذلك من الممكن لغير الفرنسيين الحديث عن بلاد البربر و إنما عن بلاد المغرب التي ظهرت فيها حضارة متميزة أعمدها الدينية و السياسية و الفكرية الثلاثي المهدي بن تومرت و عبد المؤمن بن علي و ابن رشد أما الفترة الثالثة فهي الفترة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى اليوم و هي فترة انحسار حضاري إذ خلفت الدولة الموحدية بناتها الثلاث الدولة المرينية في مراكش و الزيانية في الجزائر و الحفصية في تونس.و ليس بإمكان المغرب أن يعود إليه ألقه الفكري و تحرره السياسي إلا باعتماد اتحاد الدولة الأم ، الدولة الموحدية ، مرجعا فكل تضخيم من أدوار الدول البنات المرينية ، الزيانية و الحفصية إنما هو تأكيد للانقسام لأن هذه الممالك في نظره ، شبيهة بممالك "الطوائف" في الأندلس التي كان مصيرها أن ابتلعها الدولة المسيحية الاسبانية في نهاية القرن الخامس عشر بسقوط غرناطة سنة 1492.عندما يقرأ المرء كتاب الحبيب ثامر "هذه تونس" يلاحظ لأول

وهلة أن النظرة التاريخية التي تحكمه هي نقيض نظرة علي الحمامي و ذلك في ثلاث نقاط أساسية:

أولها النظرة إلى البربر، مادة التاريخ في المنطقة المغربية فبقدر ما تغنى الحمامي بصفات هذا الجنس و خاصة في وجهه الجبلي الصافي نرى ثامر يصفه بمثل الصفات التي درج المؤرخون الغربيون على وصفه بها أي باعتباره دائما "سيية" تميل إلى التمرد في وجه كل سلطة إذا ما أحست فيها ضعفا :

"كانت سيطرة الرومان على البلاد [تونس] عسكرية و اقتصادية، و مع ذلك فقد ازدهرت حضارتهم في البلاد و بلغت أوجها بين بقية ممتلكاتهم و أخذ البربر بأسباب هذه الحضارة و ساهموا في ازدهارها ، ووصل بعضهم إلى أعلى الرتب و الوظائف في الدولة الرومانية.إلا أن بعض القبائل البربرية لم تقبل على هذه الحضارة و بقيت محافظة على شعائرها و لغتها ، و تحصنت في الجبال و صارت تتربص الفرص للانتفاض على السلطة الرومانية"²¹¹

إن واحدا مثل علي الحمامي يرى أن البربري القديم الذي ثار في وجه الروماني القديم إنما هو علي الحمامي نفسه الذي رفض في القرن العشرين الاحتلال الفرنسي فلا مجال للحديث عن "تربص" و عما توحى به هذه العبارة إذا كان الأمر يتعلق بالحفاظ على مقومات الأمة أي "محافظة البربر على شعائهم و لغتهم " بغض النظر عن الجدل حول قيمة هذه الشعائر و هذه اللغة " اللتين يختلف في الحكم عليهما من ليسوا من البربر ، أي من يقفون منهما موقفا "خارجيا " أي غير وطني.

و لا يكفي أن يكون بعض البربر قد وصلوا إلى "أعلى الرتب و الوظائف في الدولة الرومانية" لأن عددا من المغاربة قد وصلوا مثلا في عهد الاحتلال الفرنسي إلى

²¹¹ - الحبيب ثامر، مصدر سلف ذكره ،ص.38.

وظائف مماثلة (القياد، و أعضاء المجلس الكبير...) ثم لمَ هذا الحديث التعميمي عن البربر "أخذ البربر بأسباب هذه الحضارة (...). إلا أن بعض القبائل البربرية لم تقبل على هذه الحضارة و بقيت محافظة على شعائرها و لغتها و تحصّنت في الجبال؟"

ألا يذكرنا هذا الموقف الأقلي المحافظ عند بعض البربر بمقاومي الاستعمار من المحافظين المغاربة سواء أكانوا ينتمون إلى الجمعيات الإسلامية أم المغربية و منهم ثامر نفسه الذي ناصب الحلفاء العداء.

و يؤكد ثامر على السمة "الفوضوية" للبربر في العصر ما بعد الروماني : "و أسس الوندال بإفريقية مملكة مستقلة دامت نحو المائة سنة ، و كان احتلالهم للبلاد احتلالا عسكريا ، و قد احتفظوا بنظام الإدارة الرومانية ، و قضوا على الاستعمار الروماني للأراضي ، فاستمالوا بذلك البربر و تعاونوا معهم و أشركوهم في الغزوات التي شنوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط. و لما ضعف سلطان الوندال خرج جزء كبير من بلاد البربر عن طاعتهم و لم يبق بأيديهم سوى شمال بلاد إفريقية (تونس)²¹²

ما هي الصورة التي يمكن للمرء أن يكونها عن البربر بعد قراءة هذا الشاهد ؟

إن الوندال "استمالوا بذلك البربر و تعاونوا معهم و أشركوهم في الغزوات (...). و لما ضعف سلطان الوندال خرج جزء كبير من بلاد البربر عن طاعتهم الوندال في الشاهد سلخوا سياسة كان يجب أن تقود منطقيا إلى اندماج العنصرين الوندالي و البربري و لكن البربر قابلوهم بالتمرد عليهم عندما أحسوا منهم ضعفا.

إن علي الحامي يفسر مثل هذا " الانقلاب " البربري بأمرين : أولهما أن التأثير اللاتيني و الوندالي لم يكن عاما بل كان في الجيوب المدنية من دون العمق البربري الشمال إفريقي و ثانيهما غياب التماثل بين الذهنيّتين "الغربية" و البربرية

²¹² -الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص.39.

فَيَجْلَى عن البربر صفة "الخداع و المكر و الغدر" وَيُبْقَى للوافدين على المغرب صفة "الغزاة" أما ثامر فلا يبلغ هذا المستوى التاريخي الفلسفي في التعامل مع مثل هذه القضايا.

و هناك أمر خطير يفسر هذا النحو الثامري في التفكير : فمن يتمتعن في ما كتب يحسّ انه أميل إلى فصل تاريخ تونس منذ القديم عن تاريخ بقية المغرب بدليل ما جاء في الشاهد المتقدم : فالذين خرجوا عن الوندال من البربر هم من يُسمّون اليوم بالجزائريين و المراكشيين إذ " لم يبق بأيدي الوندال سوى (...) تونس "

إنه لا أحد يذهب إلى ان بلاد المغرب لا تتميز مناطقها بخصوصيات فتونس (قرطاج) كانت لموقعها تتميز مثلا عن مراكش و لكن التضخيم من هذه الخصائص التي توجد بين قرطاج و الكاف في تونس مثلا لا يخدم بأية حال من الأحوال فكرة تأسيس تاريخ مغربي موحد و حتى ثامر و هو يكتب "هذه تونس" لا يتمكن لا شعوريا من هذا الفصل إذ نراه ينتقل دائما من الكل إلى الحديث عن الجزء:

" و لما ضعف سلطان الوندال [على شمال إفريقيا] خرج جزء كبير من بلاد البربر [الشمال إفريقيين في الجزائر و المغرب] و لم يبق بأيديهم سوى شمال بلاد إفريقية (تونس) "

إن وضع ثامر هنا شبيه بهذا الطبيب الذي فصل من جسم إنسان عضوا صغيرا أو كبيرا و حاول استجابة لطلب قدم إليه (الغرض من التأليف) أن يبحث عن خصائص هذا العضو التي هي خصائص الجسد كله سواء أكان رأسا أو إصبعًا صغيرا و إلا فما معنى أن يتحدث ثامر عن "تونس" منذ أقدم العصور؟ هل كان لتونس تاريخ خاص قبل قيام "الدولة" الحفصية و للجزائر تاريخ خاص قبل قيام "الدولة الزيانية" و لمراكش تاريخ خاص قبل قيام "الدولة المرينية"؟

و إذا صحّ هذا فكيف سنتعامل مع مفكرين أمثال ابن تومرت و ابن رشد و ابن خلدون ؟ هل سنعتقد ندوات في كل بلد من بلدان المغرب الغاية منها بيان انتماء كل واحد من هؤلاء إلى هذا البلد أو ذاك و الحال أننا بإزاء مغاربة مسلمين عاشوا في زمن لم يظهر فيه مصطلح الوطن لأن هذا المصطلح رأسمالي تفوح منه رائحة الجمارك؟

إن النظرة الثامرية الكرونولوجية إلى تاريخ الشمال الإفريقي أفقدت تاريخه العمود الفقري في هذا التاريخ : فالدولة الموحدية التي اتخذ منها الحمامي مفصلا أساسيا في التاريخ المغربي يمكنه من الحديث عما قبل الدولة الموحدية و ما بعدها استقلالا بتاريخ المغرب عن تاريخ المشرق، هذه الدولة لم يخصص لها ثامر غير عشرة...أسطر في حين خصص لإحدى بناتها ، الدولة الحفصية صفحتين و ربع الصفحة و هذه الأسطر العشرة نفسها كتبت بلغة باردة تذكر بمهنة الطب العام التي امتهنها ثامر :

"استجد الملك الحسن بن علي الصنهاجي بعبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية في المغرب الأقصى لإنقاذ إفريقية من أيدي الإفرنج، وكان عبد المؤمن في ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس فاستجاب عبد المؤمن لاستجداد الصنهاجيين و سار إلى إفريقية محتلا في طريقه المغرب الأوسط ثم اخذ يحتل بلاد إفريقية، و بعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل و طرد منها النورمان.فتم له أمر البلاد سنة 555هـ.[1160م.]

و هكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطاب المغرب العربي الثلاثة ²¹³ و دامت أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخمدوا الثورات العديدة التي كانت تقوم ضدهم بين الحين و الآخر ²¹⁴

لو أردنا أن نجمل القول فيما يتصل بقراءة ثامر للتاريخ المغربي القديم لقلنا أن قضية هذا الكتاب هي أنه محكوم، على أخذ صاحبه بالفكرة المغربية، بمنطق وطني في أزمنة لم تعرف مفهوم الدولة القومية Etat-Nation و لذلك فمن الممكن للمرء أن يعوّض فيه كلمة تونس بكلمة طرابلس الغرب أو الجزائر أو مراكش من دون أن يحصل أي خلل تاريخي يذكر في ترتيب "عصورها التاريخية"

بعد أن نزل ثامر "الدولة الموحدية" منزلة أقل ما يقول عنها إنها ليست منزلة الرمز أو المرجع لم يعد من الممكن ألا يضخم من دور إحدى بناتها و هي فيما يخص تونس ²¹⁵ الدولة الحفصية التي هي ، وراثته، "بربرية" المادة " مغربية " الانتماء و لكن هذه الدولة ليس يمكنها بسبب هذه الوراثة نفسها أن تُقنع بوجود " أمة تونسية" لها " مقوماتها" الخاصة. إن مثل هذه "المقومات" تحتاج إلى قطيعة حقيقية : قطيعة على مستوى المادة الاجتماعية التأسيسية أي على مستوى "الجنس" بالمعنى الديموي للكلمة. هذه القطيعة تمثلت في الدولة الحسينية ذات الأصل غير البربري و التي تقوم على الممالك، الذين ينحدر ثامر نفسه منهم فالقومية التونسية إذن لم تبدأ في النشوء إلا في بداية القرن الثامن عشر، على أساس من تعدد الأجناس يمكن من إدراج من ليسوا من أصول بربرية، أمثال الحبيب بورقيبة الألباني الأصل و الحبيب ثامر و المنجي سليم والطيب سليم ، ضمن خلفاء بناء القومية التونسية و هم الحسينيون: ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر و بخاصة منذ تولي حسين بن

²¹³ -إضافة إلى طرابلس الغرب.

²¹⁴ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص.49.

²¹⁵ - و طرابلس الغرب

علي²¹⁶ الحكم و جعله وراثيا في بيته.و كانت الروابط التي تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على ممر الأيام ، و ضعف سلطان تركيا حتى كاد يكون عديم الوجود.و هكذا ابتدأت تنمو في تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث و ظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها و عقدت معها المعاهدات²¹⁷

يتمثل الاختلاف الأساسي بين علي الحامي و الحبيب ثامر في أن الحامي يربط ربطا وثيقا أي اجتماعيا "عنصريا" بين المادة الاجتماعية (السكان) في المغرب العربي و الدولة الممثلة لهم ممّا يقلل عنده من قيمة المصطلح السياسي "شرعية" أو " اعتراف الدول الأجنبية بأمر واقع " من ناحية مثلما يمنعه من ناحية أخرى من استعمال المصطلح قومية تونسية أو جزائرية أو مراكشية بل يكاد يتحفظ حتى على استعمال مصطلح " وطنية" أما ثامر فيتحدث لا عن "وطنية" تونسية و لكن عن "قومية" تونسية.إنه لم يتمكن من ذلك إلا باستتاده لا إلى المادة الاجتماعية التونسية و لكن إلى السياسة (ميل الحسينيين إلى الاستقلال شيئا فشيئا عن العثمانيين، تشجيع أوروبا الغربية الحسينيين على هذا " الاستقلال ") ولسوف يعيش التونسيون نتيجة هذا الاختيار "السياسي" الذي ستتبناه الجامعة التونسية فتحصر تاريخ البلد في "جاهلية " تنتهي بالدولة الموحدية و في "عهد هداية" يبدأ بالدولة الحفصية و يتكلف باحثون بدراسة منظمة للفترة الممتدة من العهد الحفصي إلى اليوم في حين يبقى أغلب التونسيين في وضع لا يحسدون عليه : إذ سيتساءل ساكن الشمال الغربي عما يفصل حقيقة بينه و بين سكان الشرق الجزائري و سيتساءل ساكن تطاوين أو تطوان إن كان يقرب بينه و بين بعض سكان جهات معينة من الجمهورية أكثر مما يقرب بينه و بين الطرابلسي في ليبيا. وعلى مستوى آخر سوف لن ينتهي الجدل حول

²¹⁶ - حسين بن علي : عيّن أول باي على تونس سنة 1705 و هو مؤسس الدولة الحسينية التي كان آخر حكامها محمد الأمين باي

الذي خلفته الجمهورية التونسية سنة 1957.

²¹⁷ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص55 .

التسميات : أيهما أصح أن يقول المرء الشركة القومية للنقل أم الشركة الوطنية للنقل؟

لقد وضعنا بما فيه الكفاية كيف نظر ثامر إلى "العصور التاريخية التونسية" و مثل هذه النظرة سيكون لها، ما من شك في ذلك تأثير في نظرته إلى "الحماية" من ناحية و إلى " الحركة الوطنية" من ناحية ثانية فيما أنه انطلق على عكس الحمامي الذي كان يرى أن سقوط الدولة الموحدية و قيام " الكيانات الطائفية" أي الدولة الحفصية في تونس الدولة الزيانية في الجزائر و المرينية في مراكش إنما هو بداية عصر الانحطاط لعجز هذه الدويلات عن الصمود إزاء غزو أوروبي حضاري متكامل على الرغم من الحروب الداخلية الأوروبية كلما تعلق الأمر بما هو حضارة إسلامية بما أن ثامر انطلق من أن قيام هذه الدويلات (و(منها الدولة الحفصية) هو بداية "نهضة" قطرية اكتملت في تونس بقيام الدولة الحسينية لم يتمكن من النفاذ إلى حقيقة العلاقة بين الحضارتين الرأسمالية الغربية و الحضارة العربية الإسلامية و هي علاقة بدأت (وهنا لا إجماع عند فلاسفة التاريخ حول الفترة) منذ القرن الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر أو السادس عشر تتميز بتقلص التوازن بين الحضارتين على المستويات الاقتصادية و العلمية بل الابدستمولوجية إذ أصبح المرء يلاحظ ولادة إنسان رأسمالي غربي يواجه إنسانا عربيا مسلما تقليديا أي ما قبل رأسمالي بكل ما يعنيه ذلك من مصير كارثي للإنسان التقليدي إذ لن يمكنه ، حتى إن توحد على المستوى المغربي، أن يقاوم حضارة غربية متفوقة. و إذا كانت هذه المقاومة صعبة حتى في حالة الوحدة المغربية لما ذكرنا من انعدام التوازن الحضاري فكيف يمكنه أن يصمد إزاء الغزوة الأوروبية "قوميا تونسيا"؟

إن هذه النظرة القاصرة هي التي دفعت الحبيب ثامر ، و من قبله الثعالبي في "تونس الشهيدة" إلى أن يعتمد ثنائية فظة : فهناك من ناحية تونس "الحمل الوديع" الذي يسير في اتجاه تقدمي و هناك " الوحش" الفرنسي الذي انقضّ عليها لطبيعة عدوانية فيه

فمنعها من النمو الداخلي. و لو قرأنا الحمامي لرأينا تكراره أن بقية بلاد المغرب قد بدأ احتلالها يوم احتلت الجزائر إذ سيقدر نسق نموّ الأنياب الرأسمالية الفرنسية تاريخ احتلال البلد الواحد منها تلو الآخر إذ ما هو مستوى الحضارة "التونسية" زمن خير الدين باشا مقارنة بمستوى الحضارة الفرنسية زمن نابليون الثالث أو الجمهورية الفرنسية الثالثة على كل المستويات؟ بل هل يمكن مجرد التفكير في عقد مقارنة بين هاتين الحضارتين؟

و لكن ثامر يروق له أن يكتب في تونس قبل الاحتلال:

"أتت فرنسا إلى تونس فوجدت حكومة شرعية رئيسها الأعلى هو الباي و إلى جانبه مجلس وزراء يقوم بالسلطة التنفيذية في البلاد و مجلس تشريعي و هيئة قضاء منظمة .و كان هذا النظام الديمقراطي يقوم على أساس الدستور التونسي الصادر بتاريخ 10 ديسمبر سنة 1858 و يقوم هذا الدستور على أساس الفصل بين السلطات التشريعية و القضائية و التنفيذية و يُخول المجلس التشريعي حقوقا واسعة منها حق خلع الباي إذا خالف نصوص الدستور"²¹⁸

إن تعليقنا على هذا الشاهد من "هذه تونس" هو ببساطة أن هذه "ليست تونس" إذ أن هذه الصفات التي يصف بها ثامر تونس قبل الحماية لا تتصف بها و بهذا الصفاء ، حتى فرنسا في تلك الفترة حتى لا نتحدث عن الأغلبية الساحقة من البلدان الأوروبية الغربية.

و من ناحية أخرى كيف يمكن لبلد يتصف بمثل هذه الصفات أن يكون "مؤهلا" للاستعمار؟ ثم، و هذه نهاية هذه التساؤلات: أي بلد مغربي، يتصف سنة 2006 يمثل هذه الصفات السياسية؟

²¹⁸ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص70 .

قد نفهم أن يكون كتاب "هذه تونس" كتب للقارئ المشرقي حتى يكون صورة ابتدائية عن تونس و لكن إلى أي حدّ يحقّ لكاتبه أن يرسم هذه الصورة الزائفة عن تونس زمن ما قبل الحماية؟

إننا سنرى في الفصل الثالث من هذا القسم محمد أحمد بن عبود يكتب كتابا شبيها بكتاب ثامر في التنديد بالاستعمارين الفرنسي و الاسباني ولكنه و هو يفعل ذلك كاد يجرّم الوضع الداخلي الذي كان السبب الأول في الاستعمار أما ثامر فالأمر لا يصل به إلى حدّ طرح السؤال لماذا وقع الاستعمار في أبعد مستوى له ؟ إنه منطق الثنائية ، ثنائية الأبيض والأسود و ثنائية الأنا و الآخر في حين أنه لا وجود حقيقة لا لأبيض خالص و لا لأسود خالص.

لقد قلنا في بداية هذا الفصل إننا لن نتناول بالتحليل أكثر فصول كتاب "هذه تونس" التي تعدّ مثالب الاستعمار الفرنسي إذ نحن نعرف محتواها من دون قراءتها فالاستعمار ، لا يحل ببلد ليسلك فيه سلوكه في البلد الأم و إلا فقد مبرّر وجوده و لذلك علينا الآن أن نتناول "الحركة الوطنية" على الصورة التي رسمها لها الحبيب ثامر و هي تشغل فصلا واحدا هو الفصل الثاني عشر و الأخير (39 ص.) الذي بناه على المحاور الثلاثة التالية :

ما قبل تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي (1920)

الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934)

الحزب الحر الدستوري الجديد (1934-1948)

إن النشاط السياسي المدني السلمي لم يظهر في الأقطار المغربية إلا بعد أن خفت صوت السلاح الذي واجه به الريف الاحتلال حدث ذلك في مراكش عندما انهزم محمد بن عبد الكريم الخطابي بداية من 1926 مثلما حدث ذلك في الجزائر قبل هذا

التاريخ.و لم تنشذ تونس عن هذا الأمر الطبيعي و إن كانت المقاومة المسلحة فيها قصيرة العمر مقارنة ببقية بلدان المغرب:

"ابتدأت هذه الحركة لـ[الوطنية] بالكفاح المسلح ضد العدوان الفرنسي ، فلما أعيتها الوسائل المادية لجأت إلى الكفاح السياسي بمختلف وسائله، وإن استمرت سلسلة هذا الكفاح متصلة الحلقات منذ أن استسلمت القوات الوطنية المسلحة حتى اليوم"²¹⁹

إن أهم ملاحظة يمكن للمرء أن يبيدها و هو يقرأ الشاهد من ناحية ويتذكر ما سبقه من ناحية ثانية هي حرص الحبيب ثامر على التأكيد على تواصل الحركة الوطنية من دون أي إشارة إلى انقطاع على مستوى المادة الاجتماعية التي ستضطلع بهذا النضال و هو انقطاع يتمثل في انتقال هذا النضال من الريف و الدواخل التونسية إلى المدينة ممثلة في تونس العاصمة و المرسى و بعض مدن الساحل و صفاقس و هذه المدن ستنتج متعلمين و مشهدين أغلبهم من المحامين و الأطباء و المهندسين سيضطلعون بمهمة النضال السياسي و لن تكون علاقاتهم بالبوادي المحرومة سهلة لا زمن النضال ضد الاستعمار الفرنسي و لا بعده.

و نحن نفسر إجلاء ثامر هذا البعد الاجتماعي بتكوينه و نشأته الاجتماعية باعتباره ينتمي إلى هذه الطبقة الاجتماعية المدنية. إن هذا هو ما يفسر بالذات أنه وصف عهد البايات ما قبل الحماية ، و هو العهد الذي شهد في الأرياف التونسية شكوى لا حدود لها بل انتفاضات²²⁰ بأنه كان عهدا "ديقراطيا" فلا يوجد من ضمن الرموز السياسية التونسية ، على عكس الجزائر التي "تمركز" تاريخها النضالي حول عبد القادر الجزائري ، وعلى عكس المغرب الأقصى الذي "يتمركز" تاريخه النضالي حول محمد بن عبد الكريم الخطابي شخصية غير مدنية واحدة تمركز حولها النضال السياسي في تونس و من ثم لم يبق إلا اعتماد خير الدين و من نهجوا نهجه

²¹⁹ -أ. لحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص137 .

²²⁰ -انظر الهادي التيمومي، "الاستعمار الرأسمالي و التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية : الكادحون "الخماسة" في الأرياف التونسية (1861-1943)"، جزآن ، تونس -صفاقس ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، دار محمد علي الحمامي، 1999.

في الإصلاح التعليمي و السياسي المرجع الواحد الأحد. و لا توجد مصطلحات كثيرة فيها من الفضفضة ما في مفهوم الإصلاح: فالكل مصلحون سواء أكانوا من خريجي الزيتونة أم المدرسة الصادقية أم معهد كارنو بغض النظر عن أخذ هذا الإصلاح بنظرة لا تاريخية إلى الأشياء أو بنظرة معاكسة إليها و بغض النظر عن المضمون الاجتماعي للنظرتين معا.



إن هذا هو ما يفسر كذلك فضفضة المصطلح السياسي "الدستور" الذي ما أن تسمّى به جماعة "الخيردنيين" حتى أصبح إطارا فضفضا غطى على انقسامات هذه الجماعة التي تكاد لا تحصى و لا تعد و مع ذلك بقيت التسمية إلى حد اليوم : هذه الفضفضة لم تكن اختيارا سياسيا فحسب بل كانت تعبيرا عن عملية تجميع لتيارات مدنية يكاد لا يربط بين البعض منها و البعض الآخر رابط فكري سياسي على المستوى الفلسفي والنظرة إلى الأشياء و من هنا تكاثر عدد الزعماء قبل تأسيس الحزب الدستوري سنة 1920 و بعده: فهناك خير الدين "أب النهضة التونسية" و هناك البشير صفر "أب النهضة التونسية" كذلك و هناك علي باش حانبة و عبد

العزير الثعالبي و القائمة تطول مما يوحي أنه ليس هناك اختلاف بين هؤلاء الزعماء و ما كان يمكن أن يحصل هذا التعدد لو وقع التاريخ للبلد ،تونس، بالتقليل من دور "رجالات تونس" و إيلاء بقية الطبقات والجهات ما تستحق من أهمية إذ ماذا تعني عبارات "رجالات تونس"²²¹ إن لم تكن تعني رجالات العاصمة و بعض المدن الساحلية و صفاقس؟ و مرور هؤلاء من طور نضالي إلى طور آخر يفرضه تطور الاحتلال ذاته لا يكون دائما ، تماما مثل مرور الرجل بأطوار الولادة و الطفولة والشباب و الكهولة ، مرورا سلسا و غير عاصف مثلما حرص الحبيب ثامر على التأكيد عليه مناقضا بذلك الطبيعة ذاتها فهو يعتبر تأسيس الحزب الدستوري امتدادا لحركة للشباب التونسي أو تونس الفتاة ويصورّ هذا الحزب على النحو التالي:" انتشرت حركة الحزب انتشارا سريعا في سائر أنحاء القطر التونسي و صارت لها فروع في كافة المدن، وأصبحت قوة شعبية تحسب لها السلطة الفرنسية ألف حساب و لاقت الحركة الوطنية تأييدا من القصر نفسه و كان للأمير محمد المنصف²²² دور كبير في تكوين هذا الاتجاه الذي اتخذته القصر فأنعم سموه إلى

²²¹ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص137 .

²²² - محمد المنصف باي(1881-1948) ملك تونس (جوان 1942-ماي 1943) تعلم في الصادقية ، ما إن اعتلى العرش حتى أصبح رمز السيادة التونسية و لسان حال الشعب التونسي، منذ حوادث 9 أفريل 1938 ساعد الحزب الدستوري الجديد على استعادة نشاطه بقيادة الدكتور الحبيب ثامر و أقدم على اتخاذ إجراءات سياسية جريئة منها تكوين وزارة محمد شنيق (1943) و تحقيق المساواة بين الموظفين...و قد أثارت هذه الإجراءات غضب الفرنسيين و طلب الجنرال جوان من المنصف باي 13 ماي 1943 التنازل عن العرش لفائدة ولي عهده محمد الأمين باي وعندما رفض تم خلعته بمقتضى مرسوم صادر عن الجنرال جيرو قائد القوات الفرنسية و أجبر على التنازل عن العرش و نُقل إلى الجزائر في جويلية 1943 و في غرة سبتمبر 1948 توفي بمنفاه بمدينة "بو" الفرنسية.

رجال الحركة الوطنية و أدّى يمين الإخلاص للحزب²²³ إن مثل هذا التصوير للحركة الوطنية لن يسمح للقارئ ، وقد تحالف قادة الدستور والبلد جميعه و العرش الحسيني ، أن يفهم كيف يمكن لقوة على وجه الأرض مهما عظمت أن لا تستجيب ، فوراً ، لمطالب أي شعب مهما كان صغره على مثل هذه الوحدة "الصماء" و الخطير في مثل هذا الوصف أنه يغفل ، عن تعمد، أن أول انشقاق حصل في الحركة الدستورية كان بالضبط عند تأسيسها إذ تسببت ثنائية "تونس الشهيدة" المتمثلة في وصف "عهد ما قبل الحماية" وصفا فردوسيا و "عهد الحماية" وصفا جحيما في خروج عدد من الإصلاحيين مثل الحسن الجلاتي ومحمد النعمان إلخ عن الحزب حديث التأسيس لاقتناعهم أن الحماية ليست "شرا صرفا" و لسوف يكون الحبيب بورقيبة الذي سينشق عن الحزب الدستوري نفسه سنة 1934 أقرب فكريا سياسيا إلى هؤلاء المنشقين الأوائل منه إلى غيرهم و منهم الحبيب ثامر الذي هو في نهاية الأمر "وجه جديد للحزب الدستوري القديم"

إن هذا الوصف "التوحيدي" للشعب التونسي الذي يصرّ على تغليب السياسي على الاجتماعي و العمودي على الأفقي لا يسمح للقارئ بفهم العلاقة المتشنجة و غير الواضحة بين هذه الطبقة القائدة و "بروليتاريا" الموانئ التونسية عند تأسيس أول نقابة تونسية تفوح منها راحة النظريات المادية التاريخية و لقد كتب ثامر في الموضوع سطرين هما :

"و في نفس الوقت ظهرت حركة عمالية وطنية نشيطة تحت قيادة الزعيم النقابي محمد علي القابسي فاشتد بها ساعد الحركة الوطنية"²²⁴

²²³ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص144 .

²²⁴ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص145 .

أما الحدث الذي سيضع تفكير الحبيب ثامر على المحك فهو الانشقاق الثاني في الحزب الحرّ الدستوري التونسي سنة 1934 فكيف تعرض ثامر الذي كان أثناء هذه الأحداث طالب طب عام في فرنسا للموضوع؟

ردّ ثامر صحوة الحركة الوطنية التونسية لا إلى 1934 ، سنة الانشقاق و لكن إلى سنة 1930 أي إلى ما ردّ إليه المراكشيون و الجزائريين الصحوتين الوطنيتين في مراكش (الظهير البربري) و الجزائر (الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر 1830



"ساعدت تصرفات السلطة الفرنسية نفسها على انتشار روح الوطنية، وبعثها في قوة جديدة. و حدثت في تونس أثناء ذلك حادثتان كبيرتان كان لهما أثر فعال في عودة انتشار الوعي القومي من جديد، و يرجع إليهما الفضل الأكبر في استئناف الشعب التونسي لكفاحه السياسي الذي لم يتوان فيه منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا. أما الحادثة الأولى فهي انعقاد المؤتمر الأفخارستي بعاصمة تونس في مايو سنة 1930. و قد

اعتبره الفرنسيون "حملة صليبية" ²²⁵تاسعة" و رأى التونسيون في هذا المؤتمر وانعقاده في بلاد إسلامية مسّا بكرامتهم ، و إهانة لدينهم.و أما الحادثة الثانية فهي ما عمدت إليه السلطة الفرنسية من إعداد العدة لإقامة احتفالات بمناسبة مرور خمسين سنة على احتلال تونس ²²⁶

فالصحوّة الوطنية بدأت، إذن سنة 1930، و القيّمون عليها هم قادة الحزب الدستوري القديم الذين قرروا تصعيدا للنضال ضد فرنسا ، ضمّ هيئة إدارة و تحرير جريدة "صوت التونسي" إلى حزبهم و كان من أبرز أعضائها الأستاذ الحبيب بورقيبة .إن ثامر قاطع في هذه المسألة فهو ينفي الثنائية التي يقوم عليها التاريخ البورقيبي الرسمي الذي يتحدث عن حزب "خامل" و "حزب جديد متوثب" بدليل أن "الحركة الوطنية[انبعثت] انبعثا جديدا. و أخذ الحزب يعمل لتوحيد الصفوف، و جمع كلمة العناصر القديمة و عناصر الشباب الجديدة. و رأى أن الوقت قد حان لتنظيم الحزب من جديد على أسس متينة، ووضع خطط ملائمة للظروف و مساهمة لما اكتسبه الشعب من وعي قومي. و كان الدافع لسلوك هذا الاتجاه الجديد هو ما رآه الحزب من نشاط و اندفاع و كفاءة في عناصر الشباب الجديدة فعقد الحزب مؤتمر [مدينة تونس] في 12 و 13 مايو 1933

تم أثناءه قبول هيئة جريدة " العمل التونسي" بإجماع المؤتمرين في اللجنة التنفيذية للحزب" ²²⁷

إن هذا السرد الثامري للأحداث لا يمكّن القارئ من بيان الأسباب الحقيقية لانشقاق الجماعة الحديثة العهد بالدستور القديم بعد أقل من عام على انضمامها إلى الحزب

²²⁵ - قاد الحملة الصليبية الثامنة القديس لويس Saint Louis (1215-1270) زمن الحفصيين و قد أصيب بالطاعون فدفن قرب

قرطاج.

²²⁶ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره،ص.147.

²²⁷ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره،ص.149-150.

الأم (13 ماي 1933-2 مارس 1934) لأنه يوحي أن الأقلية المنشقة لم تتفطن إلى عيوب قادة الحزب القديم إلا في هذه الفترة الوجيزة.

أما الأسباب البعيدة التي تفسّر هذا الانشقاق فهي ثلاثة على الأقل :

أولها : تمركز قادة الحزب القديم فيما سبق أن ذكرنا من المدن في حين بدأت مدن أخرى مثل الساحل (الأخوان بورقيبة) جربة (صالح بن يوسف)²²⁸ و الجريد (يوسف الرويسي)²²⁹ و صفاقس (الهادي شاكر) وبنزرت و (الحبيب بوقطفة) و زغوان (سليمان بن سليمان)²³⁰ و باجة (البحري قيقة) "تنجب وطنيها" ومن ثم ضاقت العاصمة عن تمثيل كل هؤلاء.

ثانيها : أن أغلبية ممثلي هذه المدن ، و خاصة من درسوا منهم في فرنسا ، تشبعوا إما كثيرا أو قليلا بالنظريات التي كانت تتصارع في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى سواء أكانت شيوعية أم اشتراكية أم راديكالية أم نازية فاشية و كلها نظريات حديثة لا تتلاءم كثيرا مع النظرة التقليدية إلى الأشياء التي كانت تحكم تفكير قادة الدستور القديم.

ثالثا: قامت العلاقة بين القدامى و خصومهم في مقبل الأيام على تداؤب و مكر لا حدود لهما. فبقدر ما كان قادة الحزب القديم حريصين على "ابتلاع" هذا الشق الدستوري "الدخيل" الذي لا يتقون فيه كان هذا الشق حريصا، لغربة تفكيره السياسي

²²⁸ - صالح بن يوسف (1906-1961) زعيم تونسي ولد بجربة 18 مارس 1906 ، تخرج محاميا من الجامعات الفرنسية و كان من أعمدة الحزب الدستوري الجديد منذ سنة 1934. سنة 1952 إتجه إلى القاهرة للتعريف بالقضية التونسية و في 13 سبتمبر 1955 عاد إلى تونس معارضا اتفاقيات 3 جوان 1955 التي عدّها خطوة إلى الوراء فكان ذلك إيذانا باندلاع خلاف بينه و بين الحبيب بورقيبة و ازداد الخلاف بينهما و أقصي من الحزب بتهمة الانشقاق حتى هاجر إلى القاهرة و بقي هناك ملتزما بموقفه داعيا إلى مقاومة بورقيبة و تنظيم حركة المعارضة حتى تم قتله في عملية مخططة في مدينة فرنكفورت في 12 أوت 1961.

²²⁹ - يوسف الرويسي (1907-1980)

²³⁰ - سليمان بن سليمان (1905-1986) من مواليد زغوان ، انخرط في صفوف الدستور القديم منذ 1920 و في الجديد سنة

1934، طرده الحبيب بورقيبة من الحزب سنة 1950 لميولاته الشيوعية. انظر: Sliman Ben Sliman, Souvenirs

Politiques, Tunis, Cérès Production, 1989.

و الاجتماعي، في تربة تونسية ما زالت تقليدية إلى أبعد الحدود، على دخول "البيت الدستوري القديم" في زيارة قصيرة تخط الأوراق عند عامة التونسيين الذين لم يفهموا لا في هذه الفترة و لا في فترات طويلة لاحقة أسباب هذا الانشقاق الحقيقية و لا ماذا يميّز الجماعة المنشقة عن كثير من رموز الحزب الدستوري القديم الذين تلقوا مثلها تعليماً حديثاً في فرنسا مثل الطبيب أحمد بن ميلاد²³¹ خاصة أنه سيحصل بعد أربع سنوات فقط (1938) انشقاق جديد سينفصل بموجبه كل أطراف انشقاق 1934 عن الحزب الدستوري الجديد نقصد محمد بورقيبة (انفصل قبل ذلك) و محمود الماطري والبحري قيقة والطاهر صفر.

كتب الحبيب ثامر عن كل ما فصلنا من حديث حول الأسباب العميقة للانشقاق الثاني للحزب الدستوري (1934):

"على إثر خلاف حدث بين قادة الحزب الأولين و جماعة "العمل التونسي" الذين دخلوا اللجنة التنفيذية إثر مؤتمر سنة 1933 ، انعقد مؤتمر ببلدة قصر هلال²³² في 2 مارس 1934، حضره نواب عن سائر شعب الحزب للنظر في مسألة الخلاف ، و امتنع أعضاء اللجنة التنفيذية المعارضين لجماعة "العمل التونسي" من حضور المؤتمر فأعلن المؤتمر فصلهم عن الحزب و انتخبوا "ديوانا سياسيا" لإدارة الحزب الذي سُمي منذ ذلك

التاريخ " الحزب الحر الدستوري الجديد، و عيّن الأستاذ الحبيب بورقيبة²³³ أميناً عاماً له"²³⁴

²³¹- أحمد بن ميلاد (1902-1994)

²³²- في بلاد الساحل المعادية شعبياً للعائلة المالكة لذكريات سياسية تتصل بالضرانب أي المعادية لمدينة العاصمة و المرسى و حمام الأنف ، أحد مقرات الباي و لسوف يعامل بورقيبة العاهل الحسيني محمد باي بعد طرده من الحكم سنة 1957 إثر إعلان الجمهورية معاملة تناقض ما عاملت به مثلاً "ثورة الضباط الأحرار" في مصر سنة 1952 الملك فاروق.

²³³- بورقيبة عند الحبيب ثامر هو الأستاذ بمعنى المحامي فلا اعتراف إذن سنة 1948 بزعامته و حتى عندما يصفه بالزعامة فهو لا يقصرها عليه. فما تفسير ذلك يا ترى؟

و لسوف يتعرض ثامر لأحداث 9 أفريل 1938 ، من دون أن يشير ولو إشارة واحدة إلى انشقاق أغلبية مؤسسي " الحزب الدستوري الجديد" عنه حتى أنه لم يتبق منهم فيه إلا....الحبيب بورقيبة و على العكس من ذلك سيقصر ثامر على ذكر أسماء من دفعوا إلى أحداث 9 أفريل و هم لم يعرفوا مباشرة أسباب انشقاق 1934 لأنهم كانوا في تلك السنة

يوصلون دراستهم في فرنسا أمثال صالح بن يوسف و سليمان بن سليمان و الهادي نويرة و علي البلهوان و المنجي سليم ليذكر من دون أن يسترعي ذلك انتباه مراجع كتاب "تونس الشهيدة" و محققه حمادي الساحلي الذي كان لا يتردد في الإشارة إلى أخطاء و مبالغات الكتاب أن عدد قتلى أحداث 9 أفريل من التونسيين بلغ المئات:

" و في يوم 9 أفريل إثر اعتقال زعيم الشباب الأستاذ علي البلهوان تجمهر الناس أمام المحكمة فجاءت القوات المسلحة الفرنسية و أطلقت نيرانها على الجماهير فقتلت زهاء الخمسمائة و بلغ عدد الجرحى عشرات الآلاف.و قد حدث ذلك في حين كان الأستاذ الحبيب بورقيبة في فراش المرض"²³⁵

و بحوادث 9 أفريل 1938 يبدأ حديث ثامر عن الفترة التي عاد فيها من فرنسا طبيبا عاما فكيف تحدث عن الفترة الممتدة من 1938 إلى 1948 سنة تأليف الكتاب و ماذا كان دوره فيها ؟ و كيف كانت علاقته بالمحور و الحلفاء؟ و كيف تحدث عن اضطراره إلى الهرب من زحف الحلفاء و الالتجاء إلى المهاجر الأوروبية قبل حلول الحلفاء بها ثم إلى إسبانيا بين 1944 و 1946 و بعد ذلك إلى القاهرة و نشاطه فيها ضمن مكتب المغرب العربي صحبة محمد أحمد بن عبود؟ و أخيرا علاقته بمحمد بن عبد الكريم الخطابي ومستشاره على الحمامي؟

²³⁴ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره،ص.151.

²³⁵ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره،صص.156 - 157.

يتحدث ثامر عن دوره في قيادة الحزب الدستوري الجديد بعد انهياره إثر أحداث 9 أفريل 1938 " بعد بضعة أشهر انتظمت الحركة الوطنية من جديد تحت قيادة الدكتور الحبيب ثامر و تشكلت شعب للحزب في كافة المدن و القرى في نظام سرّي محكم، و صارت هذه التشكيلات تعمل في الخفاء و تنفذ التعليمات التي تتلقاها من القيادة الجديدة"²³⁶

دور ثامر في قيادة الحزب الدستوري بين 1938 و 1943 مجمع عليه و ثامر الذي كتب ما سبق عن دوره لم يعرف عنه ما عرف عن خصمه بورقيبة من هذا التضخم الذاتي الذي يدفع الكثيرين إلى إنكار أدوار

غيرهم أو التتقيص منها تضخيما لدورهم و كأنهم بذلك يودون أن يحولوا القطرة بحرا و البحر قطرة ماء. على أن ما يهمنا هنا ليس التأكيد على دور ثامر و إنما على أمر آخر أكثر أهمية من وجهة نظر هذه الدراسة و هو أن الحزب الدستوري الجديد و قد غاب عنه بورقيبة ابن راديكاليي الجمهورية الثالثة تفكيراً و سلوكاً²³⁷ اتجه برئاسة ثامر وجهة مغربية أولاً و عربية ثانياً و إسلامية ثالثاً أي أصبح كثير القرب من سياسة و مفكرين مشاركة أمثال شكيب أرسلان و الحاج أمين الحسيني و محمد علي الطاهر أي كثير القرب على مستوى السياسة الدولية من المحور الذي يعادي فرنسا و إنجلترا و من ثمّ الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما يمكن أن يعنيه ذلك من نتائج سياسية إن انهزم المحور و انتصر الحلفاء.

إن هذا هو ما يفسر فسحة العمل التي أتاحت للحبيب ثامر قبل 1943:

²³⁶ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، صص. 157- 158.

²³⁷ - مما روي عنه أنه كان يحلو له في بداية ثلاثينات القرن العشرين أن يخرج من مكتبه فيشعل وسط التونسيين الصانمين في شهر رمضان سبجارة يدخنها تحدياً منه لأخذ القوم بمعتقدات ما قبل الحداثة ممّا دفع بعض " المطاوى " إلى رميه بالطماطم ، انظر منصف الشابي صالح بن يوسف، حياة كفاح، تونس ، دار الأقواس للنشر، 1990، ص. 21.

"و لما أعلنت الهدنة بين فرنسا و المحور رأى قادة الحزب الدستوري أن يقوموا بحركة واسعة للمطالبة بالاستقلال لتونس و بقية أقطار المغرب العربي.و كانت وضعية فرنسا الجديدة الناتجة عن احتلال جيوش المحور لها تجعلها عاجزة عن القيام بتعهداتها نحو تونس ، و حمايتها من كل اعتداء. و رأى الوطنيون أن الوقت قد حان لأن يعلنوا بطلان الحماية

و أن ينادوا باستقلال تونس، و في 20 يونيو سنة 1940 تقدم وفد برئاسة الدكتور الحبيب ثامر بعريضة إلى البلاط يطالب فيها حكومة

الباي²³⁸ بإعلان سقوط الحماية و إطلاق سراح الزعماء المعتقلين في فرنسا، كما تقدمت وفود أخرى بعرائض في نفس المعنى إلى السلطات التونسية المحلية²³⁹ و إذا كان الباي أحمد الثاني لم يعضد الحزب الدستوري الجديد برئاسة ثامر فإن تولي خلفه محمد المنصف باي كان مناسبة لتمتين الروابط بين الحزب الدستوري الجديد و العرش الحسيني على غرار ما سيحدث في مراكش سنة 1947 عندما تبنى السلطان العلوي محمد بن يوسف مطالب حزب الاستقلال فبدأ يتعرض لامتحان فرنسي انتهى بإبعاده عن العرش²⁴⁰ سنة 1953 :

²³⁸ -أحمد باي الثاني (1929-1942)

²³⁹ - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره،ص.160.

²⁴⁰ - و هذا هو مما حدث للباي محمد المنصف عندما حلّ الحلفاء ، بتونس إذ أبعد عن العرش صيف 1943 و نصب مكانه محمد الأمين باي (توفي 1962)



"تعرّز جانب الحركة الوطنية بجلوس جلاله محمد المنصف باي على عرش تونس في 19 يونيو سنة 1942 و كان معروفا بمواقفه الوطنية السابقة و مناصرته للحزب الحرّ الدستوري الذي كان عضوا رسميا فيه

منذ عهد شبابه سنة 1922²⁴¹ فعمل هذا الملك على تقوية الروح الوطنية بمواقفه الخالدة" ²⁴² إن هذه "المواقف الخالدة" هي التي ستكون سبب إبعاد محمد المنصف باي عن الحكم ثم نفيه مثلما ستكون سبب هجرة ثامر إلى المهاجر الغربية قبل أن يهرب سنة 1944، بعد أن حلّ الحلفاء بفرنسا، إلى اسبانيا الفرنكوية فيقيم فيها لاجئاً سياسياً هو و صحبه مثل الرشيد إدريس والطيب سليم إلى سنة 1946 فيتعرف فيها على عدد من الوطنيين المراكشيين و الجزائريين ممّا يفسّر سعي القوم إلى تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة سنة 1947 في غياب بورقيبة ثم لجنة تحرير المغرب العربي، سنة 1948 برئاسة محمد بن عبد الكريم الخطابي أي في فترة كان فيها بورقيبة يسعى إلى لعب "الورقة الأمريكية" ممّا يفرض عليه أن

²⁴¹ - الحزب المقصود هو الحزب الذي أسسه الثعالبي و ليس الحزب الدستوري في وجهه البورقيبي مثلاً إذ لا يفعل أن يناصر العرش الحسيني شقاً دستوريا يقوم تفكيره على نفس أسس المجتمع التونسي التقليدي.

²⁴² - الحبيب ثامر ، هذه تونس، مصدر سبق ذكره، ص.161.

ينأى عمّن لعبوا "الورقة المحورية" مثل الحبيب ثامر أو "الورقة الروسية" مثل
سليمان بن سليمان"

الفصل الثاني:

إدريس، دراسة تحليلية

" إنَّ دراسة الماضي بصفتها مرآة تنعكس عليها جملة أمجاد الأمة و آلامها إنّما تننزل في علاقتها بهذه الأمة منزلة الروح من الجسد.

و ابن المغرب بقدر ما يستكشف ماضي أجداده ، يزداد احتراما لنفسه و هو يتأمل في هذه العصور التي لعب فيها أجداده دورا يجعل الإنسانية مدينة لهم بعض الدين بما هو أكثر تميزا في مكتسباتها بحيث يرتقي إلى مستوى أرفع و يدرك، و قد نأى عن الاستخفاف بالوسط الذي يعيش فيه الذي شوّهه انحطاط طال أمده، أنّ وطنه منجمٌ قيم يكفي بعض النشاط الذكي و الشجاعة لتخصيب البذار فيه"

« IDRIS, roman nord-Africain, 2^{ème} édition, entreprise nationale du livre, Alger, 1988, p.239 »

80
133-185

ALY EL - HAMMAMY

IDRIS

ROMAN NORD-AFRICAIN

Préface en arabe de l'Émir Abdel-Kérim
Préface en français de Ch. Bouamrane

2^e EDITION

Echange

9356

Imprimerie nationale de l'Etat
A. 101 Zouat Yusef
Alger

193772

حالة المغرب وأهمي بالمغرب أقطار أفريقيا الشمالية الثلاثة هي حالة فريدة في باجا . فقد شامت الأمداد أن يسلم هذا البلد العظيم — العظيم في تاريخه وحضارته وفلسل أهله — إلى أقطاع غدر عرفه التاريخ الحديث : فلتج في طلبه وفي بطنه وفي مرأفته وفي حسنة طوقه وأسايبه وفي ضعف عقله وفي شيق دائرة تفكيره وفي عدم انشائته وفي بهتانه والآليه .

مقد جاهد المغرب ولله الحمد خير جهاد عند زول الفرنسيين القراء أرض الجزائر سنة 1830 حتى أيامنا هذه وإذا كان (السور الجديد) الذي استطاع الفرنسيون أن يقربوه حول المغرب — بما ما استولوا على منابع رزقه وامتصوا خيراته ووجروا بين شعوبه الجور والفر واليهول — قد حال حتى الآن دون تسرب إخباره إلى الخارج ولا حيا إلى أقطار الشرق فقد جاءت الأيام لتقل حلاسل الماسي التي ارتكبتها أولئك الثلاثة إلى العالم ليغهم كل ذي عقل وقلب سليم ما هي حقيقة فرنسا والفرنسيين . وسوف لا تجمع عن نشر وبيان كل الشائب التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي : منذ العهد الذي ظهر فيه ابن وطني البار وأستاذي الكبير في الجهاد الأمير عبد القادر

الجزائري طيب الله ثراه الى هذا العهد الذي ارتفعت فيه صيحات
شعوب الأرض مطالبة بحقوقها الأمر الذي يجعل اغتيال هذه
الصيحات أو التماطل عنها من الأمور المؤدية الى ارباك حياة
البشرية بأسرها .

وكتاب الأخ المجاهد الأستاذ علي الحمامي المغربي يكشف -
ولو انه محرر في شكل رواية - عن الكثير من أباطيل سياسة فرنسا
المثائثة في المغرب . وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة
الفرنسية الى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق
المغربي ما هو جار هناك . كما أن هذا الكتاب لا يفضي ببعض
الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال والتي كانت
من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار .

فالبلاذ المغربية التي لعبت دورها الكبير في تكوين الحضارة
العربية والتي تفخر دائما بأنها قد قدمت للمدنية الانسانية رجلا
كأبن خلدون وابن بطوطة وابن تومرت وابن رشد سوف لا تندثر
وسعا في إعادة مكائنها المفقودة بعد استرجاع حريتها واستقلالها
المسلوبين . كما هو شأن كافة أمم العالم قبلت فرنسا ذلك أم
أبت . والأمر مرفوع الى الله جل شأنه فعسى أن يوفق العاملين
لخلاص بلادهم ويسدد خطاهم آمين .

محمد عبد الكريم الخطابي

القاهرة 23 جماد الأول سنة 1367

الموافق 3 أبريل سنة 1948

لقد بيّنا في الفصل الثاني من القسم الأول بعض الصعوبات التي تعترض الباحث
في التأريخ لحياة علي الحمامي حتى إن استندنا استنادا كليا إلى رواية "إدريس" و
بذل أقصى الجهد في استخراج أوجه الشبه بين شخصيات الرواية و شخصيات

مغربية مجالية للكاتب. هذه الصعوبات نفسها تعترض الباحث عندما يتعلق الأمر بالحديث عن تفكيره السياسي والاجتماعي مثلما هو الشأن هنا في هذا الفصل نظرا إلى أن أفكاره تنتشر في كل فصول الرواية بداية من الفصل الأول و حتى الفصل الأخير (أي التاسع فيها).

هذه الرواية البيوغرافية التاريخية الفكرية السياسية التي تشغل ما يقرب من أربعمئة صفحة و كتبت بلغة فرنسية على قدر من التعقيد تتضمن تسعة فصول : الفصل الأول منها يحمل عنوان **Germinaison** (تولد) ، صص.17-45 ، فيه يستعرض الحمّامي " تاريخ أجداده البربر " من أقدم الأزمنة إلى أول يوم دخل فيه الكتاب " المّسيد " في قريته الجبلية.

و يحمل الفصل الثاني عنوانا سقط من النسخة التي بين يدينا صص.67-79 ، و يستهله الحمّامي بهذه العبارة " هكذا كان ،بإيجاز ، تاريخ أجداد إدريس " ليستعرض في عشرين صفحة تقريبا حياته في الكتاب الجبلي من سن السابعة إلى الثانية عشرة فيصف الطلبة و المؤدب "الذي ليس يمكنه أن يطمح إلى مثل هذه الوظيفة إذا لم يثبت جدارته في عدد هام من

المهن" و هذا الشرط يمكن الحمّامي، بطريقة الاستطراد ، من وصف المؤدب مؤدبا و جزارا و خياطا و مُطببا مثلما يمكنه من وصف عدد من آفات الريف مثل الإدمان على التدخين و الحشيش "الكيف" لأن المؤدب كان مدمنا على التدخين.

أمّا الفصل الثالث فيحمل عنوان **Le colloque sous l'oratoire**

(الحوار تحت المصلى) صص.69-145 و فيه يصف الحمّامي حياته صحبة أبيه في المشرق العربي.و هذا الفصل لا يقل أهمية عن الفصل الأول لأنه يمدنا بعناصر

أخرى من تفكير علي الحمامي كهلا.لذلك نلاحظ أنه اضطر، لصغر سنّه إلى أن ينسب هذه العناصر، تصرفا روائيا منه ، إلى أبيه.

و يحمل الفصل الرابع عنوان **A l'ombre de Tiziran** (في ظلال جبل تيزيران) صص 147-177 و فيه يتحدث الكاتب عن عودته صحبة أبيه إلى الجبل و عن إصرار أبيه على أن يواصل الحمامي دراسته التقليدية في "انتظار أن يبلغ الثامنة عشرة [1920] فيبعث به إلى فاس حتى يتمكن بعد تربّص في القرويين من الالتحاق إما بجامع الزيتونة أو الأزهر ".و يستغل الحمامي هذا الفصل، ودائما بطريق الاستطراد، للتعرّض لتاريخ المغرب الأقصى سواء قبل الإحتلالين الفرنسي و الاسباني أم بعده و لقضايا فكرية سياسية تتعلق بنظرته إلى

التاريخ عامة و المغربي خاصة ليعود إلى الحديث عن معاشيته الكفاح المسلح ضد الإسبان عقب احتلال 1912 ناسبا كل هذه الأفكار إلى أبيه لأن سنّه لا تبرر مستوى التفكير الذي يزخر به هذا الفصل.

و قد عنون الحمامي الفصل الخامس ب **Le fil d'Ariane** (خيط أريان) ، صص.179-199، و " أريان " مثلما تقول الأسطورة الإغريقية هي ابنة "مينوس" و "بازيفاي" و قد مكّنت "أريان" تيزي" الذي جاء إلى جزيرة "كريت" لمحاربة الوحش من الخيط الذي استعان به للخروج من المتاهة بعد قتل الوحش.فلما استقام له الأمر اختطفها ثم تركها في جزيرة "ناكسوس".و السؤال هنا هو ما معنى هذه الرموز؟ ألا تكون"أريان" هي الأمة المغربية التي مكنت الغرب(بواسطة ابن رشد) من قتل وحش التخلف الذي كان سائدا فيها حتى إذا استقام له الأمر، استعبدتها "نكران جميل" منه؟ على أن القراءة السطحية لهذا الفصل الذي يدخل زمنيا ضمن الفترة السابقة

لسنة 1920 أي هو امتداد للفصل السابق لن تذهب إلى أكثر من أنه اقتصار على وصف تطوان و حالة التعليم فيها على الرغم من أن الحمامي يعرض هنا أيضا عناصر من نظرة شاملة إلى التاريخ.

و يحمل الفصل السادس عنوان **La mosquée aux sépulcres blancs** (المسجد ذو القبور البيضاء) ، صص. 200-243

و القصد من هذا العنوان هو فاس و مدرسو القرويين و هو فصل يقسو

على هذه الجامعة و سينهج الحمامي في هذا الفصل النهج السائد في روايته جميعها المتمثل في "التحليق" فوق العصور و في عرض وجوه عديدة من نظرتة الشاملة إلى الأشياء.

أما **L’histoire, ce guide** (التاريخ ، هذا الدليل) صص. 245-297 فهو عنوان الفصل السابع و فيه تداخل بين حرب الريف (1921-1926) و ردود الفعل على إصدار الظهير البربري في مراكش (1930) ووصف هجائي لكل من المقيمين العامين ليوطي (1912-1925)

و لوسيان سان و تعرض للروائي الفرنسي لويس برتراند Louis Bertrand ممتدح "العمل التمديني" في المغرب الأقصى و أدواته من المستوطنين الفرنسيين خاصة و الأوروبيين عامة لينتهي الحمامي إلى طرح السؤال: ما العمل بعد أن فشلت الثورة الخطابية و عقبها العمل السياسي ممثلا في الفاسي و الوزاني في المغرب السلطاني و عبد الخالق الطريس و حزب الإصلاح الوطني في المغرب الخلفي؟

الفصلان الأخيران هما الثامن **La voix du sang** (نداء "صوت" الدم) صص. 299-337 و التاسع **Au-delà de l’horizon** (ما وراء الأفق)

صص.339-394.و قد تناول علي الحمامي في الفصلين معا سياسة فرنسا و أحسن

السبل إلى مقاومتها بعد أن خفت صوت السلاح

فحاول باستعمال شخصيتين يتبين كل من كان على اطلاع متوسط على تاريخ الحركة الاستقلالية المراكشية أنهما علال الفاسي خريج القرويين ومحمد بن الحسن الوزاني خريج الجامعة الفرنسية و المدرسة الحرّة للعلوم السياسية في باريس ، أن يجيب عن السؤال ما العمل في عقد ثلاثينات القرن العشرين ؟

على أنّ ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ كلّ فصل من هذه الفصول التسعة لا ينضبط مثلما لاحظنا سابقا للفترة التاريخية التي خصص لها الفصل فكثير من الأحداث يصلح ، بطريق الاستطراد ، لاستعراض رأي الكاتب سواء فيما يتعلق بفترات تاريخية ضاربة في القدم أم حديثة أو بنظرته إلى الأشياء و هي نظرة تشي بثقافة شاسعة تمسّ ميادين التاريخ

و الفلسفة و الأدب و السياسة و الدين و يتنزّل فيها الاقتصاد السياسي (**Economie Politique**) منزلة فريدة و تستند من الناحية المنهجية ، إلى نظرة تاريخية إلى التاريخ علينا أن نتعرّض لها بداية²⁴³.

نظرة علي الحمامي إلى تاريخ البشر عامة و إلى تاريخ بلاد البربر القدماء و بلاد المغرب المسلم خاصة بداية من القرن السابع الميلادي ،نظرة تاريخية معادية للنظرة الدائرية إلى التاريخ بل هي نظرة تنزّل المسألة الاجتماعية في مختلف أشكالها التاريخية المنزلة الأولى.فهو يدعو إلى دراسة سبب نجاح الإسلام الأصلي مثلا انطلاقا من الظروف الاقتصادية و الاجتماعية و العقيدة التي ميّزت القرن السابع الميلادي:

" لم يكن الفقيه [مدرّس التاريخ الإسلامي] يتميز بذكاء ثاقب

²⁴³ - نعود هنا و من جديد إلى اعتماد الأستاذين الهادي التيمومي في كتابه "مفهوم التاريخ" و محمد الناصر النفزاوي في دروس المادة التكميلية ضمن شهادة الماجستير. وهذه الملاحظة سبق أن أبديناها في مقدمة البحث لكننا نحرص على التذكير بها.

و لا بتعليم متين فالتاريخ[الإسلامي] الذي يدرّسه يقتصر على حياة النبيّ. كان يستقي معلوماته من سيرة ابن هشام و طبقات ابن سعد. إنه تاريخ شبيه بالأسطورة الذهبية حول فترات الإسلام الأولى و حول ملحمة الوحي حيث تختلط الحكايات الخرافية بالحقائق التاريخية و حيث تتشكّل الحوادث البسيطة بشكل الأحداث الحاسمة. إنه لا أثر في هذا التاريخ لتحليل المجتمع الوثني ابتغاء فكّ الأحداث عن أسبابها و من ثمّ غرس الروح النقدية و الجهد الاختباري في المتعلّم. إنّ طالب العلم على يدي هذا الفقيه بإمكانه أن يحفظ غيباً شجرة أنساب الرسول و أسماء أفراد عائلته و صحابته الأوائل و أهمّ الغزوات التي عقت الهجرة

و العودة المظفّرة إلى مكّة أمّا أن يدرس الطالب الظروف السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام و أن يتبيّن الأسباب التي دعت إلى قيام النظام الجديد و الأسباب القاطعة لعداوة قريش للإسلام (...) و أن يستنتج من أعمال محمد المفهوم العامّ الذي يفترض التحرير الوطني للعرب و الثورة العالمية التي تصوّرها الإسلام، كلّ هذا، في الواقع، ليس من شأن الفقيه²⁴⁴

و في موضع آخر من " إدريس " تظهر تاريخية علي الحمّامي في شكل أوضح إذ نقرأ له، هذه المرّة أيضا ، عن الإسلام الأوّل:

" لا يمكن للعالم أن يتجنّب اختيار واحد من بديلين: إمّا أن يتطوّر و إمّا أن يزول. و الإسلام نفسه ظاهرة تؤكّد هذه القاعدة القديمة. فركود المجتمع الإقطاعي الهرم و قصور اليهودية و المسيحية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية و شعوذة قريش المتميزة بالنفعية و ببعض القبلانية (Cabalistique)، كلّ ذلك استدعى محمد و سهّل عليه رسالته²⁴⁵

هذه النظرة التاريخية ذاتها سيطبّقها الحمّامي على القرن العشرين الذي هو :

²⁴⁴ -Ali Hammami, Idris, rom.cit, p.220.

²⁴⁵ -A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.117.

"قرن الإمبريالية الفاتحة و قرن المال و الآلة"²⁴⁶ من الناحية الاقتصادية
و قرن الصراع الإيديولوجي بين الدول الرأسمالية و الإتحاد السوفياتي من الناحية
الإيديولوجية:

"[إنّه قرن] المخبر و حرب الطبقات"²⁴⁷

و بين هذين الخصمين القويين اللذين يعرفان ما يريد كلّ واحد منهما كان العالم
الإسلامي و من ضمنه بلاد المغرب ميدانا لهذا الصراع:

" إنّ حياة إدريس و هي تتفتح في ضوء القرن العشرين المضطرب ستحدّد في
خضم هذا الصدام الحتمي بين حضارتين خصمين كان المغرب و ما يزال و سيبقى
له ميدانا"²⁴⁸

فما هو الحلّ ؟

الأخذ بوحدة من هذين الحضارتين ؟ و هل تقبل الحضارة الرأسمالية بأن تندمج فيها
الشعوب المستعمرة على أساس المساواة و الحضارة الرأسمالية القائمة على رأس
المال ؟ و إذا قبلت الحضارة "الشيوعية" اندماج هذه الشعوب على أساس من المساواة
الاجتماعية فهل تقبل بمحافضة الشعوب المسلمة على " شعورها الإسلامي و هو
باق ؟ "

أم أنّ الحلّ يكمن في الأخذ بالسلفية ؟ و لكن أيّ سلفية ؟ إن سلفية الأفغاني و محمد
عبدّه أعطت أفضل ما فيها و لكنها استنفدت قواها أمّا سلفية محمد بن عبد الوهّاب
فإنّها تخلو من أيّ إشارة إلى فكرة العدالة الاجتماعية من ناحية و هي من ناحية
أخرى مغرقة في التقليدية ونحن " نعيش في عصر مختلف تماما عن العصر الذي
بعث الله فيه النبيّ لخلاص عالم مشرف على الهلاك"²⁴⁹

²⁴⁶ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.198.

²⁴⁷ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.198.

²⁴⁸ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.199.

²⁴⁹ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.117

نعم إنّ "الشعور الإسلامي باق و لكن الأفكار يجب أن تتغيّر و أن تتلّين و أن تطابق قوانين الزمان و المكان"²⁵⁰

و قوانين الزمان و المكان تقول على الأقلّ مثلما فهم منها علي الحمّامي بالقومية:
"عرف إدريس هذه المرّة نهائيا أمرا هو أن روح الشرق قد تغيّر و أنّه من الآن فصاعدا على كلّ بلد و هو يعود إلى القوانين الخالدة التي أملتّها على الدوام الأرض و الدم و إلى دروس تاريخه ، أن يحرص على خلاصه الخاص فلقد كانت الفكرة القومية تشق خطاها تحت الفكرة الدينية"²⁵¹ و من أجل هذه الفكرة أعاد علي الحمّامي كتابة التاريخ عامّة و التاريخ المغربي بصفة خاصة و من جهة نظر قومية مغربية تربط ربطا وثيقا بين التاريخ القديم و الوسيط و المعاصر .

فإذا كانت الأساطير العربية تتحدث عن انحدار العرب من قحطان و عدنان بذرتين أوليّين للجنس العربي فإنّ علي الحمّامي يرى أنّ للبربر أصولا أخرى إذ أنّ " عائلة إدريس تنحدر منذ آلاف السنين، من هذه الجماعات البربرية الأولى التي لا يعرف أحد إلى الآن لا من أين و لا كيف جاءت لتستقرّ في هذه الزاوية من المغرب. فمذ عصور سحيقة سابقة على الفتح الإسلامي ظلّ الجبل²⁵² باستثناء بعض الأماكن الساحلية مغلّقا إغلاقا تاما في وجه كلّ دخيل أجنبي"²⁵³ و لذلك استأهل صفة "مقياس الصفاء الجنسي" الذي تقاس إليه نسبة صفاء بقية البلاد المغربية سواء أكانت بريّة مثل القيروان و فاس أم بحريّة مثل طنجة أو الجزائر وقرطاج. فالجبل يمثّل الحسّ البربري الأصيل و البساطة و النفور من السفسطة و

²⁵⁰ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.117

²⁵¹ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.147.

²⁵²-الجبل : يقسم على الحمّامي شمال المغرب الأقصى على النحو التالي:

" شمال مراكش، بلد إدريس ، تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين من البربر البرانس :صنهاجة التي تسكن الرقعة الغربية في شبه الجزيرة إلى حدود فاس حيث تختلط بمصمودة و كتامة و غمارة التي تشمل منطقة سكنتها الجهات الشرقية من تطوان إلى وجدة و التي يشقها في الجنوب بعض عناصر زناتة البتر. أمّا الريف فهو غماري : و هذه التقسيمات ما زالت موجودة إلى اليوم"

A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.35.

²⁵³ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.22.

التعلق بالحرية. أمّا المدينة فهي تمثل عكس ذلك تماما. و إذا كانت قوانين التطوّر تفرض " المدنية" فإنّه لا مدنيّة حقيقة إلا على أساس من هذه القيم التي نبتت في الجبل. و التضادّ الذي يحرص الحامي على تكراره كلّما تعلق الأمر بهذه الصفات هو التضادد بين "الجبلي" و"الفاسي" أمّا التضادد السياسي الضمني الذي لا يصرّح به علنًا فهو التضادد بين محمد بن عبد الكريم الخطابي و سلاطين العرش العلوي.

إنّ هذا التضادّ يمكن أن يتعدّد إلى ما لا نهاية له إذا فحصنا الرواية فحفا جيّدا فالأمثلة على ذلك كثيرة و هي تشمل الماضي و الحاضر

و أكثر أشكال هذا التضادد تطوّرًا هو التضادد بين قيم "الجبل" و قيم الحضارة الرأسمالية التي حملها الاستعمار الفرنسي إلى بلدان شمال إفريقيا بداية من غزوها سنوات 1830 و 1881 و 1912.

فالأصل المغربي الصافي و المقياس هو إذا أولّا بربري و ثانيا جبلي . و صفات هذا البربري الجبلي كانت صفات المتحقّظ بإزاء المدينة حتى و لو كانت مغربية مثل فاس و الجزائر و تونس.نعم إن المغاربة هم إخوة في البربرية و لكن أنقاهم هو البربري الجبلي الذي من صفاته النفسية أنّه: "فردي رغم خضوعه لقوانين العشيرة و فوضوي مزاجًا و سجيّة كذلك و متعلّق بالحرية حتّى أنّه ليفضّل بسببها مخاطر الحياة البدائية على الوفرة و على أمن المجتمعات المنظّمة."²⁵⁴

و هذه السمات النفسية تكاد تكون طبيعية جغرافية، من صفات انهار ووديان بلاد المغرب:

" هذه الخيوط المائية المتقلّبة مثل الرياح التي تهبّ على المرتفعات إنّما هي شقيقات كلّ وديان و أنهر إفريقيا الشمالية.إنّها ،و إن بحجم أصغر، السبو و الشلف و مجردة و هي مثل روح المزارع المحارب التي تسقي أراضيّه ، تنتقل فجأة من حالة الساقية

²⁵⁴ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.23

البسيطة التي تنقل مياهها الوَحلة بين الحصى الملساء في مجرى بلا ماء إلى حالة سيل تضطرب فيه الأمواج المزبدة التي كوَّتتها أمطار الربيع و ذوبان الثلوج²⁵⁵ هذا التلاؤم بين الطبيعة الجغرافية و الإنسان البربري الجبلي أي "الأرض و الدم" بتعبير علي الحمّامي تولّد عنه عند الإنسان البربري / المغربي سمتان أولهما نفسية وطنية و ثانيتهما نفسية عقلية.

و تتمثل السمة النفسية الوطنية في رفض كلّ دخیل عليه لا يتبربر (قبل الإسلام) أو يتمغرب (بعد الإسلام) لسبب أو لآخر فيذوب في هذه الأغلبية البربرية المغربية الحاسمة بعد أن يكون قد حقق بهذا الاندماج²⁵⁶ دفعا للحضارة المغربية ، فصفاء الدم هنا، إنّما يعني قدرة الجسد البربري ،لسلامته الأصيلة، على "تمثّل " ما دخل فيه من دماء الأقليات و اتسام هذه الأقليات بسمات تسهّل عمليّة " التمثّل " هذه.هكذا كان شأن الفينيقيين " أبناء عمومتنا"²⁵⁷ و عرب الإسلام الأول .

جزء كبير من الفصل الأوّل في رواية "إدريس" المعنون ب"تولّد Germinaison" خصّصه علي الحمّامي للبحث عن سبب قبول البربر الفينيقيين و العرب الأوائل على العكس ممّا كان عليه موقف البربر من اللاتين و الإغريق حيث كان "الرومان و الجرمان و الإغريق في عيون البربر سواء"²⁵⁸

يفسّر الحمّامي قبول البربر الفينيقيين باستعداد هؤلاء للتبربر ، لقد كان عامّة البربر (و الجبليون منهم خصوصا) متحفّظين في البداية إزاء الفينيقيين و لكن المدينة البربرية قرطاج قامت بدور الوساطة في هذا التقارب الفينيقي البربري:

²⁵⁵ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.20.

²⁵⁶ - خطأ التجربة الفرنسية في الجزائر خاصة و في بلاد المغرب عامّة تمثّل في محاولة إدماج الأغلبية البربرية المغربية في أقلية فرنسية (غير صافية) ممّا يفسّر في نهاية الأمر الحرب الجزائرية الفرنسية الدامية.

²⁵⁷ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.23

²⁵⁸ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.31.

" بما أنّ البربري كان ينزل العرق منزلة الدين فهو لم يشعر في بداية الأمر إزاء الفينيقيين المستقرقين²⁵⁹ إلا بنوع من التعاطف المستسلم. غير أنّ قادة البربر الأكبر والأكثر فطنة و الذين تمكّنوا في الشرق [يقصد تونس الحالية] من تأسيس إمارة تتجاوز مستوى القبيلة التقليدي و تمدّنوا شيئاً ما عند اتصالهم بمدينة القضاة²⁶⁰ كانوا يدفعونهم من جهة أخرى²⁶¹ إلى الحدّ

من تحقّظهم إزاء أبناء عموماتهم المشاركة²⁶² و لقد انتهى هذا التقارب بتبرير الفينيقيين ضمن وضع حضاري جديد مكّن البربر من مزيد من الترقّي و مكّن الفينيقيين من أن ينجبوا و هم التجار أصلاً، بعض أعظم القادة العسكريين أي حنبعل الذي سيستلهم خطه "فردريك الثاني و نابليون و مولتكو **Moltke** و شليفن **Schlieffen** و لوندندروف **Ludendorff**".²⁶³ و فعلاً فلقد كان الجيش البونيقي من حيث التجنيد و العدد و الإطارات و السلك الإداري الثانوي بربرياً و كذلك رؤساء الخيالة و المستخدمون في قذف المنجنيق و في قيادة جماعات الفيلة. لقد أقسم [حنبعل] علناً أن يدمّر رومة و أن يبقى المتوسط في عهدة المغرب وحده....و لأوّل مرّة حدث أن غمر أجداد إدريس إحساس غير معهود قبل ذلك عند قبائل بلاد البربر.

²⁵⁹ -Africanisés

²⁶⁰ مدينة القضاة Cité des suffètes هي قرطاج.

²⁶¹ - الجهة الأولى هي هذا التعاطف المستسلم نتيجة قيام قرطاج على أساس من " السياسة التجارية التي كان البربر يقدرّون فيها الأخلاق السلمية الخالية من كل ميل إلى العدوان و إلى العنف " (A.Hammami, Idris, rom.cit., p.23).

²⁶² -A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.23.

و قد تعرض الهادي التيمومي في آخر مؤلفاته "هذه تونس 1956-1987" لهذه السمة التونسية الموروثة التي مفادها "أن التونسيين محاربون و فرسان أضحال لكنهم يحبون الدراسة"، الهادي التيمومي، تونس 1956- 1987 ، تونس، دار محمد علي للنشر، 2006، ص.50.

²⁶³ -A.Hammami, Idriss, rom.cit. , p.26.

إنّ الحرب البونيقية الثانية كانت ترجمة للوطنية الكامنة في القبائل الشمال إفريقية التي اتخذت هيئة تيار قومي أكيد فتسارعت جموع القبائل المغربية ترفع راية الحرب القرطاجية. ولأوّل مرّة كذلك حدث أن تركّزت آمال المغرب حول شخصية بطل قومي. و أيّ بطل!

و عندما وصلت الخيّالة النوميديّة التي تتقدم الحملة إلى المغرب الأقصى كانت القبائل في حالة غليان: كان التجنيد على أشده. و لقد تملّكت جدّ إدريس و هو المحارب الذي لا مثيل له و المتدرّب على الحرب الجبلية

و المصارع ذو العضلات الفولاذية فورة فرح لن تشبّوها إلا فورة الفرّح التي ستتملّك فيما بعد أحفاده و هم يندفعون تحت راية الإسلام هذه المرّة للفتح سالكين خطوط السير نفسها تقريبا²⁶⁴

لفهم هذا الشاهد الطويل لا بدّ من إبداء بعض الملاحظات:

أولاها أنّ "الجبل" لم يشارك في الحرب البونيقية الأولى بسبب عدم وجود قائد من عيار حنبعل يوحد بين أجزاء بلاد البربر فكان الفشل مآل هذه الحرب و لكنه شارك في الثانية بعد توفر عنصر القيادة فكان النصر حليف المغاربة و على العكس من ذلك حدث في عشرينات القرن العشرين (1921-1926) أن ثار الجبل و الريف من دون المغرب السلطاني و الجزائر و تونس بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، ضدّ الخصم نفسه (أوروبا اللاتينية ممثلة في اسبانيا و فرنسا) فكانت النتيجة فشل هذه الثورة. ثانيها: أنّ التغني بالأصل يفترض التأريخ لبلاد البربر أي المغرب فيما بعد لا انطلاقا من الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي و كأنّ العصر السابق على الإسلام هو صفر مجموع إلى عدّة أصفار و لكن انطلاقا ممّا سبق الإسلام. و لذلك نلاحظ أنّ علي الحمّامي يتحدّث عن وحدة شمال إفريقية فعلية أولى تحققت في

²⁶⁴ -A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.24-25.

القرن السابع بعد الميلاد على يدي موسى بن نصير و سيتحدث في مواضع أخرى عن وحدة مغربية ثانية و هي هذه التي ستتحقق على عهد الموحدين في القرن الثالث عشر الميلادي و ستنشأ على أساس سياسي- فكري مغربي مثلث الجوانب لأنه مكوّن من ابن تومرت و ابن رشد و ابن خلدون (و إن كان لاحقاً) و كلّ هذه العمليّات التوحيدية الناجحة ما كان لها أن تكون كذلك لولا توفر قادة عسكريين من الطراز الرفيع بعد نظر و استراتيجيا و معرفة بأعمق ما هو دفين في طبائع الشعوب.

هل كان التفاف البربر كاملاً حول "أبناء عمومته" الفينيقيين المستقرين طيلة الصراع ضد روما؟ إن التاريخ يتحدث عن سيفاكس و ماسينيسا الأميرين النوميديين اللذين خذلا الفينيقيين ووجدوا تعاطفاً عند عامة البربر. فما هو رأي علي الحمامي في الموضوع؟

يردّ علي الحمامي هذا التعاطف الذي كان له صدى حتى في الجبل البعيد عن "نوميديا" التونسية الجزائرية حسب جغرافية اليوم إلى العصبية الدموية البربرية التي لا نعدم لها نظائر عند العرب سواء قبل الإسلام أم بعده فلا مجال عندئذ للحديث عن "خيانة" أو "عمالة" لأن هاتين الصفتين محصورتين عند الحمامي، في من لا ينتصر لقومه:

"في الزمن الذي نحن بصدده كانت حالة تشنج تهز بلاد البربر هزا. وكان أجداد إدريس على الرغم من أنهم لا ينتسبون إلى سيفاكس و إلى ماسينيسا، أمير نوميديا البربريين المتشيعين للسياسة البونيقية، يمجّدونهما تعصّباً دمويّاً و يميلون إلى عقد حلف تضامن إفريقي يحول زوال كل خطر أجنبي ممكن. لقد حدث هذا بعد انتفاضة المرتزقة التي قمعها هملكار بيد من حديد فتأثر لذلك البربر أيّما تأثر"²⁶⁵

²⁶⁵ -A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.24.

فما يجب الإحتفاظ به في الذاكرة حسب الحمامي هو أنه "كان لنكبة زاما²⁶⁶ دويّ مفعج ردّته أصداء الجبل الصائتة. ثمّ مرّ زمن بين انتصار سيبيون و تدمير قرطاج و لكنه بتحقيق أمنية كاتون **Caton** خبر البربر نير العبودية."²⁶⁷

على أن علي الحمامي، إذا كان يقدّم، و إنّ بتحفظ ، تبريرا لماسينيسا و سيفاكس لأن خذلانها حنبعل لا ينطوي على "خيانة البربر" فإنه لا يقتصد في نقد القادة و المتقنين البربر الذين يقبلون بالاحتلال اللاتيني مثلما لا يقتصد في امتداح من قاوموه. و فيما سنعرض له إشارات واضحة إلى شخصيات سياسية و فكرية مغربية قالت في ثلاثينات القرن العشرين بعمل فرنسا و اسبانيا و إيطاليا "التمديني" في بلاد المغرب ففي حين "مرّت ثمانية قرون رأت فيها عيون أجداد إدريس المندهشة مثلما يرى المرء دوران الظلال من خلال بلّورة مشكال (prisme d'un kaléidoscope) أحداثا كثيرة لم يشتركوا فيها"²⁶⁸ إذ حكمتها سياسة استغلال "كان فيها الرومان و الجرمان و اليونان سواء"²⁶⁹

"حكمت روما و بيزنطة إفريقيا الشمالية بطريقة احتفالية: شيوخ يجلسون على كرّاس من عاج و قياصرة يُكلّل الغار جباههم و أباطرة متدنّثون بالبستهم القرمزية الإلهية يحملون بأيديهم صولجان العالم. لقد لمع سيبيون و ماريوس و سيلا و قيصر و أوغست في ذلك لمعانا ساطعا سريعا

²⁶⁶ - موقع هزيمة الفينيقيين في تونس الحالية

²⁶⁷ - A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.26.

و نلاحظ هنا أن فكرة "الجبل" الرقيب و المقياس دائمة الحضور. فماسينيسا و إنّ كان بربريا فهو أمير في "المدينة" التونسية-الجزائرية التي "تمدّنت" و خذلان جيش حنبعل كان إثر احتلاله مدينة Cannes و "إنهاء أسود إفريقية مهمتهم في أحضان نساء روما الجميلات اللاني قبلن بدور العاهرات وطنية منهنّ " A.Hammami, Idris, rom.cit. , p.26
إنّ أثر المدينة المدمر في الجبل واضح وهو في النهاية أمر طبيعي بما أنهتاريخي.

²⁶⁸ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.27.

²⁶⁹ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.27.

و نالت رومة في إفريقيا كلّ ما شاءت : المدن و مقارّ السلطة و أقواس النصر و المسارح و حلّبات المصارعة و المعابد و الحمامات المعدنية والقنوات المائية و الثكنات و الآثار التذكارية و التماثيل، أي نالت كلّ ما يمكن للحجر في نهاية الأمر أن يَهَبَ. و لكنها لم تنل شيئا آخر. فسياستها لم تكن من هذه السياسات التي يمكنها أن تجلب إليها قلب البربري. لقد صيغت القوانين الرومانية صياغة تمكن المستوطنين من اقتطاع العزب بالاستحواذ على أراضي المواطن الأصلي بغية ضمان ما يحتاجه

الشعب - الملك من خبز و من ألعاب سيرك حتى لا يبدي أنيابه لطبقة الأشراف التي ولدت على أنقاض و على شقاء الأجناس المستعبدة. إن هذا تقريبا هو كل ما أمكن لأجداد إدريس أن يحصلوا عليه من السلم الرومانية²⁷⁰

في هذا الوقت بالذات ، هذا الوقت الذي بلغ فيه الاستعمار الاستغلالي الروماني أقصى ما بإمكانه أن يبلغ كان البربري يوبا الذي نصبته روما أميرا على موريطانيا القيصرية (تونس الحالية تقريبا دائما)

"يفكر أيضا أن بإمكانه أن يبهر أسياده باستعراض ثقافة مفرطة في التهذيب لم تحقق له قطعا مزيدا من التقدير. لقد كان متزوجا من أميرة (...) ولدت من علاقة حبّ درامية بين مارك أنطون و كليوباترة و قد

تبناه أوغست و رباه فكان يقلّد تقليدا أخرق أبّهته القيصرية فكان أن تكدّست على رأسه اللعنات و الشتائم و رمى به البربر ببساطة لا مزيد عليها في الحراق

Orties²⁷¹

أمّا شبيهه ، و لكن على مستوى التفكير الديني فهو القديس أوغستين

(354م.-430م.) "و هناك صنف آخر لا يتسع له صدر أجداد إدريس بوجه خاص²⁷² إنه صنف المرتدين و أدوات التصفية القومية الذين تخلّوا، بعد أن وقع

²⁷⁰ -A Hammami, Idris, rom.cit. , p.27.

²⁷¹ A Hammami, Idris, rom.cit. , p.27.

إدماجهم و لثيبتهم (**Latinisation**) ثم تتصيرهم، عن بلد آبائهم و قطعوا رابطة الدم.و القديس أوغستين و يوبا هما نموذجا هذه الفصيلة.فلقد دار أسقف عنابة في مدار يختلف عن مداره الأصلي.وقد هيأته أرثوذكسيته و إخلاصه لمبادئ دين أفقده مريدو الهيلينية (**Hellénisme**) و العقيدة اللاتينية طابعه الشرقي إلى حدّ أصبح البربري غير قادر على استيعابه هيأته أرثوذكسيته، قلنا، إلى مثل هذه الردة. على أنه ليس تنصّر ابن القديسة مونيكا هو ما أفقد القديس أغستين شعبيته في أعين مواطنيه و لكن روميته المبالغ فيها و حماس حادثة تنصره و اندفاع المبشر فهذه العوامل هي التي قادت إلى تفضيل مغتصبي بلده على إخوته في الدم و عرضته للشبهة في عيون أهله.إن هذا الذي كتب مدينة الله **La cité de Dieu** قد ابتداء بنسيان مدينته²⁷³

تعرّض الحمامي عند نقد القديس أوغستين، مثلما رأينا لسمة افتقدها هذا المثقف البربري و هي الوطنية أي إحدى السمتين التي رأينا قبل بضع صفحات أن البربري تميز و ما زال يتميز بها في اعتقاد الحمامي

و وصفانها بأنها صفة نفسية وطنية.إلا أننا نلاحظ الآن في نقد الحمامي القديس أوغستين بداية الحديث عن هذه السمة الثانية التي يرى الحمامي أنها تميز البربري و هي ما أطلقنا عليه عبارة "السمة النفسية العقلية" وملخصها أن البربري الأصل هو طبعاً نفور من التعقيد "الميتافيزيقي" الذي تعبّر عنه في الشاهد عبارة "مبادئ دين أفقده مريدو الهلينة و العقيدة اللاتينية طابعه الشرقي" فالحمامي يكاد يرى في الثلاثي : الأصل (بما يتضمن من بساطة) و العدل و الوطنية وحدة وتقى يختل كل بناء لا يقوم عليها جميعا.

²⁷² - يقارن هذا الشاهد ببعض ما أخذ عليه عدد من المثقفين المغاربة في القرن العشرين.

²⁷³ - A Hammami, Idris, rom.cit. , p.29

لا مكان عند الحمامي لمن يعادي الدين ،سواء أكان يهوديا أم مسيحيا أم إسلاميا و لكن بشرط أن يقع قصر الدين على الفترة التي كان فيها يتسم بهذه الصفات الثلاث.فالمسيحية التي يرحب بها هي:

"مجموعة معتقدات انبجست من قلب راع من الجليل البعيد وجد في الفوضى الاجتماعية التي مثلت أساس البناء الروماني ميدانا مذهلا للعمل (...) إنها فكرة تتضمن في جوهرها شذرة من هذه العدالة الثابتة التي يعثر عليها المرء في كل مكان و على الدوام عندما يظهر أن القوة انتصرت على الحق " ²⁷⁴

و لكن هذه المسيحية الأولى سيصيبها التطور في الصميم إذ : "تكونت الكنيسة في كنف قسطنطين.غير أن هنالك إكليروسا كان ينتزل منزلة الواسطة بين الله و الشعوب.وولدت الإمبراطورية البيزنطية باضطراباتهما التي لم تستطع أن تضع لها حداً.كان الروحي ينحني أمام الدنيوي و كان

ملاذ هذا العالم من ذلك الوقت فصاعدا مقدما على ملاذ الآخر. و لم يعد أمراء الكنيسة أكثر من بارونات الامبراطورية و كانت كنيسة إفريقيا من هذا النمط ²⁷⁵ و مثل المسيحية هو بالضبط مثل الإسلام.أفلم يولد الإسلام على الأسس الثلاثة الأصل (البساطة) و العدل و الوطنية مما دفع بالبربر إلى تبنيه في شكله الأصلي بعد حين ؟و لكن ماذا سيصير إليه مفهوم البساطة ومفهوم المساواة و مفهوم الوطنية بعد فترة غير طويلة؟.

إن السمتين النفسيتين الوطنية و العقلية اللتين رأينا عند تحليلنا رأي علي الحمامي في الصنف المارق و اللاوطني من البربر نجدهما كذلك عندما يتحدث عن الصنف النقيض ممثلا في القائد السياسي يوغرطة و في رجل الدين الأسقف دونات **Donat** (ت. 355 م.) و الحقيقة أن الغنائية الوطنية تبلغ مداها الأقصى عندما يتحدث الحمامي عن يوغرطة

²⁷⁴ - A Hammami, Idris, rom.cit. , p.30-29

²⁷⁵ - A Hammami, Idris, rom.cit. , p30 .

(160 م. - 105 م.) الذي يصوره قائدا عسكريا و مفاوضا سياسيا مراوغا لا يستكف ،واقعية منه ، من استعمال المال وسيلة للنفاز إلى بعض الأوساط الرومانية الحاكمة المُرْتَشِيّة:

" لكن سقوط قرطاج لن يفتّ في عضد البربر فقد تسلم بطل قومي العلم الذي انفلت من الأيدي القرطاجية و برز يوغرطة في الميدان مستعملا وسائل نضال جديدة.كان حيننا يحارب فيالق ماريوس و يهزمها و كان حيننا آخر يلجأ ، عندما تحتم الظروف ذلك ، إلى ما تتيحه دبلوماسية فائقة فانتهدت به براعته في الجدل و معرفته بالأخلاق الرومانية إلى تكوين حزب في قلب مجلس الشيوخ مرتبط به مصالح و في أغلب الأحيان مجدا.و لقد روى ذلك ساللوست **Salluste** في تاريخه المدهش.إنه ما من شك في أن أجداد إدريس الذين كانت تتملكهم الدهشة و المفاجأة في آن واحد قد سمعوا كلمات الاحتقار التي وجهها القائد النوميدي الكبير صوب روما من أعلى ربوة الجانيكول **Janicule** بعد أن جلب إلى صفه مجلس الشيوخ بالثمن المتفق عليه و بعد أن فضح مكاييد مبعوث الوالي:

"أيتها المدينة القذرة كل شيء فيك يباع "

لقد سبق أن دعونا قارئ هذا البحث إلى أن يستحضر في ذهنه كلما قرأ شيئا عن الأحداث القديمة شبيه في الفترة الحديثة والمعاصرة فيوغرطة إنما هو عبد القادر الجزائري و هو كذلك محمد بن عبد الكريم الخطابي.ودونات إنما هو على المستوى الفكري المثقفون المغاربة الرافضون لفكرة "الرسالة التمدينية" الفرنسية والإيطالية و الاسبانية.

و على العكس من ذلك فإن روما التي يصفها علي الحمامي إنما هي فرنسا و نظام الحكم الروماني إنما هو حكم الجمهورية الثالثة (1870-1940) و المتغنون بالحضارة الرومانية إنما هم المتغنون ب"رسالة فرنسية تمدينية"في بلاد المغرب

الذين لا يتمكنون من تعداد محاسن الرسالة التمدينية الغربية ألا بتعداد مثالب الحضارة العربية الإسلامية

و إذا كان الحمامي لا يذكر من هؤلاء المغاربة أحدا فإننا نراه يخص الروائي الفرنسي لويس برتران **Louis Bertrand** الذي كاد يختص في التغني برسالة المعمرين التمدينية بالحديث و في أكثر من موضع:

"لقد بنيت المدينة الخالدة [روما] بحق على أسس من الفساد و الجبن.

و عندما كبر إدريس و فهم معنى الأشياء عن طريق دروس التاريخ سرعان ما تفتن إلى الأسباب التي تدفع كل أشباه [الروائي الفرنسي] لويس برتران **Louis Bertrand** في الأرض إلى أن يمجّدوا، في نفس الوقت الذي يشوّهون فيه تشويها منظما صورة الشرق، حضارة فاجأ سقوطها العمودي الكثيرين أكثر مما فاجأهم ترقّيها و ألقتها العابثين. لقد فهم إدريس لم لم يحرك التألق و العظمة الرومانيين للبربري ساكنا فلم يكثرث بهما. إن الثقافة اللاتينية لم تكن لتلامس إلا نفرا قليلا في أجزاء صغيرة منعزلة من السكان البربر الذين بقوا في غالبيتهم رافضين كل محاولة إدماج. إن جبال خمير و الأوراس و جرجرة و الشلف بقيت صامدة لا تتزعزع. فلا جوبيتير و لا المسيحية لقيّا فيها موطننا يعتدّ به"²⁷⁶

و مثلما رأينا علي الحمامي في حديثه عن أبطال البربر و متقفيهم في علاقتهم بالقوى العظمى القديمة ينظر بعين إلى من مضى منهم و عينه الثانية تتفحص الحاضر نراه أحيانا يقابل حتى ضمن الدين الواحد بين رجال دين ينتمون إلى عصور مختلفة لأن ما يميز بينهم، في نظره ، ليس الانتماء إلى الدين بما أنه في الأصل واحد و لا اختلاف العصر

²⁷⁶ -A Hammami, Idris, rom.cit. , p.28

و لكن...الانتماء العرقي.ففي حين يرسم الحمامي صورة مشرقة لأسقف قرطاج دونات في القرن الرابع المسيحي نراه يرسم صورة قاتمة ل"لافيجري" في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

" ينتمي دونات Donat أسقف قرطاج على الرغم من انشقاقه إلى كنيسة إفريقيا. كان مثل القديس أوغستين بربريا. ولكنه خلافا لأب الكنيسة الشهير لم يرتدّ عن أصوله و لم تمنعه صفة وظيفته الكهنوتية من تمييز الفروق التي تربط بين الدين و السياسة.كان يعيش بين المؤمنين التابعين له يقاسمهم الآلام و الآمال لأنه كان أقرب إلى روح الأنجيل من مواطنه الشهير.وعندما اقتنع دونات بتقصير الكنيسة المتعمد و بأن المظالم الاجتماعية تلقى تسامحا من البابوية و من الأسقفيات رفض الخضوع للتوجيهات البابوية.

لقد تعرض لحرّم الكنيسة و امتحان الكنيسة و الملكية و لكنه تعزى عن ذلك بأن نفث في انتفاضة مواطنيه قوة روحية اضطرت الكنيسة إلى أن تقف وجها لوجه أمام مسؤولياتها.كان ذلك هو أصل نضال ال"سيركونيسيليون" ضد التعسف الروماني (...) فمنذ القرن الرابع عشر لافيغري Lavigerie أسقف قرطاج نفسها الإمتثالي[لأن] لافيغري يعرف أنه لا يمكن أن يوجد توافق بين الأطروحات الروحية في رسالة دينية و نقيضاتها البراغماتية في امبريالية أيامنا هذه" ²⁷⁷

ما هي إذن الأسباب التي دفعت البربر إلى رفض المسيحية و القبول بالإسلام ؟،لقد رأينا في كل ما تقدم أننا إزاء سبب واحد في نهاية الأمر

و هو ضرورة الاستجابة إلى ما يرى علي الحمامي أنه من خصائص الأمة البربرية قديما المغربية بعد الإسلام، نقصد الثلاثي : الأصل (بما يتضمن من بساطة) و العدل و الوطنية، و من معاني الأصل الذي هو الفكرة المركزية في تفكير الحمامي استعداد الفاتح للتبربر أو التمزرب.

و هذا الشرط لم يتوفر عند اللاتين لا قديما و لا حديثا. فعمدوا و هم القلة القليلة إلى محاولة لتينة الكثرة ممّا يعارض حتى قانون الطبيعة. و على العكس من هؤلاء تبرير الفينيقيون و تمغرب الفاتحون العرب الذين كان يمكن لهم، لو أخذوا بطريقة عقبة بن نافع في الفتح ، أن يلقوا ما لقي اللاتين من مصير. و فعلا فإن عقبة بن نافع لم يفهم، في نظر الحمامي، إحدى سمات الشخصية البربرية و هي التعلق بالحرية فكان اندفاعه سبب قتله :

"لم يكن أجداد إدريس يعرفون عن الإسلام شيئا. ولم تسعفهم غريزتهم التي كان من المفروض أن تحبس في هذا الدين شروط عدالة إسلامية بما فيه الكفاية فتثنيهم عن اللجوء إلى القرارات الحاسمة ثم إن اندفاع عقبة لم يكن من شأنه أن يبسط من معطيات القضية فباستثناء زناتة ابن روزمار الذي قبل الإسلام من دون أي تحفظ زمن الخليفة عثمان تكتلت الأغلبية الساحقة من البربر أولا حول كسيلة و بعد ذلك حول الكاهنة. ومن الأوراس إلى الريف لم يتخلف أحد عن أداء الواجب الذي يفرضه عليه قانون الانتماء الوراثي حتى الموت"²⁷⁸

لا يقتصد بعض مؤلفي الكتب المدرسية و حتى غير المدرسية من المنتمين إلى التيار الديني السلفي و حتى العروبي في لعن القائد البربري كسيلة و القائدة البربرية الكاهنة بسبب مقاومتهما الغزوات العربية و الحال أن هذين القائدين لم يكونا، في نظر الحمامي، إلا تعبيراً عن السمات المميزة للجنس البربري و هي التعلق بالحرية.

لم أسلم البربر إذن؟ لأن الفاتحين اندمجوا في البربر ضمن مصير واحد أصبح الجميع بمقتضاه مغاربة : فمثلاً تولى الفاتحون عن جزء من خصوصيات الجنسية العربية، تولى البربر كذلك عن جزء من خصوصياتهم العرقية فأصبح بالإمكان قبر العبارة "بلاد البربر" (**La Berbérie**) لتحل محلها عبارة "بلاد المغرب" و هذا هو بالذات ما يفسر تشبث الإستعمار اللاتيني بالصيغة القديمة أو بصيغة ملطفة عنها

²⁷⁸ - A Hammami, Idris, rom.cit. , p.33

و هي "بلاد شمال إفريقيا".

إن هذا التفسير الذي يمكن علي الحمامي من تبرئة كسيلة و الكاهنة (و الذي يقود بالضرورة إلى الحد من دور عقبة) هو الذي يفسر المكانة المركزية التي ينزل فيها الحمامي موسى بن نصير:

"دامت الحرب نصف قرن. لقد أنهاها ، بعد أن بدأت مع عمرو [بن العاص] ابن نصير بوصفه قائدا عبقريا مكنته دبلوماسيته و نظرته البعيدة من أن يفهم كل الفائدة التي يمكن أن يربحها الفتح الإسلامي من شعب له من البسالة ما لسكان إفريقيا. بهذا، إذن، أمكن للمرء أن يشهد ملاحم الفرسان في إسبانيا و في بلاد الغاليين. إن انتصارات الإسلام في إفريقيا الشمالية هي التي حسمت في أمر سمات التركيبية الإثنية و الثقافية التي ميزت ولادة شعب مغربي جديد. فحيث فشل الرومان و الإغريق و حيث لم تتجح قرطاج أيضا إلا بمقدار تمكن العرب، عن طريق الإسلام من تحقيق عملية اندماج باهر. لكن علينا ألا ننسى أن الإسلام وحده هو الذي انتصر في نهاية المطاف"²⁷⁹

إن عبارة "الإسلام المغربي" من العبارات التي يكثر الباحثون الغربيون من استعمالها سعيا منهم في كثير من الأحيان إلى فصل المغرب عن المشرق فيقاومهم خصومهم من الإسلاميين برفض هذا المفهوم لأنه "تقسيمي" و استعماري. أما الحمامي فهو يحارب مضموني العبارة عند الباحثين الغربيين و الإسلاميين جميعا إذ "الإسلام المغربي" عنده هو هذا الإسلام الذي ولد نتيجة الاندماج في ميدان القتال، ضد أوروبا، بين القلة من العرب و الكثرة من البربر الفاتحين أي هذا الإسلام الذي ولد في الفترة التي ولد فيها "الشعب المغربي الجديد" ف"الشعب المغربي الجديد" ليس هو تماما الشعب العربي و ليس هو تماما الشعب البربري و لذلك فإن الرابطة السياسية بين الدول المغربية و مختلف الخلافات في المشرق ستتراخي شيئا فشيئا منذ ولادة

²⁷⁹ -A Hammami, Idris, rom.cit. , p.33

"الشعب المغربي الجديد" كما أن حضارة جديدة ستتشأ في صلب هذا الشعب الجديد هي الحضارة الموحدية.

كتب الحمامي عن تمغرب العرب الفاتحين :

"سلكت السلالات والقادة العرب المسلك نفسه. فهم تأفرقوا تماما مثل الفينيقيين و من دون أن يفقدوا المزايا الأصلية المميزة لجنسهم أصبحوا مغاربة راسخين خالصين لقد اندمج أمراء قرطبة و الأغالبة و الأدارسة

و الرستميون و السعديون في تاريخ المغرب اندماج المرابطين الموحدين. فعندما أسس عبد الرحمن الثاني خلافة المغرب لم يفعل أكثر من تأكيد هذا التقليد و هذه كانت أيضا سياسة المنصور. إن سيادة بغداد على تونس زمن زيادة الله بن الأغلب لم تكن إلا وهما محضا. وحتى الفاطميون لم يجرؤوا البتة رغم أصول مذهبهم الشيعي المشرقية على الوقوف ضد هذا التيار الامتصاصي الذي هو الدليل الجليّ على قدرة البلد [المغربي] الإدماجية"²⁸⁰

و كتب في موضع آخر، و بصورة مطولة عن استقلال المغرب:

"إن التاريخ [التقليدي] لم يكن إلا مجموعة نواذر غثة متناثرة مستخرجة [من وريقات كتب] تهتم بمجمل المجموعات الإسلامية أكثر مما تهتمّ بحياة شعب واحد من هذه الشعوب. ونحن اليوم لسنا نعيش في زمن الخلافة. ومن ناحية أخرى فإن المغرب لم يبد البتة استعداد كبيرا للقبول بالتخلي تخليا صريحا عن استقلاله لا بعد الإسلام و لا قبله. و إذا كان قد أصرّ أن يلعب دوره في المبارزات الكثيرة بين المشرق و المغرب فإنه لا واحدة من محاولات إخضاعه نجحت نجاحا نهائيا. إن ثورة الخوارج الكبيرة كانت موجهة ضد بعض مظاهر تعسف خلافة دمشق و انتهت إلى الانتصار. و باستثناء سيادة اسمية محض على تونس لم يكن للعباسيين أي نفوذ على شمال إفريقيا. إن أموي قرطبة و الفاطميين والأدارسة و الرستميين كانوا مغاربة بالمعنى الأكثر اتساعا للكلمة. أما اعتراف الجزائر و تونس بالخلافة العثمانية

فكان (استجابة) لضرورة تقوية الجبهة الموحدة ضد الغزو الأوروبي مما سيجعل فيما بعد الإمبراطورية العثمانية آخر معقل للإسلام المستقل. وفي هذا الإطار التاريخي لسنا بحاجة إلى القول إن المغرب لم ييخل البتة بإسهامه²⁸¹ هذا الاستقلال السياسي عن المشرق وافقه على المستوى الحضاري عموما نشأة حضارة مغربية بلغت أوجها زمن الموحدين في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر الميلاديين:

" عرف المغرب ملحمة بمجيء المرابطين و الموحدين و امتزجت الأمجاد العسكرية بفتوحات فكرية ضمن حضارة لا مثيل لها. لقد بلغ المغرب مع ابن تومرت و عبد المؤمن أوج عظمتهم. وتبلور الوعي الوطني باطراد على الرغم من ترسبات الكتل القبلية. لقد ازدهرت العلوم و الفنون من ضفاف التاج إلى وادي السبو و مجردة²⁸²

فإذا كان المرابطون يمثلون طفولة هذه الحضارة المغربية فإن الموحدين يمثلون ألقها الذي يجب أن يستضيء به كل مغربي يطمح إلى بناء مغرب جديد موحد المصير :

"لقد دارت عجلة التاريخ فاخترى المرابطون هم كذلك من المسرح مفسحين المجال للموحدين المصامدة و ظهر عوضا عن علم تفسير تشتم منه رائحة هرطقة الانحرافات الكلامية المغالية (...) عقيدة تستلهم الإسلام الأول. و هكذا تمكنت أفكار ابن تومرت التوحيدية من المغرب. لقد أكمل ابن تومرت، مع ابن رشد و ابن خلدون، الثالوث الأروع الذي سيرى فيه إدريس مركز تاريخ و حضارة بلده و رمزها. فقد اعتمد إدريس هذا الثالوث مثلا يحتذى و كان غالبا ما يأسف عندما سيثيره عقله الجسّاس على شيوخ القرويين عديمي الجدوى المتحذلقين الذين يلقون جزافا، بعد قرون من هذا الثالوث، بمفاهيم كلامية عفى عليها الزمن

²⁸¹ -A Hammami, Idris, rom.cit. , p.138-137

²⁸² -A Hammami, Idris, rom.cit. , p.38

و غاب منها كل مضمون عقلي. كان إدريس يأسف أن يكون أمثال هؤلاء الصقور قد حلقوا فوق الأطلس من دون أن يسقطوا أية بذرة. أما في عبد المؤمن و في الخلافة الموحدية فسيتبين إدريس المستوى الباهر لخصال جنسه الخلافة. إن عصر المغرب الذهبي عندما كانت قرطبة في بالغ ألقها سيكون له الأثر الأكثر نفعا في إدريس و لسوف يقارن، عندما يحين الوقت، بين هذا القرن المبارك و قرون بيريكليس

Périclès

و المأمون و لويس الرابع عشر، محافظا على إعجاب بالعلوم الإنسانية ليس بإمكان أي فكرة مسبقة أن تضعفه. إن إدريس سيتبين في الإمبراطورية الموحدية التي تشير إلى أوج المغرب حصيلة القوى الحرة بأن تكون قاعدة و مثالا للقومية المغربية: الوحدة العقدية (و هذا أمر لم يعد ضروريا بعد انتصار الإسلام) و الوحدة القومية، و على هامش هذا التأثير المتبادل، الازدهار الفكري الذي يرسخ بناء الأمة

و يمكنه من أسس صلبة²⁸³

و يفصل الحمامي الحديث عن هذا الثالوث القدوة فيصف تفكير المهدي بن تومرت و صفا يلائم ما يرى الحمامي أنه سلفية مغربية متميزة تلائم ذهنية المغاربة أي أنها سلفية ميزاتها البساطة و التمكين لفكرة العدالة الاجتماعية و الانتماء بالوطنية، و هي تقريبا الميزات التي نسبها إلى الأسقف البربري دونات في القرن الرابع الميلادي: "كان للمغرب رائد سلفي ذائع الصيت. إنه ابن تومرت. لقد كان بربريا اجتذبه منذ سن مبكرة مشعل الثقافة العربية فارتحل إلى المشرق (...) كان الإمام الغزالي عندما وصل ابن تومرت إلى بلاد الرافدين في أوج تألقه (...) لقد ترك الغزالي أنصارا و خصوما. فالأنصار يتفقون في النظر إن لم يكن إلى شخصه فإلى أعماله على أنها المثال الكامل لإيديولوجيا ينصهر فيها العقل انصهارا موفقا في الإيمان متأسفين مع ذلك أن لا يكون تعليمه قد فهم أو وقع احتذاؤه. أما الخصوم فقد ندّوا به

²⁸³ -A Hammami, Idriss, rom.cit. , p.38-39

و هم ينفون من البداية قيمة نظرياته و طرقه في حدّ ذاتها باعتباره حفار قبر الفلسفة الليبرالية و الانطلاقة الفكرية التي بدأت تحليقها تحت رعاية الاعتزال لتبلغ في نهاية المطاف ذرى مهجورة منذ غروب الثقافة القديمة (...من هذا النبع بالذات شرب عُقاب تينمال [ابن تومرت] قبل أن يذهب

إلى بغداد فيطلع على أطروحات السلفية الحنبلية التي كانت بغداد تنتهياً سرّاً لتقبلها على الرغم من معارضة الترك السلاجقة العنيدة . و من هذه الإسهامات ولدت في نهاية الأمر العقيدة الموحدية التي إن كانت ولدت في قمم الأطلس المععمة بالثلوج فسيكون ازدهارها التام في جامعات قرطبة. إن هذه فهي السلفية الحقيقية المثالية التقدمية في نفس الوقت: من ابن تومرت إلى ابن رشد²⁸⁴

هذه السلفية المغربية "عقلانية متتورة" و هي مشبعة بالذهنية المغربية لذلك فهي تختلف عن بقية السلفيات الإسلامية:

"كان الخوارج سلفي الإسلام الأول. أما الحنبلية و روافدها فهي سلفيات أخرى. و هناك مدرسة ثالثة خاصة بإفريقيا الشمالية ولدت تحت رعاية الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية: إنها مدرسة ابن تومرت و هي متشبعة بذهنية مغربية خاصة تحدد ملامحها"²⁸⁵

فلا مجال عندئذ للخلط بين هذه السلفية المغربية و السلفية الوهابية الحنبلية مثلاً بدليل " أن هذه السلفية الموحدية العقلانية على النقيض من السلفية الحنبلية الوهابية التسووية و لكن المعادية للتطور و للمجتمع أمكنها أن تلد حضارة رائعة و خصبة"²⁸⁶ هذا في ما يتعلق بالمهدي بن تومرت، أحد الثلاثي الرمز و القدوة فما هي العلاقة التي تربط ابن تومرت بابن رشد ؟

²⁸⁴ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.191

²⁸⁵ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.93-94

²⁸⁶ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.94

يرى الحمّامي، على نقيض الكثيرين الذين يركزون على امتحان الدولة الموحدية ابن رشد²⁸⁷ أن العين النقدية النافذة يمكنها أن تعثر على خيط دقيق و رفيع يصل هذين العَلمين بعضهما البعض:

" و مثلما تولد الاعتزال المتفتح العلمي عن المذهب الخارجي الذي هو تقريبا الوجه الفكري المعبر عنه فإن الرشدية الأندلسية تولدت من السلفية الموحدية. إن مجموعة الظواهر الغائية و علاقة خاصة بين العلة

و المعلول تهيمنان على هذين التيارين الفكريين و تربطان بينهما — و تضعانهما معا على عتبة أصل واحد يهدف عن طريق تعديلات متكررة إلى تحرير الفكر الإسلامي عضويا و اجتماعيا. فبقراءة متمعنة "للمرشد و للتوحيد" اللذين ألفهما الداعية الشمال إفريقي الشهير يمكن للعين المتمرسة أن تتبين بوادر علامات مؤكدة و نوعا من التجسيد المسبق الدقيق يعثر عليهما المرء فيما بعد في كتابات ابن طفيل و ابن رشد²⁸⁸

و إذا كان ابن خلدون يقع خارج إطار الدولة الموحدية الزماني فإن هذا لم يمنع الحمّامي من إدراجه ضمن ثالوث القدوة بل قد يكون هذا التأخر الزماني هو الذي دفع الحمّامي إلى أن يرى في ابن خلدون تجسيدا "لجدل بين مبدأين متناقضين يصعب أن يلتقيا" و فعلا فقد كتب عنه الحمّامي في تعاطف لا يخلو من الإحساس بالألم :

"كان صقر الأطلس يحب بإفراط في حياته المرتفعات الشاهقة و الذرى السنيّة (...) و فعلا فإن ابن خلدون هو الجدل بين مبدأين متناقضين يصعب التوفيق بينهما"²⁸⁹ هذه الحضارة المغربية التي تعرضنا لبعض مميزاتها الدينية و العقلية و النفسية و التي اكتملت زمن الموحدين المصامدة ستبدو عليها علامات الضعف بداية من نهاية

²⁸⁷ - و منهم رينان الفرنسي و فرح أنطون الشامي، انظر في هذا الموضوع م.ن. النفزاوي "الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده فرح أنطون، نونس، مركز النشر الجامعي، 2000، الذي استغللناه استغلالا مكثفا.

²⁸⁸ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.95

²⁸⁹ - A. Hammami, Idriss, rom.cit. , p.137

هؤلاء أي عند ولادة بناتها الثلاث: الدولة الحفصية في المغرب الأدنى (تونس) و الدولة الزيانية في المغرب الأوسط (تلمسان) و الدولة المرينية في المغرب الأقصى (فاس)

"حكمت الممالك الزيانية التي انبثقت من رماد الخلافة المؤمنية، بعد ذلك شمال افريقيا مدفوعة بنزعات إقليمية يمكن مقارنتها بالطائفية الأندلسية ، مع ذلك فإن المرينيين و الزيانيين و الحفصيين لم ينقطعوا حتى و هم يضعفون الأمة و يمهدون الطريق لاستعبادها في المستقبل بتجزئة مجالها قبل الاوان عن مواصلة تنمية دور الحضارة الاسبانية الموريسكية في إفريقيا"²⁹⁰

الدول الحفصية و الزيانية و المرينية، أي بنات الدولة الأم، الدولة الموحدية، ليست إذن غير فروع من هذه الشجرة الكبيرة الأمة المغربية و لن يخدم التاريخ الوطني المحلي الذي يركز على واحدة من هذه الدويلات غير الفكرة القطرية الضيقة في كل قطر من أقطار الأمة المغربية أي ما سيعرف لاحقا بأسماء تونس و الجزائر و مراكش. و لكن ما هي، في نظر الحمامي، أسباب سقوط الخلافة الموحدية الذي سيزامن تقريبا بدايات نهضة غربية ستعرف فيما بعد باسم الحضارة الغربية؟

للإجابة عن هذا السؤال الصعب: سؤال لم؟ لا بدّ من التعرض لإجابتين متناقضتين تقع بينهما إجابات ثانوية متنوعة تلجأ إلى الأخذ من هذه الإجابة الكبيرة أو تلك بنسب مختلفة²⁹¹ و تقع ضمن هذه الإجابات إجابة علي الحمامي:

"الإجابة الكبرى الأولى هي تلك التي تولي العامل المادي أهمية حاسمة فتفسّر أقول الحضارة الإسلامية و شروق الحضارة الغربية (و إن لم يقع الاتفاق على فترة محدّدة : القرن الثالث عشر أو الخامس عشر...) بولادة نمط جديد من الإنتاج ساير ولادة نظرة جديدة إلى الأشياء: هذا النمط الجديد من الإنتاج هو النمط الرأسمالي و

²⁹⁰ - A. Hammami, Idriss, rom.cit. , p.39

²⁹¹ - محمد الناصر النفزاوي ، الدرس التكميلي في ماجستير الحضارة المعاصرة 2005-2006 بعنوان: المدارس الغربية و مناهجها و أثرها في التفكير السياسي العربي المعاصر.

هذه النظرة الجديدة هي النظرة الحديثة أي الرأسمالية. وفي هذا الموضوع كتب أحد الماركسيين العرب:

ما هي الأسباب الاجتماعية و التاريخية التي مكنت أوروبا الغربية من القيام بالثورة الصناعية، و من الانتقال إلى هذا النمط من الإنتاج؟ بل ما هي الأسباب التي منعت البلدان العربية من القيام بهذه الثورة قبل أوروبا الغربية، مع العلم بأن الشروط العلمية و التقنية متوفرة في هذه البلدان،

و في غيرها أيضا ، كالصين مثلا في القرن الخامس أو السادس الميلادي؟ هذا السؤال الثاني يطرحه مثلا، بهذا الشكل المؤرخ الفرنسي إيف لاکوست و يجيب عليه بأن العامل الاجتماعي الذي افتقدته البلدان العربية، و الذي توفر وجوده في أوروبا الغربية، هو تكون طبقة اجتماعية هي البرجوازية التي استخدمت المعارف العلمية و التقنية في حقل الإنتاج الاقتصادي بشكل كان حافزا قويا لتطور العلم و التقنية. أما المجتمعات العربية الإسلامية في القرون الوسطى فلم تتكون فيها مثل هذه الطبقات التي تكونت في إطار علاقات الإنتاج الإقطاعية و عدم تكونها راجع إلى بنية نمط الإنتاج الاستبدادي أو "الآسيوي" الذي يتميز بانعدام الملكية الخاصة فيه لوسائل الإنتاج حتى في شكلها الإقطاعي.

و مهما يكن من أمر هذا الافتراض العلمي (...) فإن المنطق الذي يعتمده في البحث على نقيض المنطق المثالي، يركّز الضوء، في عملية التفسير التاريخي و البحث عن أسباب الظواهر الاجتماعية ، على الشروط المادية للإنتاج الاجتماعي و منه الإنتاج الثقافي -و بالتالي على بنية علاقات الإنتاج الخاصة بنمط معين من الإنتاج تنتمي إليه البنية الاجتماعية في وجودها التاريخي²⁹²

و أضاف ماركسي عربي آخر:

"هذا كله صحيح و لكنه غير كاف، أعني أن حضارات كثيرة سابقة عرفت ظواهر مثل المدن النامية و الصناعات الحرفية المزدهرة

²⁹² - مهدي عامل، أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، بيروت، دار الفارابي، ط.6، 1989، ص.89.

و الطبقات التجارية المتنفذة ،كذلك بالنسبة للاكتشافات العلمية البارزة
و الاختراعات الميكانيكية الهامة إلخ لذلك أعتقد أن ما يميز العصر الأوروبي
الحديث هو هذا الاتحاد العضوي الفريد الذي تمّ-على مراحل طبعا و لكن للمرة
الأولى في تاريخ الإنسانية - بين المصالح الحيوية للطبقات التجارية الصاعدة و بين
الاكتشافات العلمية و الاختراعات التقنية و الميكانيكية الجديدة.أريد أن أشير إلى
صيرورة تاريخية معينة في تطور أوروبا الحديثة أدّت إلى ربط المعرفة العلمية-
قديمها وجديدها- نهائيا بطرائق البورجوازية الأوروبية الصاعدة في إنتاج الثروة و
مراكمتها فقد صنع الفلكي الشهير جاليلو منظاره الفلكي الشهير استجابة لرغبة
الشركات الملاحية الأوروبية الكبرى التي دخلت معه في مفاوضات لشراء اختراعه،
وبالفعل قام بتطوير منظار مناسب لأغراض الملاحة كما أن مشكلات تطوير
المدفعية الثقيلة و تحسين أدائها دفعته إلى دراسة ظاهرة السقوط الحرّ للأجسام
فأعطى العالم قانون المسار المنحني للقذيفة.

أما (جلبرت) فقد ركّز جهوده العلمية كلّها على الظاهرة المغناطيسية بسبب ما
اشتكت منه شركات الملاحة البحرية من وقوع انحرافات غير مفهومة وقتها في إبرة
البوصلة الحربية و قد شغل (توريتشالي) مكتشف قوانين الضغط الجوي ما كان
يعترض القائمين على صناعة التعدين

(الذهب و الفضة لسك النقود و الحديد و النحاس لصنع المدافع الثقيلة) من عقبات
مثل تهوية المناجم و ضخّ المياه المتجمعة فيها بطرق سريعة و فعالة أما (إسحق
نيوتن)-الساكن في برجه العاجي دوما و صاحب التفاحة الشهيرة وفقا للأسطورة
السائدة-فقد انصبّ جزء هام من نشاطه العلمي على المعادن و صهرها و خلطها.
أجرى معظم أبحاثه و دراساته في هذا الميدان في الدار الملكية البريطانية لسكّ
النقود. و كما هو معروف اكتشف نيوتن المبادئ العلمية العامة التي سمحت- من

حيث المبدأ- بحل القسم الأكبر من المشكلات الفيزيائية و التقنية

و الميكانيكية المطروحة على تقدم الملاحة و التعدين و الهندسة المعدنية

و إنتاج الأسلحة النارية كذلك كانت دراسة نيوتن للنواس و لقوانين حركة القمر حاسمة بالنسبة لمشكلة تحديد خطوط الطول و ضبط حركة المدّ

و الجزر في المرافئ ،و مصبات الأنهار.في الواقع شكل البرلمان الانكليزي يومها لجنة خاصة لمتابعة الدراسات المتعلقة بمسألة تحديد خطوط الطول و كان نيوتن أبرز الأعضاء فيها.طبعاً لائحة الأمثلة لا تنتهي.لقد بزغت إمكانية تحويل التقدم العلمي و التقني بصورة منتظمة

و مدروسة إلى رأسمال من ناحية، كما برزت إمكانية قيام الرأسمال بالبحث المنتظم و المدروس عن المزيد من التقدم العلمي و التقني من ناحية ثانية أي أضى للرأسمال مصلحة حيوية في العلم، كما أصبح التقدم العلمي مصلحة لا تقل حيوية في الرأسمال.هذه ديناميكية حضارية جديدة تماماً لم يعرفها الإنسان من قبل على الرغم من أن حضاراته

السابقة عرفت كلا من التجارة و الصناعة و الرأسمال و العلم و التقنية. طبعاً،برهن هذا المزيج الجديد أنه طاقة متفجرة هائلة إلى أبعد الحدود،مدمرة و خلّاقة في وقت واحد.هذه الطاقة هي التي صنعت ما يسمى بالحدّاث و شكّلت العالم الحديث و قضت على القديم.²⁹³

فهل يمكن القول إن الحمامي كان يذهب مذهب الماديين التاريخيين في تفسير سقوط الحضارة التقليدية [ما قبل الرأسمالية] التي تتدرج ضمنها الدولة الموحدية و نهوض الحضارة الحديثة [الرأسمالية] ؟

إننا لا نعتقد ذلك لما رأينا من أنه يردّ كل شيء،تقريباً إلى "الروح" أو "العامل الفكري" و ذلك على الرغم من عديد الإشارات في رواية "إدريس" إلى ما هو قريب روحاً من مضمون الشاهدين: من هذه الإشارات حديثه عن الحملات الغربية على المشرق و المغرب " في زمن كانت فيه مراكب كولومب السريعة ذات الصواري

²⁹³ - صادق جلال العظم، ثلاث محاورات فلسفية، دفاعاً عن المادية و التاريخ(مداخلة نقدية مقارنة في تاريخ الفلسفة الحديثة و

المعاصرة)، بيروت، دار الفكر الجديد، 1990، ص.32.

الثلاث أو الأربع ترسو في الأرض الجديدة و علم الصليب يُصوّت فوق كوالثها²⁹⁴
"فبداية فقدان التوازن بين الحضارتين المغربية و الغربية بدأ منذ هذه الفترة
بدليل أن الأمر تجاوز منطقة الصراع التقليدي بين جنوب المتوسط و شماله إلى
القارة الأمريكية و لذلك فإن "إنهاء الهيمنة الإسلامية على إسبانيا سرعان ما عقبه
الغزو المسيحي لإفريقيا²⁹⁶"

و إن نحن غرضنا النظر عن مثل هذه الملاحظات العابرة أي التي لا يمكن أن
تتدرج ضمن نظرة كاملة إلى الأشياء فإن المجال ينفصح أمام المرء ليرى في
غضون رواية إدريس جميعها إيمانا لا نهاية له بأن العامل الفكري هو محرك
التاريخ.و يكفي أن نشير إلى المكانة التي نزل فيها الحمامي ابن رشد (أي في نهاية
المطاف أرسطو) حتى نقنع بأن الحمامي يتأسف على أمرين :أقول نجم أرسطو و
ابن رشد في المغرب و استمرار ألقئهما في الغرب في حين أن هذا النجم المزدوج
بدأ يأفل في الحضارتين التقليديتين المغربية و الغربية معاً إذ أن كريستوف كولمب
الذي تحدث عنه الحمامي و أعوانه "عندما اكتشف القارة الأمريكية لم يدُر في خلداهم
محاربة تعاليم توما و لكن مع هذا طعنوا الإنجيل طعنة نجلاء،ذلك أن الإنجيل و
أرسطو كانا يجمعان كل المعرفة الإنسانية، وهذه المعرفة كانت تجهل وجود أمريكا
297،

الحمامي إذن يمكن أن يُدرج ضمن هؤلاء المفكرين المغاربة و المشاركة الذين
استندوا في قراءة التاريخ إلى أرنست رينان الوضعي تحقيقا تاريخيا و نظرة
تاريخية وضعية لا تولي العوامل المادية في الدفع بالتاريخ أهمية تذكر و إن كان

²⁹⁴ - جمع كوثل مؤخرة السفينة

²⁹⁵ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.40.

²⁹⁶ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.40

الحمامي ، و هو يسلك هذا المسلك قد خلص رينان من نزعته الاستعمارية و لنقرأ رينان و الحمامي معا حتى نتبين وجهة هذا المذهب في القول.

يرد رينان بداية اختلال التوازن الحضاري المغربي الغربي تاريخيا إلى القرن الثالث عشر الميلادي و فلسفيا إلى خفوت صوت ابن رشد في المغرب و الأندلس و تعاليه في البلاد الغربية :

"فمن سنة 1130 إلى 1150 استقر بطليطلة مجمع نشيط للترجمة رعاه رئيس الأساقفة ريمون فنقل إلى اللاتينية أهم مؤلفات العرب العلمية. فمن بدايات القرن الثالث عشر الأولى كان أرسطو العربي محلّ إحتفاء بالغ في جامعة باريس فتمكن الغرب من التحرر من تخلف دام أربعة أو خمسة قرون : لقد كانت أوروبا إلى هذه الفترة تابعة علميا للمسلمين.

و في حدود منتصف القرن الثالث عشر مازالت كفة الميزان بعد غير مستقرة. و بداية من 1275 تقريبا ظهرت حركتان بشكل جلي : فمن ناحية غرق المسلمون في انحطاط فكري بالغ و من ناحية أخرى دخلت أوروبا الغربية من جهتها بثبات في هذه الطريق الواسعة من البحث العلمي عن

الحقيقة (...). فعندما بث العلم المسمى بالعربي بذرة الحياة في الغرب اللاتيني اختفى. و في حين كان ابن رشد قد بلغ في المدارس اللاتينية شهرة أرسطو كان إخوته في الدين قد نسوه فبانقضاء سنة 1200 تقريبا لم يعد هناك فيلسوف ذائع الصيت لقد كانت الفلسفة تتعرض دائما للإمتحان في الإسلام و لكن بطريقة لم تتجح في إلغائها. و بداية من سنة 1200

تغلّبت ردة الفعل الكلامية كليا. لقد ألغيت الفلسفة في البلاد الإسلامية.²⁹⁸

²⁹⁸ - Ernest Renan, l'islamisme et la science, Paris, 1883, p. 14.

و لسوف ينحو فرح أنطون (1874 - 1921) في العقد الأول من القرن العشرين نحو ارنست رينان التاريخي الوضعي (المثالي غير المادي) في ردّ سبب هذا الانقطاع الحضاري إلى الفكر وحده "متأسفاً" على فقدان خلفاء لابن رشد:

"لم يشتهر أحد (من تلاميذ ابن رشد) في الفلسفة بعده و ذلك لأحد سببين فإما أنهم خافوا أن يقعوا في ما وقع فيه أستاذهم في حياته و إما أنهم كانوا غير مستعدين لهذه الصناعة الخطيرة التي تقتضي استعدادا نظريا وربما كان السبب الثاني هو الأرجح إذ لو كان أحدهم مستعدا لذلك استعدادا حقيقيا لرفع صوته مهما حاول الناس إسكاته لأن الحقيقة متى وجدت طريقها جرت فيها بقوة الصاعقة فلا يقف في وجهها شيء. و ما طريق الحقيقة سوى القوى الأدبية العظيمة التي هي كل الإنسانية في الإنسان و التي تدفع النفس إلى العمل الحر و القول الحرّ مهما كانت النتيجة"²⁹⁹

هل خالف الحمامي هذا التحقيب و هل رأى لهذا الانقطاع الحضاري سببا غير السبب العقلي؟

إذا كان الحمامي يعوّض ابن رشد بابن خلدون، سعيا منه إلى تمديد فترة إشراق الحضارة الموحدية فإنه يتبنى التحقيب نفسه تقريبا و السبب الفكري نفسه محركا للتاريخ:

"لقد مات بموت ابن خلدون روح بغداد و قرطبة و المراكز الفكرية التي نجت من غرق الفكر القروسطي لم تعد غير عناصر مشتتة من فكر فقد منذ زمن بعيد مضمونه الحقيقي"³⁰⁰

في موضع آخر يكتب متألما:

"إن عندنا في تاريخنا المغربي، حلقة مفقودة. لقد حطّ ابن خلدون، وهو كاهننا، فوق ذرى الأطلس من دون أن يفكر البتة في أن يبني فيها عشا له. وهذا مثل بالنسبة إلينا خيبة كبيرة، لقد اكتفى بأن ضرب الهواء بجناحيه ضربات قوية قبل أن يهاجر إلى

²⁹⁹ - فرح أنطون، ابن رشد و فلسفته، بيروت ، 1988، ص.278.

³⁰⁰ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.210

المشرق حيث انتهت شعلته المضيئة المعدّبة بالانطفاء تحت أقدام تيمور لك، بعد ذلك كانت الفوضى أو ما هو قريب منها³⁰¹

إن الحلقة المفقودة في تاريخ الحضارة المغربية تعدّ ستة قرون كاملة ملؤها "الفوضى" و ليس يكفي المغربي أن يعزي نفسه بذكرى الماضي

الذي كان فيه أجداد الحمامي قادة فكريين و أجداد ليوتي و ساسة الجمهورية الثالثة الذين قضوا على ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي في وضع الأقنان: لقد كان "لاروقان" و مرؤوسوه يجرون المحراث على وقع سياط السيد مثلما تثبت ذلك الكتب المدرسية في فرنسا، عندما كان ابن رشد جدّ إدريس، يلقي على ظلمات أوروبا القروسطية ألق فكر كان أساس تحرّر من سيمثلون فيما بعد دور المطفأة في إفريقيا الشمالية³⁰²

ستة قرون كاملة هي إذن عمر هذا الانقطاع الحضاري الذي تمكنت فيه الدول الرأسمالية من استعباد العالم ما قبل الرأسمالي و قضت في بلاد المغرب، على آخر انتفاضة مغربية فيه، انتفاضة محمد بن عبد الكريم الخطابي فما العمل؟ و يجيب الحمامي بعد ما آلت إليه ثورة الخطابي :

"إن الشعب [المغربي] و قد تعرض للفتح ووقع تحت تأثير الاستعمار، مهدد بالموت. إن أعوزته الثقافة الاجتماعية. وقد يطول استعباده إن بقي على هذا الجهل ، لذلك عليه أن يردّ الفعل (...) و لكن بأية وسائل ؟ بالكفاح المسلّح أم بتربية الشعب؟ بالمنصور أم بابن خلدون؟"³⁰³

³⁰¹ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.254

³⁰² - A. Hammami, Idriss, rom.cit. , p.235

³⁰³ - A. Hammami, Idris, rom.cit. , p.280

إنه سيختار تربية الشعب و أول شرط من شروط نجاح المدرسة هو غرس الإيمان
بالفكرة المغربية و بمرجعها الدولة الموحدية باعتباره إيماننا بقي المغرب من الأدواء
التي ألمّت به طيلة فترة الانقطاع الحضاري الطويلة.

الفصل الثالث:

مركز الأجانب في مراكز، دراسة تحليلية

كتاب جديد ١٩٨٠

مكتبة المذهب العثماني

٢٥٨٠

مكتبة المذهب

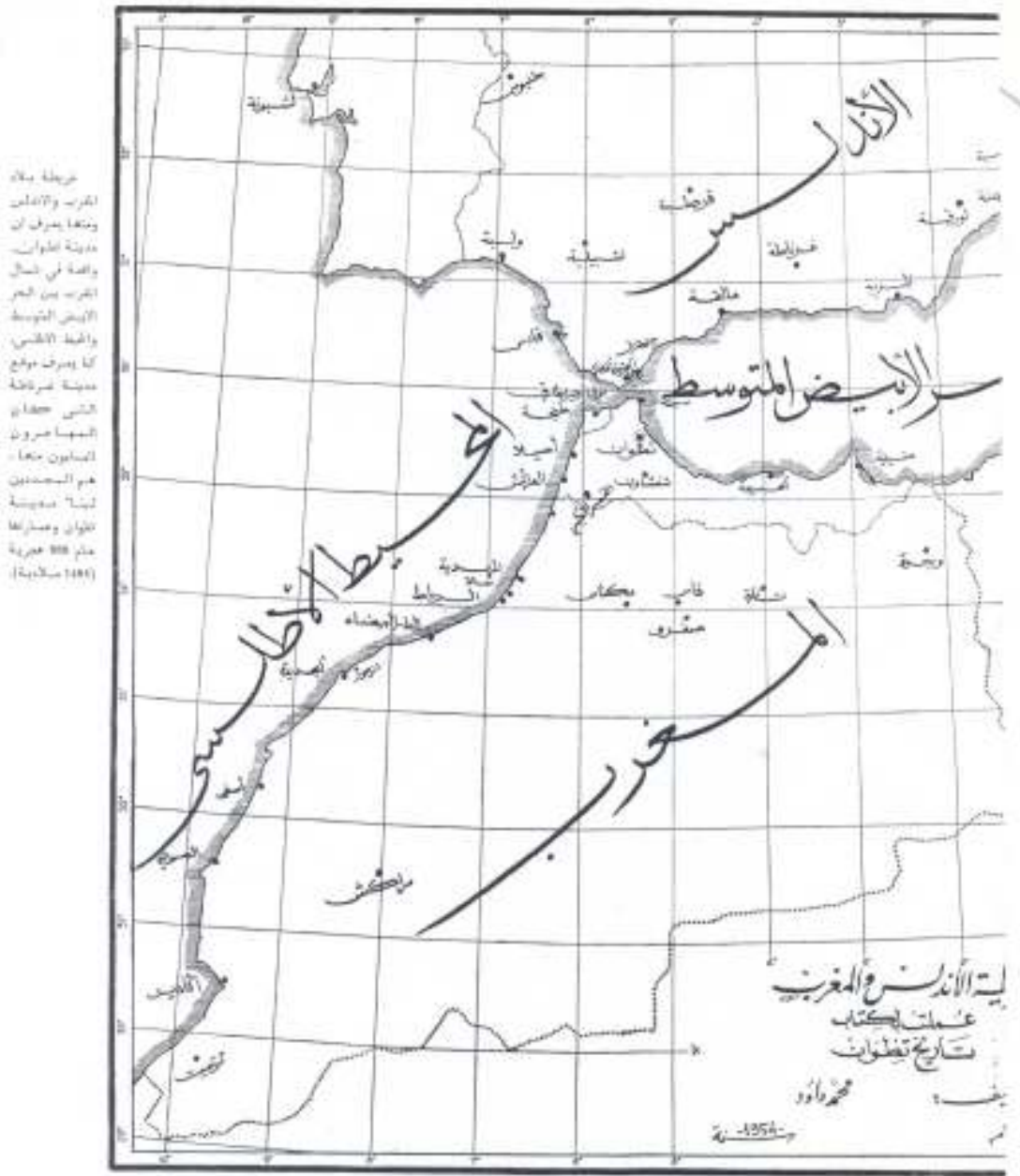


مركز الأبحاث في مصر

٥٥٥

٥٥٥

مكتبة المذهب



يقع "مركز الأجانب في مراكش" في مائة و خمس و أربعين صفحة وقد صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة 1950 أي إثر وفاة محمد أحمد بن عبود مباشرة و زمن احتداد الصراع من ناحية بين السلطان محمد بن يوسف و المقيم العام الجنرال

جوان (1947-1951) و الوطنية الشمالية و حكومة الجنرال فرانكو من ناحية ثانية.

و قد كتب مقدمة الكتاب عبد الرزاق أحمد السنهوري رئيس مجلس الدولة المصرية فشغلت هذه المقدمة سبع صفحات (أ- ز) و هي مقدمة قد يفسر المرء من خلالها لمّ جاء هذا الكتاب، تماما مثل "هذه تونس"، شديد الاقتضاب لا يتضمن أي بعد فلسفي أي بعيدا كل البعد عن ثراء رواية علي الحامي "إدريس" فكأن الغرض منه التعريف بواقع مراكش التي يقصد منها محمد بن عبود المغرب الشمالي والمغرب الجنوبي على حدّ سواء ذلك أن مصر البلد العربي الأكثر تطورا مقارنة ببقية البلدان العربية المكونة للجامعة العربية إذاك و هي مصر و سوريا

ولبنان و العراق و المملكة العربية السعودية و اليمن كانت تجهل كل شيء تقريبا عن بلاد المغرب العربي بصفة عامة و عن المغرب الأقصى بصفة خاصة "و نحن في مصر لا نكاد نعرف شيئا عن هذه البلاد الإسلامية العربية التي تجاورنا من جهة الغرب، و قد أسميناها بلاد المغرب و سلكتها جميعا في هذه التسمية الموجزة، و مصر هي

واسطة العقد ما بين المشرق العربي و المغرب العربي فإذا كانت قد عرفت الكثير عن المشرق و تابعته في تطوراتها، و امتزجت به في كثير من أحداثه، فلا يزال أمامها المغرب كتابا يكاد يكون مقفلا لم تتم قراءة الصفحة الأولى منه"³⁰⁴

فكان من الضروري أن يتكلف بعض أعضاء مكتب المغرب العربي في القاهرة بالتعريف بالحركات الاستقلالية المغربية كل فيما يرى أنه أقدر عليه من غيره و لهذا اختار خريج القانون محمد أحمد بن عبود مسألة "الامتيازات الأجنبية و تطورها في المغرب الأقصى بداية من عهد إسماعيل (1672-1727) مؤسس العرش العلوي في القرن السابع عشر إلى فترة الكاتب موضوعا لمؤلفه و باختياره

³⁰⁴ من مقدمة عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا لكتاب "مركز الأجانب في مراكش"، القاهرة، مط. الرسالة، 1950.

مثل هذا الموضوع أوقع نفسه و أوقع قارئه في إشكالية مغلوبة تكاد تتكرر في كل فصل من فصول الكتاب التسعة و هي تتلخص في التساؤل التالي :

هل أن الامتيازات الأجنبية نتيجة الوضع السياسي أم أن الوضع السياسي هو السبب الذي ولدت منه الامتيازات و لعل سرد عناوين هذه الفصول التسعة يفيد من لم يطلع على "مركز الأجانب في مراكش" في فهم ما ذكرناه فهما جيدا :

الفصل الأول:موضوع البحث (صص.1-7)

الفصل الثاني:مركز الأجانب في الشريعة الإسلامية (صص.9-14)

الفصل الثالث:حالة الأجانب في الفترة الواقعة بين سنة 1693 و 1797 م.
(صص.15-25).

الفصل الرابع: نشأة الامتيازات الأجنبية و تطورها إلى سنة 1912 (صص.27-39)

الفصل الخامس:حقوق و امتيازات الأجانب قبل سنة 1912(صص.41-55)

الفصل السادس:الأجانب و تصرفاتهم (صص.57-69)

الفصل السابع:وضعية الأجانب بعد الحماية (صص.71-99)

الفصل الثامن: مسائل الجنسية (صص.101-117)

الفصل التاسع :تنازع القوانين و تنازع الاختصاص (صص119-135)

في كثير من هذه الفصول ينتهي تحليل امحمد بن عبود إلى إجابة عن السؤال هل الامتيازات نتيجة أم سبب مفادها أن الامتيازات نتيجة:

" إن الظروف السياسية وحدها هي التي كانت الأساس الوحيد لذلك" ³⁰⁵

"يظهر نظام الامتيازات بصفته قيذا على سيادة الدولة بعد أن تخرج هذه المسألة من النطاق القانوني إلى النطاق السياسي.و لهذا يجب البحث عن الأسباب الحقيقية

³⁰⁵ محمد بن عبود،مركز الأجانب في مراكش،مصدر سبق ذكره، ص.7.

لنشئها في مراكز في الظروف السياسية التي اكتتفت هذه البلاد منذ نشأت و اتسعت علاقتها بالدول الأوروبية³⁰⁶

" إن هذه الامتيازات لم يكن أساسها هو الاختلاف في الدين و الحضارة و إنما كان وليدا لتلك الظروف السياسية التي أتت على ما كان للدولة المراكشية من قوة مادية و أدبية، إذ بهذا وحده بدأ يسهل على الدول الأجنبية أن تفرض إرادتها على مراكز المنهكة القوى بعد أن كانت تطمح إلى أكثر من كسب ودّها عندما كانت قوية في البرّ و البحر³⁰⁷

و خلاصة القول هي "أن نكبة هذه البلاد لم تأت من الخارج و إنما جاءت من الداخل لأنها عندما كانت قوية مجموعة الكلمة (...) كانت الدول الأجنبية تخشى بأسها، و لكن عندما تفرقت كلمتها و تبددت قوتها كان ذلك وحده مغريا لتلك الدول بأن تأتي لتفرض إرادتها على سيادتها³⁰⁸

فالسبب الداخلي إذن هو الأصل و الامتيازات النتيجة و مثل هذا الفهم كما هو واضح لا يمكن أن يقود إلا إلى تحميل العرش العلوي المسؤولية الأولى ممّا يدفع المرء إلى التساؤل من جديد : كيف يمكن من ناحية الإدعاء أن من أسباب التأليف دحض آراء من يرى من الباحثين الغربيين أن مبرر وجود الامتيازات هو الاختلاف بين الحضارتين الإسلامية

و الغربية و الحال أن محمد بن عبود يرد السبب إلى العامل الداخلي ممّا يجعل من مثل هذه الردود نوعا من الجدل القانوني الذي ليس بإمكانه أن يؤدي إلى نتيجة سياسية ملموسة ثم كيف نفهم، من ناحية ثانية، أن كتابا من أغراضه تعريف المشاركة بالمسألة المراكشية كاد، وهو يركز على العامل الداخلي، أن يشير بإصبع الاتهام إلى العرش العلوي الذي من المفروض الدفاع عنه و أن يبرئ الاستعمار باعتباره لم

³⁰⁶ - محمد بن عبود ، مركز الأجانب، ص.13.

³⁰⁷ - محمد بن عبود ، مركز الأجانب، ص.34.

³⁰⁸ - محمد بن عبود ، مركز الأجانب، ص.34.

يفعل أكثر من استغلال ضعف الدولة المراكشية و هذا أمر طبيعي لأن السياسة لا توجهها المثل العليا و لكن المصالح الاقتصادية و السياسية ؟

إن من يقرأ "مركز الأجانب في مراكش" بتمعن يمكن أن يرى أن هذا الكتاب هو أدخل في أهم جزئياته التي سنقتصر في هذا البحث على تناولها في كتب التاريخ منه في كتب العلوم السياسية و لذلك فنحن نتناول هذا الكتاب بالدراسة لا اعتمادا على تقسيم الكتاب إلى الفصول التسعة التي سبق أن ذكرناها و إنما اعتمادا على قسمين اثنين يتوزعان تاريخيا على الفترتين التاليتين:

"فترة التوازن" بين مراكش و القوى العظمى الغربية الصاعدة و فترة بداية انخرام هذا "التوازن" التي ستنتهي باحتلال مراكش بداية من سنة 1912تتدغم فترة التوازن بين مراكش والقوى الغربية الناشئة في فترة حكم إسماعيل الذي أسس العرش العلوي على أنقاض الحكم السعدي في القرن السابع عشر و حكم مراكش مدة خمس و خمسين سنة (1672-1727) أي في هذه الفترة التي خرجت فيها بريطانيا من حروبها الأهلية

و بدأت تستعيد فيها صحتها السياسية و الاقتصادية و حكم فيها في فرنسا لويس الرابع عشر (1643-1715) و لويس الخامس عشر (1715-1774)في ما كانت فيها إسبانيا تشهد أفول إمبراطوريتها .و من المعروف أن القرنين السابع عشر و الثامن عشر الأوروبيين هما قرنا التحولات الكبرى في حياة الرأسمالية سواء اتصل الأمر بالاقتصاد أو بالفكر السياسي. و في نهاية القرن الثامن عشر سوف تبدأ الثورة الصناعية الأولى في بريطانيا في حين ستتدلع في فرنسا الثورة السياسية ممثلة في ثورة 1789 و كذلك الثورة الأمريكية فنحن إذن بإزاء تحول جذري موطنه الجزء الغربي من العالم أما بقية بلاد العالم و منها مراكش فكانت تعيش خارج هذا التحول و ضمن حضارة تقليدية ما قبل رأسمالية. و قس على مراكش أنماط الحكم التي ظهرت مثلا في الجزيرة العربية مثل الدولة الوهابية السعودية التي لن يخطر ببال

أحد أن يدرجها ضمن النمط الرأسمالي في الحكم. هناك إذن حضارة راکدة و هناك حضارة حديثة رأسمالية تدفعها كل مقوماتها إلى أن تتوسع على حساب الحضارة التقليدية.

و إذا كانت الجزيرة العربية أو مراكش مثلاً في القرن الثامن عشر قد حافظتا على أسس بناء مجتمعيها التقليديين فليس مردّ ذلك إلى صلابة هذه الأسس أو إلى صفات شخصية تميّز بها هذا القائد السعودي أو السلطان العلوي مثلاً و لكن مردّ ذلك إلى أن القوى الغربية الرأسمالية كانت في طور النشوء من ناحية و كانت مشغولة من ناحية ثانية بالحروب فيما بينها و عندما ستبلغ هذه الحضارة طور القدرة على الاستعمار البعيد سوف تبدأ في قضم أطراف بقية العالم فتحتل فرنسا الجزائر و تونس و مراكش و تحتل بريطانيا مصر و العراق إلخ و تحتل إيطاليا برقة و طرابلس و فزان و تحتل اسبانيا شمال المغرب الأقصى.

إن محمد أحمد بن عبود لا يملك هذه النظرة البانورامية إلى العالم و إلى الصراع الدولي بين الحضارتين الرأسمالية و التقليدية و لذلك نراه يتحدث عن "توازن حضاري" كان قائماً في نهايات القرن السابع عشر و بدايات القرن الثامن عشر و ينسب هذا "التوازن"

و من ثم تطبيق الشريعة الإسلامية و خلو مراكش من الامتيازات و غطرسة القناصل الغربيين و "محميهم" لا إلى طفولة الدول الرأسمالية الحديثة و لكن إلى شخصية إسماعيل مؤسس العرش العلوي:

"كانت الدولة المراكشية في ذلك الحين صاحبة الحق في مباشرة سيادتها بدون منازع و فرض تشريعها على رعاياها و على جميع الأجانب الموجودين في بلادها متى شاعت ذلك"³⁰⁹

"هذا هو المركز السياسي القوي الذي كان للدولة المراكشية في عهد المولى إسماعيل و هو مركز لا يسمح لأيّ دولة أجنبية أن تفكّر في النيل منه"³¹⁰

³⁰⁹ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.13.

ثم يورد محمد أحمد بن عبود الرسالة التالية التي وجهها السلطان اسماعيل إلى الملك لويس الرابع عشر محاولة منه للإقناع بأن هناك "توازن قوى" بين مراكش وفرنسا :

"إلى عظيم الروم بفرنصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم:
السلام على من اتبع الهدى، و باعد طريق الغي و الردى. أما بعد فاعلم أن الذي ظهر لنا أنك ليس عندك قول صحيح و لا كلام رجيح، و لا أظنك إلا غلب عليك أهل ديوانك، و صاروا يلعبون بك كيف شاؤوا،

و لا بقي لك معهم ضرب و لا لقب، و دليل ذلك أننا ما زلنا ما قبضنا معك صحة قول و لا أبرمت معنا شيء. فقلامئك الذين ليس لهم رئيس وما عندهم إلا الديوان تكلموا معنا و قبضناها عليهم و ثبتوا فيها ووفوا و الانجليز تكلموا معنا كلمة و قبضناها عليهم ووفوا بها، فحين ذهب خديمتنا لبلادهم لما طلبوا منا ذلك، فرحوا به و أكرموا و برّوا به و أتى من عندهم بعشرة مائة مكحلة (بندقية) و ست عشرة مائة قنطار من البارود، و مائة و سبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا... و أنت لا زال لم يصحّ منك قول و لا وفاء... و لا صدر منكم ما تراعون لأجله.

ثم بعد ذلك قدم لعلّي مقامنا صاحبكم أنبشدر و أتانا بشيء من الخرق مع (فالصو) الحرير. و هل نحن ممن يعجبه ذلك و يسره؟ فنحن معشر العرب لا نعرف إلا الصحيح و لا يسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم. و مع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانيا سيفطناه (أرسلناه) بها و ظننا أنك و لا بدّ تراعي الخير و تبعث لنا و لو بعشرين مسلما، تجبر بها خواطرننا و تكون هي الطريق للكلام الذي تريده منا. فهذا مما يدلّ على عدم صحة كلامك و ممّا يثبت الإخلال بقولك و قلة وفائك، فحتى الآن فالذي ظهر لنا أنه ما يليق بنا معك إلا الشر، و إذا أردت تثبيت المهادنة و إبرام الكلام فيها و إمضاء حجّتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتقويض على الأمر و يجلس هنا في إحدى مراسينا و يكون الأمناء معه في هذا كله، و نبرم معه

هذا الأمر و يكون من أهل الحلّ و الربط عندكم، وإلا بأن ظهر لكم خلاف ذلك فأعلمنا و عرفنا بما عليه عملك

و ما أضمرته طويتك و السلام على من اتبع الهدى.

و في التاسع من شعبان سنة خمس و تسعين و ألف³¹¹

بعد أن أثبت محمد أحمد بن عبود هذه الرسالة الطويلة علق عليها على النحو التالي:
"هذه الرسالة تدل على أن لويس الرابع عشر هو الذي كان يرغب في الإتفاق مع الدولة المراكشية و يطلب ودها و أنها في ذلك الحين كان لها من القوة ما تستطيع معه أن تفرض الجزية على جميع الدول البحرية التي يمرّ أسطولها قرب المياه، و قد ذكرت الرسالة ما كانت تدفعه انجلترا من هذا القبيل. و هذه اللهجة التي خاطب بها المولى إسماعيل لويس الرابع عشر تتناسب مع القوة الضخمة التي كانت للدولة المراكشية"³¹²

و نحن لا نتعجب من أن يكون الفرنسيون أو الإنجليز "هم الذين يرغبون في الإتفاق مع الدولة المراكشية" لأنهم هم الذين يملكون، بصفتهم قوى عظمى رأسمالية ناشئة، الأساطيل التي تحتاج إلى نقاط تموين على امتداد كل السواحل العالمية أما لهجة إسماعيل فالغالب على الظن أن يكون مبررها الوحيد الجهل بما أصبح يدبّ في جسد أوروبا الحضاري من دم جديد و إذا كانت كتب الرحالة العرب إلى أوروبا في القرن التاسع عشر توحى أنهم صدموا عندما اكتشفوا نظمها السياسية و حيوية اقتصادها فهل يلوم المرء السلطان العلوي إسماعيل على مضمون رسالته في نهاية القرن السابع عشر؟

أما الأمر المؤكد فهو أن سياسة القوى العظمى الناشئة في القرن السابع عشر لم تُملها الخشية من "القوى الضخمة التي كانت للدولة المراكشية"

³¹¹ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 18-19.

³¹² - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 20.

بدليل أن صناعة السلاح هم بالذات هؤلاء الغربيون الذين "يطلبون ودّ الدولة المراكشية" و إنما أملاها مستوى التطور الغربي الذي لم يبلغ في هذه الفترة مرحلة الاستعمار و اقتسام أبعد البقاع في العالم.

و لكن محمد أحمد بن عبود الذي لا ينطلق في دراسة التطور البشري من النظرة التي نعتمد كان عليه منطقيا أن يربط ربطا وثيقا بين تاريخ مراكش و تاريخ سلاطينها فهي تصلح إن صلح قادتها و هي تضعف إن فسدوا و لهذا لن يخطر بباله أن يتساءل لِمَ ماتت تجربة إسماعيل بموته

ولم يحدث مثل ذلك في فرنسا و فعلا فإن الفترة التي تلت حكم إسماعيل (55 سنة) كانت فترة فوضى و حروب أهلية تزعمها أبناؤه المتنافسون على العرش في حين أن الفترة التي تلت حكم لويس الرابع عشر (72 سنة) عقيبتها فترة حكم لويس الخامس عشر التي دامت بدورها ما يقرب من الستين سنة (1717-1774) و إذا كانت فترة حكم خليفة لويس الخامس عشر نقصد لويس السادس عشر لن تكون بمثل امتداد فترة من سبقه فذلك لأن ثورة كاملة تحمل نظرة جديدة إلى العالم قد أطاحت به و أدخلت فرنسا في الزمن النابوليوني التوسعي الذي يزامن في مراكش بداية أخطر امتياز قضائي في نظر محمد أحمد بن عبود ،منحه السلطان سليمان (1792-1822) الاسبانيين لأنه يقوم على قاعدة "المدّعي يتبع المدّعى عليه إلى محكمته" أي بعبارة أكثر وضوحا أن على المراكشي الذي يقدّم في مراكش دعوى ضد إسباني أن يمثل أمام قاض إسباني"

إن هذا الامتياز هو الذي يعبر عن الفترة الثانية التي سميها "ببداية إنخرام التوازن" بين مراكش و بقية الدول الغربية و لقد ردّ محمد أحمد بن عبود هذا الوضع القضائي الجديد إلى الوضع السياسي فتوسع فيه من الناحية التاريخية حتى امتد من 1797 إلى انتصاب الحماية الفرنسية في المغرب الأقصى سنة 1912 أي طيلة قرن

و خمسة عشر عاما سُنحاول استعراض أهم الأحداث فيها و أهم الامتيازات التي تحصلت عليها الدول الغربية نتيجة هذه الأحداث.

من الناحية التاريخية لا يصحّ اعتماد 1797 بداية "اختلال التوازن" بين مراكش و القوى العظمى فنحن بإزاء منظومتين حضاريتين مختلفتين، منظومة حضارية رأسمالية غربية و منظومة حضارية تقليدية تتدرج ضمنها بقية أمم الأرض و إنخرام التوازن بين هاتين المنظومتين يؤرخ البعض لبداياته منذ القرن الثالث عشر في حين يؤرخ له البعض الآخر بالقرن الخامس عشر و السادس عشر. هذا الإنخرام لم يبدأ بالظهور للعيان إلا عندما مكّنت النظرة الحديثة إلى الأشياء لنفسها في الأرض الغربية و لكن العين الفلسفية التاريخية لم تتبينه قبل ذلك فهذا الفيلسوف الوضعي ارنست رينان يكتب في الموضوع:

"لقد كانت أوروبا إلى هذه الفترة تابعة علميا للمسلمين. و في حدود القرن الثالث عشر مازالت كفة الميزان بعد غير مستقرة. و بداية من 1250 تقريبا ظهرت حركتان بشكل جلي : فمن ناحية غرق المسلمون في انحطاط فكري بالغ و من ناحية أخرى دخلت أوروبا الغربية من جهتها بثبات في هذه الطريق الواسعة من البحث العلمي عن الحقيقة (...) فعندما بثّ العلم المسمّى بالعربي جرثومة الحياة في الغرب اللاتيني اختفى"³¹³

و لكن اختيار محمد أحمد بن عبود "الامتيازات" موضوعا لكتابه دفعه إلى البحث عن أول و أخطر "امتياز" فوجده في منح المولى العلوي سليمان الإسبان سنة 1797 امتياز "المدّعي يتبع المدّعى عليه إلى محكمته" مقابل امتناع اسبانيا عن ردّ فعل عسكري على تهديد مراكشي لمستعمراتها سبّنة في المغرب الشمالي.

³¹³-Ernest Renan, l'Islamisme et la science, Paris, 1883, p.14.

فهذا الامتياز طوى في نظر محمد أحمد بن عبود، صفحة تاريخية قديمة كان فيها "التشريع المراكشي (...)" هو وحده صاحب الحق في تنظيم حالة الأجانب المقيمين بالبلاد، و كانت الدولة المراكشية تباشر سيادتها في التشريع الداخلي بحرية تامة³¹⁴ و فتح صفحة جديدة لم تعد فيها "مبادئ الشريعة الإسلامية (...)" هي القانون الوحيد للدولة المراكشية لا تسمح بخضوع المسلم لقاض غير مسلم و لا بتطبيق ما يخالف الشريعة الإسلامية عليه. و لذلك فإن قاعدة "المدعى يتبع المدعى عليه إلى محكمته" التي تقرر في هذه المعاهدة كانت متعارضة مع مبدأ جوهرى في الشريعة الإسلامية و معطلة له في داخل دار الإسلام و لم يعد في استطاعة مراكش أن تطبق تشريعها المحلي في هذه الناحية نظرا لالتزامها بما يخالف ذلك في معاهدة دولية، و من هنا كان هذا أول قيد خطير على سيادة الدولة المراكشية أضيفت إليه قيود أخرى بعد ذلك إلى أن أطاحت بتلك السيادة نهائيا، و قد كانت هذه الخطوة مبدأ تحول في مسائل حالة الأجانب في مراكش حيث كانت قبل هذه المعاهدة في دائرتها القانونية العادية فانتقلت بها إلى الميدان السياسي الذي يمس سيادة الدولة³¹⁵

إن هذا الشاهد يلخص كل ما جاء في "مركز الأجانب" لو كان الغرض الحقيقي من كتابته منحصرا في مسألة "الامتيازات" أي الوجه القانوني من المسألة الاستعمارية و لكن يبدو أن الغرض من التأليف يتجاوز ذلك إلى تجريم العرش العلوي بدليل هذا التوسع في وصف حكم سليمان مانح الامتيازات:

"بعد أن توفي المولى محمد [1790] خلفه في الملك ابنه المغامر الجريء المولى سنة 1790 يزيد فكان أول قرار اتخذه هو محاصرة مدينة سبتة لاسترجاعها من يد الإسبان (...)" و لكن أخاه المولى هشام استغل اشتغاله بذلك (...) و قام بثورة اضطر معها المولى يزيد إلى الإقلاع عن محاصرتها و الإسراع إلى إخماد الثورة فكان من سوء حظه و من سوء حظ بلاده أن أصابته رصاصة في المعركة و مات

³¹⁴ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 23.

³¹⁵ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 27-28.

متأثرا بجراحه .و كانت هذه أول شرارة احترق بها الكيان الداخلي ثم الكيان الخارجي للدولة المراكشية.و انقسم الرأي العام المراكشي على إثر ذلك إلى ثلاثة أقسام فبويغ ثلاثة من أبناء المولى محمد في وقت واحد،مسلمة في الشمال و هشام في الجنوب و سليمان في الشرق و بدأت نار الحرب الأهلية بين الإخوة ثم بين القبائل وبين المولى سليمان بعد أن تغلب على أخويه تسحق الأنفس و الأموال سحقا مروعا إلى أن قضت على كل قوة كانت بهذه البلاد.و لا يكاد الباحث يهتدي إلى ابتداء أو إنتهاء سلسلة الثورات الدامية التي تعاقبت طوال الثلاثين سنة التي قضاها المولى سليمان على عرش مراكش (1792-1822)³¹⁶ و يخيل إليه أنها كانت بمثابة جنون استحوذ على الشعب المراكشي كله فدفعه إلى تخريب كيانه بنفسه (...). أما الثمن الذي دفعه الشعب المراكشي في هذه المعركة وحدها فقد كان عشرين ألف من القتلى³¹⁷ (...) و قد ختمت هذه المعارك الدموية بين المولى سليمان و بعض القبائل البربرية بكارثة لم يتقدم لها نظير في تاريخ هذه البلاد و كان فيها القضاء المبرم على هيبة الدولة المراكشية و قوتها المعنوية و على البقية الباقية من قوتها المادية و ذلك (...) أن المولى سليمان عندما هجم بجيشه على تلك القبائل لم يكن سوء حظه هو عدم تحقيقه الانتصار عليها فحسب و لا إصابة جيشه الذي علق عليه آخر آماله بهزيمة شنيعة و كفى بل أكثر من ذلك حيث وقع هو بنفسه أسيرا في يد قبيلة من رعاياه ثم تتفضل هذه القبيلة فتطلق سراحه لندرك الضربة التي أصابت النظام الداخلي لهذه البلاد³¹⁸

ثم إن محمد بن عبود يصدر في سليمان حكما تاريخيا قاطعا :

³¹⁶ - و لنلاحظ أن فرنسا في هذه الفترة كانت تستعد لغزو الجزائر (المغرب الأوسط)فاتحة احتلال تونس (1881)

و المغرب الجنوبي (1912) و لنتذكر نص رسالة إسماعيل إلى لويس الرابع عشر لنتأكد من وجوه التضاد (لا الإختلاف) بين الحضارتين القديمة و الحديثة إذ القضية تتجاوز مراكش،و ليست الامتيازات إلا بعض أعراض اختلال التوازن الحضاري.

³¹⁷ - يتراوح عدد القتلى في الثورة الفرنسية بين ألف و ثلاثة آلاف قتيل فنحن بإزاء حربين أهليتين و لكن مضمونيهما السياسي و الفكري (أي المضمونين الحضاريين) مختلفان تماما فالثورة الأولى حديثة و الثورة المراكشية قديمة من جنس ثورات المماليك في مصر مثلا.

³¹⁸ - محمد بن عبود،مركز الأجانب في مراكش،مصدر سبق ذكره، ص.28-31.

"كان المولى سليمان أول سلطان لمراكش تسرب إلى نفسه الرعب من الدول الأجنبية فنجدته بعد أن اجتاز تلك المحن يعزم على القيام بحملة لإخضاع بعض القبائل التي ثارت في الصحراء بجنوب مراكش، و لكنه ما كاد يصل إلى علمه أن أسطولا أجنبيا يقوم بحركات تجمع قرب جبل طارق حتى نراه يؤخر رحلته إلى أن يتبين له أن ذلك الأسطول لم يقصد الاعتداء على مراكش.

ثم نراه بعد هذا يقوم على عمل غاية في الخطورة يصور لنا كل ما أحدثته تلك الكوارث و الهزائم من ضعف ووهن في أعماق نفسه، و ذلك عندما نراه يصدر أمره بغتة بحلّ الأسطول المراكشي(...) و قد برر المولى سليمان هذا العمل الشاذ بأنه أقدم عليه لأجل أن يأمن تدخل الدول الأجنبية بسبب ما يقع من احتكاكات بين أسطوله و أساطيلهم في البحر الأبيض المتوسط و المحيط الأطلسي (...) و هكذا نستطيع الآن أن نفهم بسهولة لماذا قبل المولى سليمان في معاهدة سنة 1797 أن تفرض عليه اسبانيا امتيازاً خطيراً يتضمن مخالفة و تعطيلاً لمبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية، و يقيد سيادة الدولة المراكشية بقيد لم يعد في إمكانها أن تخالفه في تشريعها الداخلي، و ذلك حين قبل تطبيق قاعدة "المدّعي يتبع المدّعى عليه إلى محكمته" في المنازعات التي تقع بين الإسبان والمراكشيين في الأراضي المراكشية، و كان من شأن ذلك أن خضع المراكشي المسلم لقاض أجنبي غير مسلم و لقانون أجنبي داخل بلاده"³¹⁹

و بهذا التوسع في بيان الحالة التي أصبحت عليها علاقة الدولة العلوية بالمجتمع أي بهذه "الضربة التي أصابت النظام الداخلي لهذه البلاد" في زمن بدأت فيها القوى العظمى الأوروبية الناشئة تتجاوز مرحلة طفولتها لتدخل في مرحلة تحول جديدة (بداية الثورة الصناعية في إنجلترا، الثورة الفرنسية، الثورة الأمريكية...) أصبح من الممكن للمرء أن يتصور مسار المغرب الأقصى بعد نهاية حكم سليمان (1822) أي على عهد خلفائه عبد الرحمن (1822-1859) و ابنه محمد (1859-1873) و

³¹⁹ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 32-33.

الحسن [الأول] (1873-1893) و ابنه عبد العزيز (1893-1908) و عبد الحفيظ (1808-1912) اللذين كرّرا أخطاء الماضي في القرن العشرين فتنازعا على الحكم في حرب أهلية طاحنة قسمت البلاد والعباد.

و فعلا فإن خلفاء سليمان جميعهم يبدون في "مركز الأجانب" في صورة ساسة لا تسمح بسد الثغرة الحضارية المراكشية الغربية فما بذله بعضهم من جهد "إصلاحي" يمكن إدراجه ضمن السعي إلى إيقاف نزيف مراكشي أصاب كل كيان المغرب الأقصى دولة و مجتمعا و تلخص في هذه الدراسات المتنوعة التي تتحدث عن علاقة تصادمية شبه غريزية بين "المخزن و بلاد السيبة" من دون أي تساؤل عن غياب هذه الظاهرة في كل من تونس و الجزائر، المغربيين الأدنى و الأوسط، و الجميع مغاربة أي مزيج بربري عربي فريد تمكن زمن الدولة الموحدية من تحقيق وحدة المغرب العربي من الأطلنطي إلى طرابلس الغرب في ليبيا الحالية، و هي وحدة كانت حاضرة في التفكير السياسي الفرنسي عندما لجأت فرنسا سنة 1830 و بذريعة واهية هي إهانة حاكم الجزائر قنصلها ، إلى احتلال هذا البلد الذي مثل غزوه الضربة الأولى التي أصابت السلطان العلوي الجديد عبد الرحمن إذ ألحقت بجيشه الهزيمة الشهيرة المعروفة بهزيمة وادي إيسلي (1840).

" سنة 1830 هي سنة اجتياح الفرنسيين الجزائر و احتلالها مما وضع المغرب على خارطة التنافس العالمي عليه(...) هذا الاحتلال سبب نوعا من القطع لوتيرة الأمة الإسلامية (...) إن احتلال الجزائر لم يعن أن المغرب كان مهدد بالضرورة و لا يعني أنه كان محصّنا. فالفرنسيون الذين حلّوا على الشواطئ الجزائرية لم يكونوا راغبين في مغامرة أخرى على الشواطئ المغربية علاوة على أن القوى الأوروبية الأخرى التي كانت لها مصالحها في المغرب كانت ستقف أمام هذا الطموح ، خاصة بريطانيا التي لعبت دورا هاما في هذه الفترة كحليف للمغرب [الأقصى] و كدولة لها مصالحها [و لكن] احتلال الجزائر لم يكن تحديا للجغرافيا و السياسة في المغرب

فحسب بل كان امتحانا للفقهاء و الدين و التراث إذ وجد السلطان [عبد الرحمن] نفسه مدعوا إلى الاستجابة لبعض القوى [المراكشية] التي حاولت جرّه إلى المعترك الجزائري تحت شعار غياب حكم السلطان [في الجزائر] و انتهاء البيعة للسلطان الماضي [أي السلطان العثماني] و فعلا فقد وقع علماء مدينة تلمسان. على عريضة موجهة إلى مولاي عبد الرحمن تدعوه فيها إلى قبول بيعة أهالي تلمسان لأن السلطان لم يكن راغبا في الدخول إلى الشراك الجزائري و مواجهة فرنسا فإنه حول هذه العريضة إلى علماء مدينة فاس الذين قدموا له الفتوى التي يريدها إذ استندوا إلى أن سكان تلمسان أقسموا الولاء والبيعة للسلطان العثماني فلا يمكن و الحالة هذه تغيير البيعة الآن، وبغض النظر عن مخاوف السلطان و فتاوى علمائه فإن الاحتلال الفرنسي أحيى الجدل حول شرعية السلطة و الثورة فالكثيرون من المراكشيين وافقوا ضمينا على دعوى أهالي تلمسان و أرادوا مساعدة أبناء دار الإسلام فأرسل السلطان حملة إلى تلمسان (...) إلا أنها لم تكن ناجحة (...) و من هنا كان التدخل المراكشي القصير في الجزائر غير مدروس و كان ضعيفا حيث لم يكن النظام العلوي في مراكش (...) قادرا على التصدي للفرنسيين الذين أرسلوا بوارجهم إلى السواحل المراكشية لذلك وافق السلطان على سحب قواته من تلمسان تاركا المقاومة لأحد مشائخ الطريقة القادرية الشيخ محي الدين الذي بدأ بتنظيم المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين و قام بعد فترة قصيرة بتسليم القيادة لابنه الأمير عبد القادر الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين³²⁰ و أعلن بدء الجهاد ضد الفرنسيين باسم السلطان المراكشي الذي لم يكن قادرا على التحكم فيه (...) لقد خرجت القوات المراكشية من الجزائر عام 1830 إلا أنها لم تقطع علاقتها بالأمير عبد القادر فكثير

³²⁰ كما يدل على عمق أثر احتلال الفرنسيين الجزائر في الأوساط الإسلامية التونسية تسمية عائلة القليلي ابنها باسم محيي الدين و تسمية هذا ابنه عبد القادر و محيي الدين القليلي (1901-1954) هم أحد أشد خصوم الحبيب بورقيبة فليتأمل المتأمل في هذا العمق الإسلامي المغربي الذي لا يرى في بلاد المغرب غير بلاد إسلامية هي جزء من عالم أوسع هو العالم الإسلامي أما الدراسات الوطنية فهي لا تكاد تتعرض لعام 1830 بوصفه العام الذي "أكل فيه الثور الأبيض" في انتظار أن تلحق بقية "الثيران" ب"المذابح الاستعمارية".

من العائلات الفاسية حاولت تزويد الأمير عبد القادر بالأسلحة و الذخيرة معتمدة على عائلات يهودية في منطقة جبل طارق و ظل الأمير نفسه على صلة بالعلماء الفاسيين الذين زودوه بالفتاوى.و حينما قامت القوات الفرنسية المحتلة بتنظيم هجمة كاسحة على عاصمة الأمير المتقلة فرّ الأمير إلى مراكش فانضم إليه آلاف من المتطوعين و قدمت له الأموال و الأسلحة ممّا ساعده على العودة مرة ثانية إلى الجزائر،و لكن العلاقة المراكشية بالجهاد الجزائري كانت امتحانا كبيرا للسلطان مولاي عبد الرحمن إذ هدّد الفرنسيون باحتياح مراكش إذا لم يقطع المراكشيون المساعدات للأميرالذي كان يحظى بشعبية كبيرة بين المراكشيين و قد استخدم هذه الشعبية للدخول إلى مراكش و الخروج منها استنارة منه للفرنسيين .

و كردّ فعل على ذلك قرر الفرنسيون احتلال مدينة وجدة عام 1844

و قاموا بقصف مدينة الصويرة و طنجة كما تعرض الجيش المراكشي في وادي إيسلي قرب وجدة لهزيمة كبيرة.و اضطر السلطان [عبد الرحمن] إلى البحث عن طرق للتفاوض .و بتدخل بريطاني توصل الطرفان إلى التوقيع على معاهدة طنجة (1845) التي كانت شروطها بفضل التدخل البريطاني.و حسب هذه المعاهدة انسحبت فرنسا من وجدة و لم تطالب بتعويضات بل رسمت الحدود بين الجزائر و المغرب [الأقصى]³²¹

و لا يطيل محمد أحمد بن عبود هذه المرة و هو يتحدث عن السلطان العلوي عبد الرحمن على الرغم من طول مدة حكمه (37 سنة) و لكنه يكتفي بتقرير أن " البلاد كانت مفلسة من الناحية الاقتصادية إفلاسا تاما فقام بوضع مشاريع اقتصادية واسعة النطاق ، و لكن عوامل التخريب

³²¹ .C.R.Pennel, Morocco since 1830 : a history , London, Huest and Company, 2000 .

و الشاهد مأخوذ من تقديم إبراهيم درويش الكتاب بعنوان "القنصل و الحاج و صورة المغرب [الأقصى] منذ عام 1830"،القدس العربي عدد 31 ماي 2001 (الحلقة الثانية).

و الفساد كانت قد أحدثت في البلاد من الاختلال ما يعجز كل إصلاح عن تلافي نتائجها مهما بذل فيه من جهد و لو لمدى أجيال³²²

بعبارة أخرى أصبحت شبه مبتذلة يود بن عبود أن يقول " اتسع الخرق على الراقع " و مثلما فعل البايات في تونس و أحد الخديوات في مصر عندما أرسلوا بعض مثقفي بلديهما إلى فرنسا حتى ينقلا عنها صورة لأولياء نعمتهم أرسل السلطان عبد الرحمن "في العام الذي تم فيه توقيع اتفاقية طنجة عام 1845 (...) سفيره لفرنسا عبد القادر عشعش مصحوبا بعالم شاب هو محمد الصفار الذي سيقدم عددا من الملاحظات الجميلة عن فرنسا تشبه تلك التي قدمها قبله رفاعة الطهطاوي " ³²³ فهل يستغرب المرء عندئذ أن يتعزز نظام الامتيازات في مثل هذا الوضع الذي يسير من سيء إلى ما هو أسوأ منه ؟

"بيد أن عهد المولى عبد الرحمن بن هشام نفسه (1822-1859) قد اقترن بنكبات كانت وليدة لنكبات العهد السابق، فعلاوة على بعض الاضطرابات التي بقيت من قبل و تطلبت منه مجهودا للقضاء عليها فإنه ما كاد يصل بجيشه بعد مجهود شاق إلى درجة تسمح له بالقيام بمهمة المحافظة على الأمن و النظام في الداخل حتى وجد نفسه مرغما على الاشتباك مع الجيش الفرنسي الذي كان قد احتل الجزائر في ذلك الحين بدأ يتطلع إلى الهجوم على مراكش ، و هكذا نشبت معركة طاحنة بين الجيش الفرنسي الغازي

و الجيش المراكشي الذي كان أشبه شيء بحالة المريض في فترة النقّة، وكانت النتيجة هي انهزام الجيش المراكشي انهزاما شنيعا في معركة إيسلي سنة 1840 و قد استطاعت الدول الأجنبية بسبب هذه الهزيمة أن تخطو خطوات جديدة في فرض إرادتها على الدولة المراكشية للحصول على امتيازات أخرى³²⁴

³²² - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.35

³²³ - القدس العربي، عدد سبق ذكره.

³²⁴ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.35

و الحقيقة أن هذه الامتيازات تعززت حتى قبل هزيمة وادي إيسلي
فـ "قد أبرم المولى عبد الرحمن بن هشام في سنة 1824 مع "سردينيا" معاهدة
اعترف لها فيها بقاعدة "المدّعي يتبع المدّعى عليه إلى محكمته" كما أبرم معاهدة
أخرى مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1836 اعترف لها فيها بهذا المبدأ و زاد
عليه أن أعطى الحق للقنصل الأمريكي في مراكش باستعمال رجال الأمن المحلي
في مباشرة قضائه وتنفيذ أحكامه، و أشير فيها إلى حق التجار الأمريكيان في اتخاذ
سماسرة و مترجمين من المراكشيين"³²⁵

هذه الامتيازات سبقت هزيمة وادي إيسلي (1840) و هي ، كما يلاحظ المرء ذلك
بسهولة ، منحت إلى دول مثل سردينيا و الولايات المتحدة تعتبر بعيدة مصلحيا و
إلى حدّ ما من الدول الأكثر خطرا على مراكش وهي فرنسا (نظرا إلى احتلال
الجزائر و انجلترا نظرا إلى مركز نفوذها في جبل طارق و إسبانيا نظرا إلى
احتلالها كلا من سبتة و مليلة في قلب المغرب الشمالي) و هذه البلدان الثلاثة لن
يخمد الصراع المباشر بينها حول المغرب الأقصى ممّا يفسّر أنه لم يقع احتلاله
نهائيا إلا في 1912.... عندما يحصل اتفاق بين هذه الدول أساسا على تقسيمه:

"كانت كل دولة [من هذه الدول الثلاث] تسعى للحصول على امتيازات لها و تحاول
في نفس الوقت منع غيرها من الحصول على مركز أكثر امتيازا من مركزها، و
كانت اسبانيا ترى أنها أحقّ الدول بأن يكون لها المركز الممتاز نظرا لجوارها
الناشئ ، عن وجودها في مدينتي سبتة و مليلة، و كانت فرنسا بعد استيلائها على
الجزائر تعد نفسها أحقّ من غيرها بذلك، كما كانت انجلترا تنتظر نظرة خاصة إلى
موقع مراكش المواجه لجبل طارق و الواقع في أهم نقطة على طريق إمبراطوريتها
في الشرق ، و ترى من الخطر على هذا الطريق الحيوي أن توجد فيه دولة منافسة
لها في التوسع الاستعماري"³²⁶

³²⁵ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.36.

³²⁶ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.36.

و لذلك يحق التساؤل عما إذا كانت سياسة السلاطين العلويين و هم يعددون الدول المتمتعة بالامتيازات، حتى و إن كانت دولا مثل دولة الولايات المتحدة، تهدف من وراء ذلك بعد اليأس من كل مقاومة للغزو الاستعماري، إلى توسيع نطاق التنافس حتى يصبح عالميا أي على الصورة التي سيصبح عليها في منطقة طنجة الدولية بداية من 1912.

إن هذه الملاحظة، مهما كان مدى وجاهتها، يجب أن لا تحجب عن أعيننا أن الصراع كان يبلغ مداه الأقصى كلما كانت أطرافه الثلاثي: فرنسا و إنجلترا و اسبانيا و قد سبق أن تعرضنا قبل قليل لدور الوساطة الانجليزية بين فرنسا و مراكش عقب هزيمة وادي إيسلي و لقد أبرمت إنجلترا "مكافأة" لها على هذه الوساطة مع السلطان عبد الرحمن أبرمت معاهدة 1856 و لهذه المعاهدة "أهمية خاصة حيث سجل فيها جميع ما أعطى للأجانب في مراكش من امتيازات و اتخذت الأساس الذي أبرمت عليه المعاهدات مع الدول الأجنبية الأخرى بعد ذلك. و قد تضمنت الامتيازات التي أشرنا إليها من قبل، و نص فيها زيادة على ذلك على أن لممثل إنجلترا في مراكش الحق في تعيين ما يشاء من عدد المترجمين والخدم من المراكشيين أو غيرهم، و له أن يتخذ نائبا عنه في كل ثغر من ثغور هذه البلاد، و لكل واحد من هؤلاء النواب الحق في اتخاذ ترجمان واحد و بواب واحد و خادمين، و يعفى هؤلاء جميعا من جميع ما تفرضه الحكومة المحلية على رعاياها من تكاليف غير المتفق عليها. كما نصّ في هذه المعاهدة على أن رعايا إنجلترا جميعا لهم الحق في التمتع بهذه الامتيازات سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو يهودا.

و من هنا نشأت "طائفة المحميين" و ازداد نظام الامتيازات الأجنبية شذوذا و تفاحشا حتى أدى إلى وضعية في غاية الغرابة و هي أنه لم يكتف بإخراج الأجنبي أو من يشترك معه في منازعة من سلطان القضاء و التشريع الوطنيين، و إخضاعه لتشريع

و قضاء أجنبيين داخل الأراضي المراكشية بل زيد على ذلك تمييز مواطن مراكشي على آخر لمجرد أنه ملحق بخدمة الأجنبي³²⁷

و قد حرص محمد أحمد بن عبود على أن يورد بعض الأمثلة على هذا الوضع الشاذ فتخير مثالا "مؤثرا" يؤكد لمن يقرأه أن المغرب الأقصى إذا كان يؤرخ لاستعمار به سنة 1912 فإن هذا الاستعمار كان أمرا واقعا منذ هذه الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر ذلك أن "المحمي" هنا لم يكن حتى "غربيا" بل "مراكشيا".

"حصل (...) أن فرّ سمسار مراكشي من طنجة بعد أن بدد بعض الأشياء التي سلمت له لأجل بيعها، فلما رفعت القضية إلى محتسب المدينة أمر بإلقاء القبض على ابنه و زوجته للتحقيق معهما، و كانت هذه الزوجة تعمل خادمة في منزل ممثل إيطاليا الذي ثارت ثائرتة عندما بلغه أن خادمتة ألقى القبض عليها، فسارع إلى مقابلة وزير الخارجية و طلب منه أن يطلق سراح خادمتة و أن يعزل المحتسب الذي أمر بإلقاء القبض عليها و أن يسجن عقابا له على ذلك، و هدد بإعلان قطع العلاقات بين البلدين إذا لم تجب مطالبه في الحال، فأجاب له وزير الخارجية المطالبين الأولين و أطلق سراح الخادمة و صدر قرار بوقف المحتسب عن عمله، و لكنه اعتذر عن سجنه و وعد برفع الأمر إلى السلطان. وقد بذلت الحكومة المراكشية مجهودا كبيرا و استعانت بمندوبي بعض الدول الأجنبية حتى استطاعت أن تقنع مندوب إيطاليا بأن يكتفي بعزل المحتسب من وظيفته و عدم سجنه³²⁸

وإذا كانت فرنسا و إسبانيا في هذه الفترة لم تحصلا على ما حصلت عليه بريطانيا في معاهدة 1856 فإن كارثة 1860 سوف تمكن جميع الدول الغربية تقريبا مما مكنت منه بريطانيا. و تعد "حرب إفريقيا" و كارثة الجيش المراكشي فيها أكثر تأثيرا من هزيمة وادي إيسلي أثناء حرب الجزائر لأنها لم تكن هزيمة ألحقها بلدان رأسمالية حديثة

³²⁷ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 36-37.

³²⁸ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 68.

و متطورة مثل إنجلترا و فرنسا و الولايات المتحدة الأمريكية بالجيش المراكشي و لكنها كانت هزيمة ألحقها جيش إسباني ما أبعد بلده في هذه الفترة عن الحضارة الرأسمالية الغربية"³²⁹

يصف جيرالد برينان في كتابه "المتاهة الإسبانية" "الذهنية" الإسبانية في هذه الفترة على النحو التالي:

"يظهر تاريخ اسبانيا في القرن السابع عشر انحطاط طبقة حاكمة هيمنت قبل ذلك على أوروبا من دون أن تنفذ البتة إلى حضارتها حقا أو تتمثل هذه الحضارة. و بما أن هؤلاء الرجال كانوا يعيشون على أرضهم الخاصة و ليس على أرض البلدان التي يستغلونها فإن اسبانيا ارتدت إلى وضعها القديم، وضع البلد البدائي البائس. و في الأثناء أصبح مثل النبالة الأعلى المطبوع على الدوام بطابع البطالة واحدا من سمات المزاج الوطني (...)

و بعبارة أخرى إن الاسبانيين تعودوا على العيش من أجل غايات بطولية و نبيلة و لقد بدأ انحطاطهم عندما أصبح المثل الأعلى البورجوازي المتمثل في العمل و المثابرة و الواجب هو المثل الأعلى الوحيد المؤهل لأن يكون قاعدة و سند مجتمع من المجتمعات"³³⁰

و يقارن جيرالد برينان في موضع آخر بين "الإنسان الإنجليزي" البورجوازي و "الإنسان الإسباني" ما قبل الرأسمالي فينتهي إلى أن ما يفصل بينهما حضاريا زمنا نهاية القرن التاسع عشر يُقدر بقرن و بنصف القرن:

"قد يكون مفيدا أن يقارن المرء بين حالة اسبانيا و حالة إنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر. في هذه الفترة كانت إنجلترا تماما مثل اسبانيا سنة 1880 بلدا زراعي يحكمه برلمان يتكون من كبار الملاكين العقاريين، الذين يشترطون قبل كل شيء

³²⁹ بدليل طرد الولايات المتحدة اسبانيا من مستعمراتها في كوبا و الفلبين سنة 1898.

³³⁰ -Gerald Brenau, le labyrinthe espagnol, origines sociales et politiques de la guerre civile, Suisse, ed. Ruedo ibérico, 1962, p. 10.

إخضاع القمح الأجنبي لضريبة مرتفعة وبما أن البرلمان أهمل ما عدا ذلك من المطالب فقد بدأت حركة صناعية و منجمية بالظهور و في المدن الكبيرة ولدت الأجور البائسة سكانا عصاة و جهلة أصبحت حياتهم تستثير الشعور بالخطر الدائم. كما أنه كانت توجد برجوازية صغيرة مفتقرة رقيقة الحال. في البلدين معا اجتهد كبار الملاكين في تسييج الأملاك البلدية: في انجلترا كان ذلك بواسطة قوانين ذات طابع مصلحة محلي وقع التصويت عليها من دون أي مراعاة لحقوق القرويين أما في اسبانيا فقد كان ذلك نتيجة سياسة كاملة لم تُملها ضغوط كبار الملاكين الشرهين بقدر ما أملتها الأفكار الليبرالية وقد ساد فساد سياسي و لم تعد الكنيسة التي فقدت كل شعور بواجباتها الدينية غير سند للأغنياء . عند هذا الحد تنتهي أوجه الشبه بين البلدين. ففي انجلترا لم يكن يوجد أعيان الريف المتنفذون المتحالفون مع الحكومة (Caciques)³³¹ ذلك أن كبار الملاكين الفلاحيين يقضون أكثر السنة على

أراضيهم و بقوا على الرغم من تسييج الأملاك البلدية و صرامة القوانين التي تحظر الصيد في أراضي الغير شخصيات شعبية مثلما بقوا في المحاكم، قضاة عادلين و علاوة على ذلك كان يوجد في انجلترا نظام سخيّ لنجدة الفقراء و لم توجد الشرطة. على العكس ممّا سلف نجد في اسبانيا قوات شرطة مسلحة و لكنه لم يوجد أي قانون يتعلق بالفقراء و النبلاء يعيشون في المدن الكبرى و لا يزورون إلا نادرا ممتلكاتهم أما مؤسسة العدالة فهي و إن كانت أقل صرامة مما هي عليه في انجلترا فهي فاسدة تتسم بالتحيز. أخيرا ، كانت التجارة في انجلترا مزدهرة و كانت رؤوس الأموال و الطاقة البريطانية تندفع نحو تنمية صناعات جديدة أما في اسبانيا فقد كانت رؤوس الأموال بأيدي الانجليز و الفرنسيين تماما مثلما كان عليه الوضع في القرن السابع عشر. و بإيجاز كانت انجلترا سنة 1750

« le cacique » - 331

تعني هذه الكلمة التي هي من أصل هندي أمريكي "رئيس" و هو رجل في الغالب من كبار الملاكين العقاريين يتكلف مقابل تمكينه بشكل مُضمر من بعض الامتيازات بالتنظيم السياسي في دائرته لصالح الحكومة

G.Brenan, le labyrinthe esp., op.cit., p.7.

بلدا فظًا قاسيا ما من شك في ذلك و لكنه كان أيضا بلدا قويا و نشيطا و نقائصه هي نقائص جسم ينمو و يتحول بسرعة في حين كانت إسبانيا التي تمرّ، بعد مائة و خمسين سنة من ذلك التاريخ، بالمرحلة الاقتصادية ذاتها واحدا من الأعضاء المريضة في أوروبا"³³²

و مع ذلك فإن إسبانيا "عضو أوروبا المريض" مقارنة بانجلترا و التي تذكر حالتها بأغلب البلاد المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ألحقت بالجيش العلوي هزيمة نكراء، و احتلت تطوان سنة 1860 و لم تغادرها إلا بعد قبول السلطان بشروط قاسية:

"و يتوفى المولى عبد الرحمن بن هشام سنة 1859 و يخلفه ابنه المولى محمد [1859-1873] فيقترن اعتلاؤه العرش بكارثة أخرى كانت بمثابة الإجهاز على هذه الأمة و ذلك عندما قامت مناوشات بين الحاميات المراكشية و الإسبانية على حدود مدينة سبتة و تطورت إلى قيام حرب بين البلدين : و لم تترك النكبات السابقة لمراكش من القوة ما تدفع به هذا العدوان الجديد من الإسبان عليها، فتغلب الجيش الإسباني و احتل مدينة تطوان ثم أبرمت معاهدة صلح بين الطرفين التزمت فيها مراكش بدفع عشرين مليوناً من الريال في مقابل انسحاب الإسبان من الأراضي التي استولوا عليها، و قد خولت لإسبانيا بهذه المعاهدة جميع الامتيازات التي خولت من قبل لإنجلترا بمعاهدة 1856 كما أعطيت تلك الامتيازات لجميع الدول الأوروبية التي أبرمت اتفاقيات بعد ذلك مع مراكش على أساس شرط الدولة الأكثر رعاية"³³³

ورد حديث التطواني محمد بن عبود عن الحرب المراكشية الإسبانية موجزا و لكن التطواني محمد داود توسع في الحديث عن هذه الحرب لذلك لا بدّ من استغلال كتابه "مختصر تاريخ تطوان" فقد ذكر "أن دخول الاسبانيين لتطوان كان يوم الاثنين

³³² - و هذا النص نقلناه معربا من درس الأستاذ المشرف (المادة التكميلية) بعنوان أثر أهم المدارس الفكرية السياسية الغربية و

مناهجها في المفكرين العرب المعاصرين (المدرسة التاريخية).

³³³ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص. 37.

(...) 6 فيفري سنة 1860 وخروجهم منها بعد تسليمهم مفاتيحها للقائد الذي ولاه سلطان المغرب عليها كان يوم السبت (...) 10 ماي سنة 1862 أي أن مدة احتلال الإسبانيين لتطوان و تمسكهم بها كان سنتين و ما يزيد على ربع سنة بقليل³³⁴ و قد قبل السلطان العلوي بكل شروط الصلح الاسبانية و "ملخصها تسليم المغرب لإسبانيا أراضي قرب سبتة و أراضي في جنوب المغرب. و أداء المغرب لغرامة مالية و منح اسبانيا امتيازات تجارية و السماح لممثلها بالسكن بعاصمة فاس في دار تبنيتها اسبانيا بها و تنفيذ العقد المتعلق بمليلة و بادس بين المغرب و اسبانيا إلخ"³³⁵

³³⁴ - محمد داود، مختصر تاريخ تطوان ، ص.179.

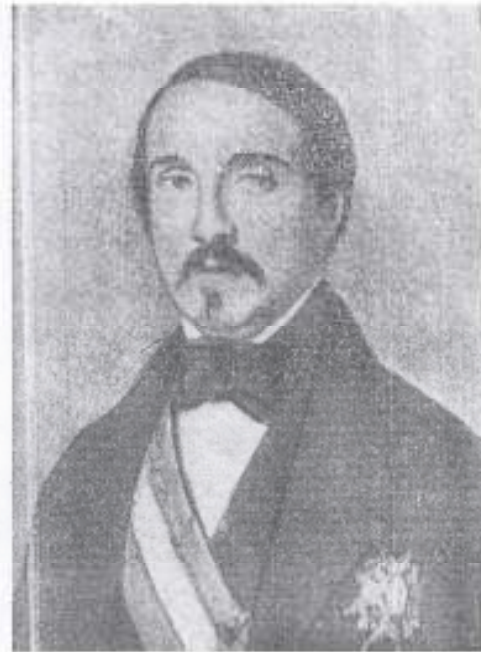
³³⁵ - محمد داود، مختصر تاريخ تطوان ، ص.156.



صورة اجتماع مولاي العباس بالجنرال اودونيل صباح يوم الـ ٢٢ من رمضان عام ١٢٧٥
موافق ٢٢ مارس سنة ١٨٥٥ لانها "الحرب المشهورة" - وعقد الهدنة التي
انتهت بعدها الصلح النهائي وقد ظهر في الصورة كبار القواد
المغاربة الى اليمين وكبار القواد الاسبانيين الى الشمال



صورة الجنرال خوان بريم اشهر القواد الاسبانيين
في الحرب بين الدولتين المغربية والاسبانية
سنة ١٢٧٥ - ١٨٥٥



الجنرال لودوفيكو اودونيل رئيس الجيوش الاسبانية
التي احتلت مدينة تطوان في حرب سنة ١٨٥٥

ثم أبدى رأيه في هذه الحرب فكتب متألماً:

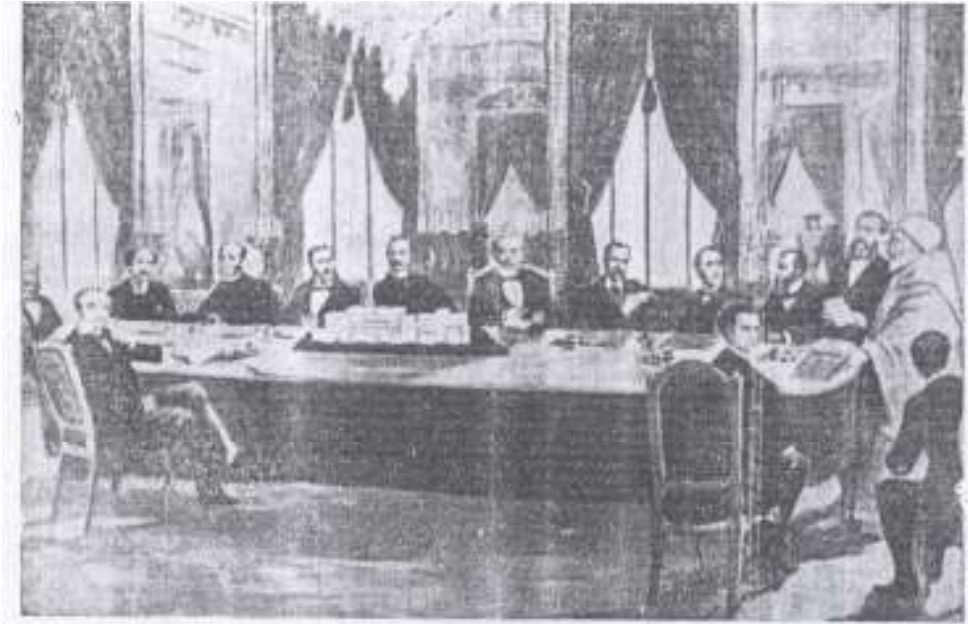
"إن الحقيقة المؤلمة هي أن وطننا كان في ذلك العهد متأخرا جدًا عن بقية الدول التي نهضت من سباتها و أخذت بوسائل الترقى فنظمت شؤونها و عمت في بلادها المعاهد العلمية و المدارس العلمية على اختلاف أشكالها و أنواعها، فللعلوم معاهدها، و للعسكرية مدارسها و للاقتصاد أسبابه و طرقه و للحياة العامة نظمها ووسائلها. أما المغرب فلم يكن به جيش منظم و لا ضباط درسوا الفنون العسكرية و التنظيمات الحربية، و مالية المغرب كانت في فوضى لا مزيد عليها، و كانت الطرق مهملة، و المواصلات غير منظمة التنظيم المناسب للعصر، ووسائل النقل غير متوفرة و الجهل بأحوال العالم و نهضته و رقيه سائد في جل الطبقات. فماذا كنا ننتظر مع هذه الحالة من دول أكملت تنظيم داخليتها و توفر لديها من وسائل النظام و القوة ما جعلها ترنو ببصرها إلى البلاد الضعيفة الجاهلة القاصرة لاستثمار خيراتها و استغلال ما فيها من مواد مهمة و ثروة مبعثرة، أو على الأقل لتملي عليها إرادتها و ترغمها على الرضوخ لأغراضها و مطامعها (...). لقد كان المغرب في حالة استعصى فيها الداء، و لم يكن لذلك الداء من دواء سوى عمليات حاسمة ،و لكن المغرب كان فاقدا للأطباء الماهرين،و للأدوات اللازمة لتلك العمليات.و لقد قامت الحرب بين حكومتي مدريد و فاس و صلي نارها الشعبان المغربي و الإسباني ثم انتهت تلك الحرب بعد أن تحمس فيها المتحمسون و طاش الطائشون و تجلت حقائق و نوايا وأسرار و ظهر من بين الأصدقاء و الأعداء ، أخيار و أشرار، إلا أنني سوف لا ألوم الإسبانين على ما فعلوا لأن لهم أن يقولوا لنا ، لو كنتم أقوى منا لحاولتم كما حاولنا، و لفعلتم بنا مثل ما بكم فعلنا (...).و أخيرا لو كان المغرب قويا غنيا لما تحرش به ساسة مدريد، و لما كانت حرب الستين و لما كان احتلال تطوان"³³⁶

³³⁶ - محمد داود، مختصر تاريخ تطوان ، ص. 127-128. و انظر في الملاحق نموذجا من الرسائل الإسبانية الموجهة إلى السلطة العلوية حتى تمكن المقارنة بين رسالة السلطان إسماعيل إلى لويس الرابع عشر و رسالة قنصل اسبانيا وقد أورد نصه محمد داود.

خلاصة القول هنا هي أن هذه الحرب فتحت أبواب الامتيازات لإسبانيا ولجل بلدان العالم التي لها مصالح اقتصادية في مراكش حتى أن السلطان الجديد الحسن (1873-1892) قال لوزير خارجية حكومته محمد بركاش الرباطي:

"إن إدارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطتها من كثرة ما منحته الدول الأجنبية من "حمايات" غير مشروعة"³³⁷

و لقد سعى هذا السلطان لدى فرنسا و إنجلترا و إيطاليا و بلجيكا حتى تحدّ من فوضى الامتيازات فوافقت دبلوماسيا على ذلك و انعقد مؤتمر مدريد سنة 1880



في إحدى جلسات مؤتمر مدريد للحمايات الأجنبية بالمغرب عام 1297 هـ 1880 م
وقد مثل المغرب فيه . النائب السلطاني السيد محمد بركاش الرباطي (ويرى
واقفا يخطب لجهة اليمين) وكان معزراً رسمياً بالسفير الأمين الحاج عبد
الكريم بريشة الطواني .

على أنه لم يكن للاتفاقية التي عقدت بمناسبة انعقاد هذا المؤتمر "أي أثر عملي و استمر ممثلو تلك الدول على خطتهم في منح الحمايات بإسراف"³³⁸ و سيتواصل نزيف الخزينة المراكشية فلا تجد الحكومة وسيلة أخرى لوقف هذا النزيف غير "استنزاف"المجتمع "و من الأمثلة على الضرائب التعسفية

³³⁷ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.65.

التي كانت تفرض على المراكشيين دون الأجانب و دون أصحاب الحمایات ضريبة الهدايا الإجبارية التي كانت تقدم بمناسبة الأعياد، و ضريبة (النايبة) و كانت تفرض على القبائل التي لا تساهم في الجيش، و ضريبة (الحركة) و كانت تفرض بمناسبة تحركات

الجيش لمساعدته على ذلك وضريبة(السخرة) و كانت تدفع لبعض الموظفين العموميين عند تنقلاتهم للقيام ببعض أعمالهم العامة، و ضريبة (المونة) و كانت القبيلة أو القرية تدفعها للجيش أثناء مروره بها،

وضريبة (النزلة)و كانت تدفعها القبائل التي يمرّ بها الרכب الحكومي عند مبيته فيها، و ضريبة (الغرامة) وكانت تفرض على القبيلة بسبب ما يرتكبه أحد أفرادها من الجرائم، وضريبة (الذعيرة) و هي غرامة كان يفرضها قائد القبيلة على مجموع أفرادها بسبب حدوث جريمة جماعية أو مجهولة الفاعل،و هذا زيادة على السخرة التي كان يكلف بموجبها الأفراد بالقيام بأعمال شاقة بدون مقابل في جميع أنحاء البلاد³³⁹ إن القطيعة بين المجتمع و العرش العلوي قد حصلت إذن، منذ زمن بعيد.و عندما سيموت السلطان الحسن (1892) و يتحارب ابنه عبد العزيز الذي تولى الحكم على صغر سنه (1892-1908) و عبد الحفيظ (1908-1912) ستنقسم البلاد على نفسها بانقسام العرش العلوي على نفسه :

³³⁸ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.69.

³³⁹ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص.55.



السلطانان الأخوان العدوان



مولاي يوسف الجنرال ليوطي في زيارة للدار البيضاء

وذلك في زمن تخلت فيه القوى العظمى الرئيسية عن سياسة الحفاظ على وحدة البلاد "فوقعت فرنسا سنة 1904 اتفاقية سرية مع انجلترا أطلقت بمقتضاها يد فرنسا في مراكش كما أطلقت يد انجلترا في مصر و في نفس السنة اعترفت اسبانيا بهذه الاتفاقية و أبرمت بينها و بين فرنسا اتفاقية سرية أخرى اقتسمتا بها مراكش بينهما ثم اعترفت إيطاليا بعد ذلك لفرنسا بالمركز الخاص في مراكش في مقابل إطلاق يدها في ليبيا"³⁴⁰

سنة 1912 ستحتل فرنسا مراكش و تتصّب يوسف سلطانا عليها اسبانيا و تطوان فتنصب فيها المهدي بن إسماعيل خليفة لسلطان مراكش

³⁴⁰ - محمد بن عبود، مركز الأجانب في مراكش، مصدر سبق ذكره، ص39.



مولاي يوسف الجنرال ليوطي في قصر الرباط

صورة السلطان يوسف نقلا عن جاك بيرك

Charles – André Julien, Le Maroc Face Aux impérialismes 1415 –
1956, Paris, ed.Jeune Afrique,



صورة المارسة مولاي المهدي بن اسماعيل عند القربان من باب القلعة يوم وصوله إلى مدينة تطوان ليتولى بها منصب الخلافة السلطانية في جمادى الآخرة عام 1331 ورافق جانيه القلم العالم الانساني الجنرال الفلو ووزراءه الوزير المصطفى السيد محمد بن عزوز وأعيان تطوان وأهاليهم المندرجة.



الجنرال طبيب العلم مندوحة قائد جيش الاستقلال الليبي الانساني لتطوان عام 1331 و 1313 م - وهو أول منظم عام لاسبانيا في منطقة صاييفو بالمغرب - ومدة خدمته من 10 ابريل 1313 - الى - 10 غشت 1314 وقد توفي هذا الجنرال ودفن بتطوان عام 1388 .



صورة القليلة مولاي المهدي بن الخليفة مولاي اسماعيل ابن السلطان حبيدي محمد ابن السلطان مولاي عبد الرحمن وقد أسند إليه سلطان المغرب مولاي يوسف ابن السلطان مولاي الحسن منصب العلامة السلطانية بأقال المغرب عام 1331. وبقي في وطنه إلى أن تولى ودين بتطوان في 13 ربيع الأول عام 1342

في حين ستصبح طنجة منطقة دولية فيصبح ما كان امتيازاً و حماية للأفراد من الأجانب و المراكشيين حماية للبلد جميعه طيلة الفترة الممتدة من 1912 إلى 1956 و إذا كان محمد أحمد بن عبود قد خصص لهذه الفترة ثلث أو ربع الكتاب و قصر

موضوعه في هذا الجزء من الكتاب على مسائل قانونية بحثة اختقت منها كل الأحداث التاريخية التي ميزت ما تناولناه بالدراسة إلى حد الآن فإننا لن نتناول هذه الفترة لأنه يمكن استنتاج ما آل إليه الوضع عندما انفرد بلدان هما فرنسا و اسبانيا بمراكش و احتلاهما بموافقة القوى العظمى الأساسية في القرن العشرين.

خاتمة عامة

نودّ بعد الفراغ من البحث أن نتساءل عن مدى النجاح الذي حققناه في التعريف بالثالوث الفكري السياسي المغربي: الحبيب ثامر و محمد أحمد بن عبود أي بعبارة أخرى هل نجحنا ،مثلما ادعينا في المقدمة في إضاءة جوانب من حيوات هذا الثالوث أكثر مما نجحت الكتابات المتناثرة حول كل شخصية من هذه الشخصيات ؟ إننا نعتقد، و بكل تواضع، أننا حققنا قدرا لا يُستهان به ممّا وعدّ به البحث في المقدمة.و سبب ذلك بسيط إذ لا يوجد مؤلّف واحد تناول مثلما فعلنا ، هذه

الشخصيات المغربية مجتمعة في بحث مفرد و حاول أن يصل إلى ما يؤلف بينها و ما يفرّق.

لقد اعترضتنا و نحن نسعى إلى تحقيق هذا القدر من الوعد صعوبات يصعب حصرها : فعلي الحامي مثلا الذي نعدّه أديبا سياسيا من الدرجة الأولى ألف "إدريس" سنة 1941 في بغداد بالفرنسية و في لغة غير مبسّطة خاصة في المواضيع الوصفية من الكتاب. و حتى عندما تتقلص صقّويته اللغوية في المواضيع التي يفسح فيها الوصف المجال للمسائل السياسية يتضخّم جانب ثان في روايته يتصل هذه المرة بمختلف المذاهب و التيارات الفكرية السياسية القديمة منها و الحديثة سواء في المشرق أو المغرب أو الغرب الأوروبي و ليس في نيّة باحثة مبتدئة مثلي أن تدّعي حتى مجرد ادعاء أنها كانت في أحيان غير قليلة قادرة على السيطرة بما فيه الكفاية على مثل هذه المواضيع ممّا اضطرّها غالبا و في مواضيع عديدة إلى اللجوء إلى الأستاذ المشرف ممّا دفعه هو بدوره إلى أن يقترح عليها تغييرا في الموضوع بحيث يقتصر على دراسة شخصية واحدة من هذه الشخصيات ، أقصد أثراها تفكيريا سياسيا و هي علي الحامي.قبلت الباحثة الأمر و في "القلب لوعة " لأن مثل هذا الاختيار يذهب بالغرض الأصلي من تخيّر الثالوث ثامر والحامي و ابن عبود موضوعا للدراسة و هو التأكيد على شدة تعلقه بالفكرة المغربية و موته في يوم واحد أثناء سفره إلى الباكستان المسلمة حديثة العهد بالاستقلال دفاعا عن هذه الفكرة.

و يبدو أن الأستاذ المشرف أحسّ بما ذكرت ف"تناسى" اقتراحه و أنا شاكرة له ذلك.

إنني أروي ما أروي لا حبّا في الرواية و لكن التماسا لتفهم نوع الصعوبات التي لقيتها في تناول الموضوع و إشارة كذلك إلى ما فيه من نقائص أتمنى أن تكون قليلة.من أهمها ما يتصل أحيانا بضعف الربط بين أجزائه على الرغم من التخطيط الواضح الذي يحكمه في نظري على الأقل.

و إنني لأمل أن يساعد هذا العمل المتواضع غيري من زملائي
و زميلاتي في المرحلة الثالثة المهتمين في قسم اللغة و الآداب
و الحضارة العربية المعاصرة على إثرائه ذلك أنه إذا كان ثامر قد حظي باهتمام
كبير في تونس فليس ذلك هو شأن الحمامي و ابن عبود.و ما ذلك إلا لأن كل بلد
مغربي تعود بعد قيام الدولة القومية Etat-Nation إثر استقلاله في خمسينات
القرن العشرين و بداية ستيناته على أن يركز على ما يعتبره شخصية وطنية
مهملا البقية ومخالفا بذلك دعوة رمز مغربي مثل الحمامي يصعب تصنيفه "وطنيا"
وهذا هو ما حاولنا ، نحن ، أن لا نقع فيه.

و كم نتمنى لو يقع اعتبار علي الحمامي شخصية مغربية و يتأسس معهد عال
للحركة القومية المغربية يحمل اسمه تكون غايته التركيز على ما هو مشترك بين
البلدان المغربية الخمسة لا الثلاثة:
تونس و ليبيا و الجزائر و مراكش و موريطانيا.
فهل يتحقق هذا الأمل في مُقبل الأيام ؟...

الملاحق

ملحق عدد 1

الفصل الأول

اسم تطوان

أسماء المدن المغربية يطلق عليها ويصنفونها في العشب الرسمية وأسماء لا تختلف فيها إلا نادراً. أما تطوان فقد اختلفت ألقابها قديماً وحديثاً في حبيبة الأندلس. ولها معنى حكايتها حتى بلغ ذلك سبع مسور. وذلك من القرية بمصالح. وبذلك ما ولف حله من ذلك في العشب والوثائق الرسمية.

1 - تطوان

بنا مكسورة بعدد ملا واحدة فوق مائل فوق. فحسباً يقتضيه من الناس اسمها الذي في العشب والوسط والرسائل وغير ذلك. وهذه القصة ليست حديثة الاستعمال كما يشك بعض الناس. بل تصالحت مستعملة في القرن الثامن. وأوردت في مصطلح القرطاس (1) المؤلف علم ابن وعشرين ومائة. وأوردت أيضاً في مصطلح شجرة النشء ابن عمر الشونقي سنة 1085. وأن نشئت تأثير فيه ترجمة أبي عبد الله الكروسي (2) ونسج الجاسوس (3) ووردت أيضاً في كتاب فراء الخيال (4) لابن القاضي التتوي سنة 1095. وفي كتاب نزهة الخادي (5) لابن أبي التتوي علم بلد وحسين ومالك وألف كتاباً وردت أيضاً في كتاب الدولة السعوية (6).

2 - تطاون

بنا مشددة بعدد ألى فوق فوق وهذه الصيغة هي التي يطلق بها جميع أهل هذه البنية كالأهل البلاد المغربية في خطابهم الذاتي. ولم يوردت في كتاب الترمذ المتعلق بالترتيب لأفريقي السبتي الجغرافي الذاتي للشعر التتوي سنة 1099. وهذه

(1) من طبع طاس سنة 1208
(2) من طبع طاس سنة 1310
(3) من طبع طاس سنة 1309
(4) ج 9 من 1067 و طبع الرباط سنة 1934
(5) من طبع طاس
(6) من طبع الرباط سنة 1325 - 1308 م وهذا الكتاب مؤلف شعول

جملته عدد 9

محمد زواوي

تاريخ تطوان مختصر

جائزة معهد مولاي الحسن لسنة 1953

محمد مولاي الحسن



نموذج جدير من قصص فومى :

إدريس

(قصة مغربية بالفرنسية — للأستاذ على الحماي)

الأستاذ محمود تيمور بك

—*~*~*~*

ثلاثة عناصر ، متى توافرت لعمل فني مكنت له ، وأبلفته
ذروة الإبداع ، فأسلست له أهواء النفوس ...
تلك العناصر التي أعنيها ، هي :

قوة الإحساس ، وصدق التعبير ، وموهبة الأداء ...
وقد اتسقت ثلاثتها في هذه القصة التي ألفها الأستاذ « على
الحماي » في اللغة الفرنسية ، وسماها : « إدريس » ، وصور بها
الحياة المغربية وما يضطرم فيها من آلام وآمال ...
في تلك القصة تبتسط صحف من التاريخ ، ونصفل مرآة
للحاضر ، وتتجلى أحوال سياسية واجتماعية فاعمة ، وترسل
روح من الوطنية تثير الأفئدة وتلهز المشاعر . فالككتاب -
بفضل ما حواه من ذلك كله - يعد نموذجا من القصص القوي ،
جديرا بالتقدير والإعجاب ...

ومما هو مسلم به عند البصراء من نقاد الأدب أن الفن
لا يجوز ولا يؤتى جناء إلا إن تركت له حرية التحليق والانطلاق ،
لا زعرة على عليه ، ولا مبدأ يتحكم فيه . ومن ثم كانت القصص
التاريخية والسياسية والوطنية في المقام الثاني من القصص الفنية ،
لأن كتابها مقيدة أقلامهم بما حدد لهم من أغراض ، وما عين
لهم من أهداف .

ولكن الأديب « الحامى » فى قصته القومية ، ينجو من
تبعة هذا النقد ، ويسمو على تلك الملاحظة ، وذلك لأنه لم يخضع
قلبه لمنحى مسوق إليه ، ولم يرد فنه على غرض دخيل عليه .
ولمّا أحس فى قوة ، وهب فى صدق ، وأدى قادراً على الأداء .
لقد عايش المؤلف أمته ، وشهد ما نمانيه من كوارث ،

وما يعوق خطاها من أغلال ، وشعر بما يعتلج بين حناياها
من منازع الحرية والمزة ، وكان لذلك أثر فى نفسه لم يلبث
أن دفعه إلى التعمير ، فجرى قلمه مطلقاً بصور حياة قوية ،
ويكشف عن آلامها وخواج نفسها فى إبحاء فنى قويم .

وأنت تسير « إدريس » بطل هذه القصة ، وهو يروى لك
أحداث حياته ، وما تعاقب عليها من أحوال ، فإذا بك — وأنت
مستمرسل معه — تطلع الحياة المصرية فى عصرها المتبدل ، ترى
كيف صنعت سياسة الاستثمار بذلك الوطن المغلوب على أمره ،
وتعلم كيف يسام الخسف والعسف فى جحيم تلك السياسة الفشوم ،
وكيف تنفق نفسه إلى عيش الحرية والكرامة ، فهو يكافح
ويجاهد ما وسعه السكفاح والجهاد .

فقارىء هذه القصة لا يملك سكينته إزاء ما يمر به من صور
تفصح له عن نفسية شعب أبى يتنزل فى الحديد والنار ، وتشرع
بما يكمن فى سريرة ذلك الشعب من فتوة وحمية ، وما يقبل فى عذوبة
من دماء أسلافه الذين كانوا فى طليمة بناء الحضارة وسادة الأمم .
والقصة فى مجلتها مزاج طريف من التاريخ والسياسة والوطنية
والاجتماع ، أو طاقة مزهرة تجمع تلك الألفاظ المختلفة ؛ وراعة
الكاتب تفجلى فى تأليف هذا المزاج ، وتنسيق تلك الطاقة .
فهيات أن يلج القارىء فى أطوار القصة حديثاً لا يستدعيه
الموقف ، أو موقفاً ينبوع السياق ، أو إغراقاً فى وصف وتصوير
تتجافى به القصة عن سبيل التأثير والإقناع .

ما أكثر ما كتب الغربيون عن الأمم الشرقية والإسلامية

بلغات الغرب ، ولكن ما كتبوه لا يصور نفسية هذه الأمم وعقليتها حق تصويرها ، ولا يستوفي حقائقها كما هي عليه ، وذلك لأن أولئك الكتاب إما أن يحدوهم رئيسة سيئة ونزعة مغرصة ، وإما أن يقعد بهم عجز عن التحقيق وصدق التصوير . وإذن فقد أحسن صاحب « إدريس » صنعا ، إذ كتب قصته بلغة عربية ، سدا لذلك النقص ، وإطلاعا لقراء الغرب على حقائق أمة إسلامية فتية تنشد سلامة وكرامة .

وما أجمله توفيقاً أن تكون تلك اللغة العربية التي كتبت بها القصة هي اللغة الفرنسية . . فالقصة ليست إلا صفحة من اضطهاد المستعمر الفرنسي . قن الخبير أن يقرأها الفرنسيون بلغتهم ، دانية المال ، حتى يتبين لهم : كيف يؤدون في بلاد المغرب رسالة الحرية والسلام !

محمود بنمور

ملحق عدد 3

الحزب الحر الدستوري التونسي
مكتب القاهرة

القاهرة في ٢٧ / ٧ / ١٩٥٠

أخي العزيز ورئيسي الجليل الأستاذ العبيب بونعيم

تحية وسلاما واشوقا

أما بعد فاني اتصلت بعزيد السروي مكتوبك المؤرخ في ٢٢ منه فاني وأخواني تقدم لك بجزيل الشكر على حسن ظنكم بنا وثقتكم المالية وبنيتكم لما تقوم به من نشاط والله نسال ان يوفقنا في تأدية واجباتنا على أحسن الحالات - وأنه لمن بؤس التشجيع الكثير رضاكم على مجهوداتنا الضعيفة فشكروا ثم شكرنا -

وقبل ان احييكم علما بأي جديد لا بأس ان اشعر بكم ما جاء من توصيات في خطابكم الأخير وأعلمكم بما تم من النقطة التي حثنا رسالتكم من اتصال مع سمو الأمير -

١) ذهبت لمقابلته البارحة واليوم وبحثنا معا ما جاء في خطابكم - فهو يلغىكم سلامه ويدعوكم بالتوفيق - وقد استر كثيرا لما كتبتوه في رسالتكم التي جوامعها وأنتهج لنفس العبارات التي خاطب بها بوجاهة وقال لي اني انذر وأحذر بوجاهة مرارا وتكرارا من اماله هاته التي يحده سموه بالطمع والسرور والتبهرير بها تضر أكثر مما تنفع وقال لي انه كثيرا ما انباه منه - ولا يرى سموه ان تمسك الى عمل شعر ونشترك في حصة اذا كانت الفوضى سائدة وكل يخلق الأحداث ثم يصعبها بما يراه ولا بد من النظام والانقياد - وأظن انه سوف يتكاتف -

على اني فكرت في مكانة بوجاهة انما بد يري وسوف استشير سموه بهذا بلا شك - سوف يطلبني تبليغ بعض كلمات ومضامين باسمه -

٢) قال لي سموه انه سمع من اذاعة الشرق الأدنى خبر قرب رحلتك الى باكستان فسالني ان عندي شيئا في الموضوع - قلت لم يعلني الأستاذ في خطابه الأخير من نية سفره الى باكستان على رأس وفد كما جاء في خبر محطة الشرق الأدنى - ولكن قد يكون ذلك مجرد تخمين او تخمين بنا - على ما اقتضا من تعهد مع باكستان - فقال ارجوك ان تعلم الأستاذ العبيب ان لا بأس ان نتشاور في هذا الموضوع قبل ان يقرر - فاستوضحته اكثر وقلت اني أعلمكم ان الدوافع مناسبة للقيام ببعض الشيء مع باكستان بعد رد خليفة الزمان على تداننا وما يشهر من حسن استعداد الرابطة الاسلامية في مساعدتنا وربما قد تخطر الحكومة نفسها الى عرض قضية تونس - قال : الخاف ان يقع ذلك - (أي ان تحرر قسيتنا حكومة باكستان على هيئة الامم) ٢٤ - قال : نعم - أعلم اني علمت شخصيا في المرة الأخيرة ان شخصية كبيرة هنا مبهمة بقسيتنا الى أقصى درجة وهي تريد ان تتبناها وان يكون لها الفضل الاول في الخروج بها من عزلها الى المهادين العالمية - وقد يكون من الاحراج ان تلعب دولة اخرى بعرضها فلا بد - لا بد ان تعلم الأستاذ بالثبوت في هذا الموضوع بالخصوص - وانت تعلم ما يقصد خصوصا بعد المقابلة الطويلة التي تمت في رمضان بينه وبين هذه الشخصية - (سوف أعلمه فيما بعد على هذا) ٣) سألت سموه على المكتوب الذي ارسلتموه له منذ مدة غير قصيرة - فذكر انه استلمه - وقال لي ان اجيب عنه فهو كما تعلم متردد في ذلك المشروع القاصي بجولة الفائدة الفنية - ولا يثق مثلي ومثل اخيه من استعداد الدول والشعوب للمساعدة - وهو يبدئي بأنه سوف يتكاتفه وسأحرص عليه حتى يعمل ٤) لسم يخلصني ()

٥) لا يستغرب من الذكر المغمري ما قاله فهو كان محل شعبة من نيته وبوب ٥٥٥ من حيث السبولة التي كان دائما يجدها في سفره الى المغرب - وكذلك فيما يتعلق بمعلوماته بقائه راسية في لندن كما ايد هذه النظرية غيرهما من الصحافيين الانجليز - وقد يكون هو نفسه علم هذا التفكير ولما اتى الى هنا فابالته مرات قليلة فتروى على الجامعة وعلى الافراد حتى لم يبق مركزه محترما عندهم وتحصل كما تعلم على مساعدته له اخذت من المكتب - اما فيما يتعلق باليدخ في ميادين الشخصية /
..... /

فلا بأس ان تعلم كل الحقيقة حول هذا الموضوع مع انه خاص بي : سكنت مع يوب وسجلي استاذ في الجامعة الامريكية اسمه () مدة عام كامل في محل ايجاره ١٧ جنينا كنا نتقاسم مصاريفه ومصاريف الاكل . وهو محل مؤثث . فكل البذخ الموجود فيه يرجع الى صاحبة المحفل وسرتني ان اعطتني لا املك فيه ولا في غيره اي شي . تملكه عادة الناس لا كرمي ولا مخد . اما موارد بذخ معيشتي فهي كما تعلم لم يعدني بقروش واحد كمساعدة أي شخص مصري او عربي او مغربي . ولا اية هيئة او جمعية او حزب او حكومة . بل قل اني لم استلم قرشا واحدا منذ قطع الحزب علي مساعدته في تاريخ السطس ١٩٤٨ وانتم لا زلت بالقاءرة . وتعلم ان عزام والجامعة العربية كذلك لم تعدني باية مساعدة بالرغم من تدخلكم قبل مغادرتكم القاءرة . عشت كما شاء الله ولم اشك في احد . ويوب من الذين لهم فضل في انتاذني ولم تطلب احدا بتسديد ما لها علي من ديون وكل ذلك بيني وبينها . فعمل سمعت مني لك مباشرة او الرأي قرر في الحزب او في غيره شكوى او مظالبة او تشهير . عرفت كيف احفظ كرامتي والآن مع الصابرين . ولكن هذه قيم لا يقدرون ان يفهمها الدكتور الصعيري الذي اني يطالب بما لا يقل على خمسين جنينا شهريا لمعيشته .

وفي الوقت الذي انا فيه في مستشفى النيل كان الدكتور يفهمني انه من واجبي التدخل ليتدخل هو على بغيا من تمويل مكتب لندن . ثم . . . ولا اقدر ان اقول اليه او الي غيره اني عاجز حتى على دعوته للقاء . على مائدتي . ولكن لا يهم هذا كله . اما انه اخذ معلوماته من الشاذلي فذلك ايضا لا يستغرب فانا اعرف صاحبنا واعرف كل نواياه ولا اغتر بوقوفه الموقت الى جانبنا .

واريد بهذه المناسبة ان اعيد لك رأي الامير في هذه الشتم . فهو مطلق على جزئيات حياتي وكثيرا ما كنت اقتبلته عندي في البيت . فقامت هذه الحملة عندي وبذعب المبعوثون لتبليغ الامير الحقائق عن حياتي واخلاقي . ويوب . الخ . وحكي لي سموه انه خزايم جميعا وقال لهم اما الباعت دعايتكم الحقد والخيرة واما العجز . اما انا فاني راضي على حياة الطبيب واستحسنها وان كان ما تزعمونه حقا فعلى الاقل يعرف الطبيب كيف يستتر . وكان جزاء الله من وكر عطفه انه يسلطني ويدعوني الى عدم الاكترات بدعائهم . وكان يحفل لي حياة كل الذين يتبعونني فيدعوني باطلانه على فضائعهم وفي مقدمتهم الشاذلي . فارحوا ان لا تشغل بالكم بالصعيري .

(٥) انا في انتظار المعلومات والقصاصات والصور للتكثيب .

(٦) من معلوماتي الخاصة ان اهتمام الحكومة المصرية بدأ يخرج من ستاره فيما يخص القضية التونسية وكذلك اقتناع عزام باشا فلا بأس تدعيم هذا الاعتماد من طرفكم مباشرة مثلما اشرت له في الخطابات السابقة . وقد اعطتك في حينه بتقريرنا عن رحلتكم الى محمد صلاح الدين بك ه وقد طلعت منذ يومين خطابا من الخارجية مؤرخ في ١٩ / ٢ / ١٩٥٠ برقم ملف ٢٢ / ١٠٥ / ٢ / ١٩٦٦ باعضا . وكيسل الخارجية حقوقيك فلهذا ان الوزارة تسلمت خطابنا وانها . تقدر الجهود التي يبذلها الاستاذ الحبيب بوزقيسسه والتي تهتم الحكومة المصرية بالوقوف عليها كما انها تتابع بالاهتمام جهود تونس وشمال افريقيا لبلوغ الحرية والاستقلال .

والرجاء الاكيد حث الجماعة والديوان في تونس بالاهتمام بجمع الوثائق وارسالها سريعا لنا حتى تكون على اتم الاستعداد عنا في تحضيرها وتجهيز ملف للقضية لما قد يلحظنا من الطلبات . على اننا اخذنا نعد تقارير جديدة . فمرنونا برأيكم وارشاد انكم وتعليقاتكم في هذا الموضوع بالخصوص .

(٧) تعليق على الفقرة رقم ٢

لا زلت اعتقد ان الاستفادة من استعداد باكستان وبخاصة الرابطة الاسلامية ممكنة وقد برهن خليفة الزمان رئيس الرابطة الاسلامية اهتماما كبيرا كان واضحا في جوابه الذي نشر وفي متابعته لفكرة عسدد مؤتمر في دمشق يبحث القضايا العربية ومنها قضية تونس . ولا زلت اعتقد انه لا بد لنا ان نقوم ببعض الشيء . لاقتنا شعرة مبهودنا . ولا زلت انتظر رأيكم في هذا الموضوع .

واذا كان فيه الناحية السياسية كعرض القضية من طرف حكومة باكستان على هيئة الامم - قد يضر بمرامج سمو الامير او بنية دولة اخرى في عرض قضية تونس فانه يمكن لنا ان نجد حلا وسطا . وارسال

الاشيف الرطني الدولي

(٣)

وقد مثلاً يمكن ان لا يتعارض مع ابقاء البديهة السياسية الى غير باكستان ويمكن ان تحدد مهمة الوفد على نواحي الدعاية والتعريف وربط الصلات وايجاد المساعدات * وكذلك لا زلت اعتقد انه يمكن لنا ايجاد الشكل الذي نستفيد منه دون ان نخضب احدا * فما رأيكم في ذلك

٨) هذا وقد علمت بدون شك اعادة فتح المكتب واستعادة النشاط المشترك فقد ارسلنا لكم برفقة ممثلة من الطليح والعلي والمخلص لكم - من تحرير الشاذلي سامحه الله - كما ارسلت الى علال والبيدي وموالي والي تونس *

وفي انتظار الوثائق والصور والمكاتب يسرني ان اقدم لكم تحيات وسلام جميع الاخوان كما يلزم لي ان اكرر تحياتي وسلامي

اخوكم المخلص

الطيب

اكاذيب القاهرة وارجيف المتخبيين هنا : لا قيمة لها فلا تهتموا بها :

١) انشق جنوب تونس على الحزب *

٢) الاستاذ الكبير يوسف الروسي يكون حزبا جديدا انظمت اليه جميع شعب الجنوب *

٣) تونس ارسلت ٢٠٠٠ ج الى الاستاذ يوسف مع خليفة حواصليقوم بالدعاية * * * ويسدد ديونه (يصل خليفة الى ؟)

٤) الصحافة التونسية سوف تقوم على الحزب *

هذا والاستاذ يوسف لا زال هنا * * * وفندما جاء الصحراوي الى القاهرة في طريقه ورجوعه من طهران في رمضان * * * اعيدت له جميع التهم في (جاردن سيتي) ضدكم من كيف بحتم سيارة شرع بها الصحراوي على الحزب وكيف تركتم الجماعة في الديون * ورجعتم بائثاق مع الاعداء بحجة الجواز الخ * * * وقال لي الصحراوي انه لم يكن يتوقع من الجماعة ان يذهبوا في الانحطاط الى هذه الدرجة من الانتهاكات والخرافات *

الاشرف المظني ، التلمسي

نموذج من الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان و الشيخ بنونة حول حالة
علي الحمامي

الرسالة رقم (41)
المؤمنون الذين اختبأوا بالرسالة :
العديد في هذه الرسالة من جوانب السيرة من أخصاص
والإستعداد وأوصاف وطالب العلم له الإستفادة .

رسالة

12. 11. 2017

يأخذ أن هي السهل (١) التي تلبسهم بـ (٢) كس
قد جاء مكتوب من غار الحارثية في الجدار بأشرف إلى مكة
والأجلا أن يحمو، عدا فيها كهم لم ير سلا إليه بملحة السمر ومن
وذلك الوقت لفرح الإنسان العرب، الذين يبنون عدا من بلادهم
وأفرحوا من الحملة عدا إلى جليل قاروق الواسي بلسي
الاماني بلسي إلى شعرة إلى جدة وأقام بجبل على سفلة مدة
باحت وجنتا الأصح انا وله أن تسهر إلى جنة بالبرية الثانية
وقد كثر ما ومن أقي عدا ومن أقي الحادي ١٠٠٠ ليلة يومه ق
وسمر ناد عن طريق إيطاليا إلى دور سمية يأخذ عدا أو من السوس

[illegible]

[52]

[illegible][illegible]

نموذج من الرسائل المتبادلة عقب حرب الستين بين "المخزن" و قنصل اسبانيا نقلا

عن محمد داود : مختصر تاريخ تطوان



وجهة نظر الطابط التونسي عز الدين عزوز إلى الخلاف المبكر في مكتب المغرب العربي مأخوذة من كتابه

"L'histoire ne pardonne pas "



الفهارس

فهرس الأعلام
قائمة المصادر و المراجع
فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

- ابراهيم (حافظ)
 - ابن خلدون
- صص. 56. 57
صص. 187. 228. 242 .

- ابن رشد صص 183. 187. 217. 228. 242 . 244 . 235 252.

254

- ابن طفيل ص 235
- ابن عبد الوهاب (حسين) ص.109
- ابن نصير (موسى) ص 238
- أحمد باي الثاني ص 207
- إدريس (الرشيد) صص 33.37. 35. 37. 39. 40. 41. 45. 48.
- 49 . 50 . 52 . 53 . 54 . 56 . 58 . 111 . 118 . 124 . 208.

- أرسطو صص 79 . 252
- أرسلان (شكيب) صص. 41. 55. 75. 80. 81 . 82 . 83 . 106.

120

- أقبال (محمد بن مصطفى) ص.109
- آل سعود (فيصل بن عبد العزيز) ص.83
- أنطون (فرح) ص 254
- أوغستين (القديس) ص 231
- باش (حانبة علي) ص 196
- باكير (علي أحمد) ص 149
- براهيمى (محمد الطاهر) ص.116
- برتران (لويس) ص 235
- بركاش (محمد) ص 290
- بريمو (ديريفيرا) ص.106
- برينان (جيرالد) صص 283 . 284

- بسباس (الصادق) ص 49..56
- بسباس (محمد) ص 40
- بكاي مبارك (أـ) ص 97
- بلافريج (أحمد) ص 99
- بلهوان علي (أـ) ص 205
- بن يوسف (محمد) صص 96 . 98 . 107
- بن المهدي (الحسن) صص 11 . 94 . 97 . 107 . 110
- بن تومرت (المهدي) صص 183 . 187 . 228 . 241 . 242 . 243 . 244
- بن سليمان (سليمان) صص 31 . 32 . 33 . 117 . 202
- 209 205
- بن عاشور (محمد الطاهر) ص 50
- بن عاشور (يوسف) صص 39 . 40
- بن عبود (أحمد عبد السلام) ص 120
- بن عبود (محمد أحمد) صص 7 . 8 . 9 . 10 . 11 . 12 . 13 . 15 . 16
- 17 . 89 . 108 . 109 . 110 . 111 . 116 . 117 . 118 . 119 .
- 120 . 121 . 122 . 123 . 125 . 130 . 133 . 136 . 137 . 138 .
- 139 . 143 . 147 . 148 . 176 . 181 . 182 . 205 . 257 .
- 260 . 261 . 262 . 264 . 267 . 268 . 269 . 270 . 272 . 274 .
- 275 . 276 . 277 . 278 . 279 . 282 . 283 . 297 . 299
- بن علي (عبد المؤمن) صص 183 . 241
- بن علي (حسين) ص 189

- بن علي (حميدة عمر) ص.40
- بن هشام (عبد الرحمن) ص 279
- بن يوسف (صالح) صص 202 . 205
- بنونة (احمد) ص.140
- بنونة (إدريس) ص.109
- بنونة (الطيب) صص.84 . 100 . 109 . 138
- بنونة (عبد السلام) صص.81 . 82 . 83 . 101 . 102 . 104 . 105 .

140

- بنونة (عبد الكريم) ص.109
- بنونة (مهدي بن عبد السلام) ص.109
- بوبكر (بوهادي) صص. 106 . 107
- بوجمعة (محمد) ص.57
- بوحافة (العابد) صص.117 . 118
- بوحداد (أحمد) ص.108
- بورقيبة (الأخوان) ص 202
- بورقيبة (الحبيب) صص.12 . 20 . 34 . 36 . 37 . 42 . 43 . 46 . 47
- 48 . 49 . 50 . 54 . 60 . 110 . 117 . 118 . 120 . 134 . 135
- . 136 . 189 . 198 . 201 . 204 . 209 .

- بورقيبة (محمد) ص 202
- بوزيد تاج (الدين) ص.57
- بوزيدي (ألـ) (المختار) ص.39
- بوشوشة (صلاح الدين) ص.39 . 41

- بوقطفة (الحبيب) صص . 51 . 55 . 202
- بونترو (محمد) ص.57
- بيرك (جاك) ص.104
- بيروطون (المقيم العام) ص.33
- بيكيدر (المقيم العام) ص.106
- تركي (محمد) (أـ) ص.50
- تريكي (حسين) (أـ) صص. 39 . 41. 43 . 45. 49.

57. 53

- تسماني(خلق عبد العزيز) (أـ) ص.74
- تيمور (محمود) ص.68
- تيمومي (الهادي) (أـ) صص. 10 . 14 . 195
- ثامر (الحبيب) صص. 7. 8. 9 . 10 . 11 . 12. 13. 15. 16 . 17 . 20. 21. 22 . 23 . 27 . 28 . 29 . 30 . 31 . 33. 34 . 36 . 37 . 38 . 41. 42. 43 . 46 . 47 . 48 . 49 . 52 . 54 . 59. 89 . 111 . 106 . . 118. 120 . 123 . 124 . 125 . 130 . 133 . 134 . 135 . 136 . 137 . 143 . 147 . 148 . 150 . 151 . 152 . 154 . 155 . 158 . 159 . 176 . 180 . 181 . 182 . 183 . 184 . 185 . 187 . 188. 189. 191 . 192. 193. 194 . 195. 197 . 198 . 199 . 201. 204 . 205 . 206 . 207. 208 . 209. 299 . 300.

- ثعالبي (عبد العزيز) (أـ) صص 34 . 50 . 108.

196

- جا وحدو (الحبيب) ص.31 . 32
- جراد (محمد الصالح) ص150
- جراد(بلحسين) ص.39
- جزائري (عبد القادر) (أـ) ص 195
- جلاتي (الحسن) (أـ) ص 198
- جلاتي (حسن) ص.45
- جلول (محمد الصالح) ص.71
- جلولي(فارس) ص.40
- جلون (أحمد بن عبد الكريم) ص.109
- جلون (عبد السلام بن الحاج أحمد) ص.109
- جلون (عبد الكريم) ص.97
- جلون (عبد المجيد) صص.139 . 140 . 141 . 142 . 143 .

147

- جوان (الجنرال) ص 260
- جيرو (الجنرال) ص.51
- حاجي (محمد) (أـ) ص.74
- حداد (عبد الحفيظ) (أـ) ص.50
- حَسِسان(محمد بن احسين عبد الله) ص.109
- حسين (بن علي) ص 189
- حسين (عبد الباقي) ص.39
- حسين(طه) ص. 146
- حسيني (الحاج أمين) (أـ) ص.50

- حصري (ساطع) (أـ) صص. 73 . 87 . 88
- حفشي (محمد) (أـ) ص. 57
- حمامي (علي) (أـ) ص. 7 . 8 . 9 . 10 . 11 . 12 . 13 . 15 . 16 . 17 . 63 . 66 . 67 . 68 . 69 . 70 . 71 . 72 . 80 . 81 . 83 . 84 . 86 . 88 . 106 . 123 . 143 . 147 . 148 . 176 . 182 . 184 . 186 . 191 . 192 . 205 . 215 . 216 . 223 . 229 . 232 . 235 . 236 . 238 . 240 . 243 . 247 . 250 . 256 . 299 . 300 . 301
- حنبل صص 226 . 227 . 229
- خطابي (محمد بن عبد الكريم) (أـ) صص. 7 . 8 . 10 . 12 . 63 . 65 . 67 . 89 . 73 . 74 . 106 . 107 . 117 . 124 . 125 . 130 . 131 . 134 . 136 . 137 . 194 . 195 . 209 . 214 . 228 . 235 . 256 .
- خطيب (امحمد بن عبد السلام) (أـ) ص. 109
- خطيب (عبد الله) (أـ) ص. 109
- خطيب (محمد بن محمد) (أـ) ص. 109
- خلفاتي (محمد) ص. 56 . 57
- خليفة (محمد) ص. 31 . 32
- خيضر (عمار) ص. 56 . 57
- داود (محمد) صص 72 . 74 . 98 . 287 . 290
- دربال (يوسف) ص. 50
- دونات (أسقف) صص 234 . 236 . 243

- دويري (محمد) (ألـ) ص.57
- دي قول (الجنرال) ص.39
- دية (الطاهر) ص.21
- روسو ص.79
- رويسى(يوسف)(ألـ)صص.202.119.120.54.48.49.118
- رياحي (محسن) (ألـ) ص.74
- رينان (ارنست) صص 252 . 253 . 270
- زرق العيون (البشير) ص.40
- سالم (امحمد) صص.123 . 136
- سان لوشان ص.67
- سعادة(أنطون) ص.87
- سعيدي (الهادي) (ألـ) صص.40 . 49 . 54 . 60
- سلامة (محمد) ص.50
- سليم (الطيب) صص.124 . 189 . 208
- سليم(المنجي) صص 20 . 189 . 205
- سنهوري (عبد الرزاق أحمد) (ألـ) ص 260
- سنوسي (الشاذلي) (ألـ) ص.50
- سنوسي (زين العابدين) (ألـ) صص.45 . 50
- شاكر (الهادي) صص 55 . 202
- شنيق (محمد) صص.48 . 49
- صفار (محمد) (ألـ) ص 279
- صفر(الطاهر ص 202

- طاهر (محمد علي) (أـ) صص. 38 . 206
- طريس (عبد الخالق) (أـ) صص. 59 . 64 . 96 . 101 . 106 . 107 . 108 . 119 . 132 . 137 . 138 . 139 . 218 .
- طهطاوي (أـ) (رفاعة رافع) ص 279
- طوريس (موريس) (أـ) صص. 70 . 78
- طيب (سليم) (أـ) صص. 49 . 52 . 53 . 54 . 134
- عباس (فرحات) ص. 71
- عبد القادر (علي) صص. 72 . 73
- عبد الناصر (جمال) ص. 12
- علمي (محمد) (أـ) ص. 100
- علوي (أحمد) (أـ) ص. 57
- علوي (بلعربي) (أـ) صص. 99 . 100
- عمارة (محمد) ص. 40
- عمر (بن حميدة) ص. 40
- عنابي (محمد علي) (أـ) ص. 63
- عيماش (عمّار) ص. 74
- غربي (مصطفى) (أـ) ص. 50
- غلاب (عبد الكريم) ص. 73
- فاروق (الملك) ص. 12
- فاسي (محمد بن الحاج عبد السلام) (أـ) ص. 109

- فاسي (محمد علاّل) (أـ) صص. 12. . 62. 64. 66. 67. 69 .
- 71. 96. 99. 100. 101. 102. 104. 105. 118. 132. 135 .

218 . 219

- فرانكو صص. 11. 106. 107. 120
- فلاندين (إتيان) ص. 25
- فورتى (البشير) (أـ) ص. 45
- قابسى (محمد علي) (أـ) ص 198
- قاسمي (محمد) (أـ) ص. 106
- قاوقجي (فوزي) (أـ) ص. 50
- قرطبي (فريد) (أـ) ص. 50
- قيقة (البحري) صص 45 . 202
- كاتط ص. 79
- كونت (كزا ريبيل) (أـ) ص. 121
- كيلاني (رشيد عالي) (أـ) صص. 50 . 88
- لابلاس ص. 62
- لامارك ص. 62
- لوسيان سان) صص. 22. 24. 67
- لويس (الخامس عشر) 264
- لويس (الرابع عشر) ص 264
- ماركس ص 79
- ماريشال (ليوتي) (أـ) ص. 67
- ماطري (محمود) (أـ) صص 45 . 202

- مبارك (زكي) ص.101
- مجدوب (الهادي) (أـ) ص.43
- محمد الخامس (الملك) ص.97
- محمد الناصر (الباي) ص.22
- محمد منصف (الباي) صص.51. 55. 123 .197.
- 207. 208
- مدين (أحمد) ص.109
- مسعدي (محمود) (أـ) ص.40
- مصالي (الحاج أحمد) صص.12. 70. 71. 72. 73 . 74. 75.
- 85. 118.
- مكي (الشاذلي) (أـ) ص.135
- ميكيل (غارسيا رودريكييس) ص. 121
- ميلاد (أحمد) ص 202
- ميلي (محمد) (أـ) ص.57
- ناصري (محمد المكي) (أـ) ص.96
- نعمان (محمد) (أـ) ص 198
- نفزاوي (محمد الناصر) (أـ) ص.17 . 35
- نويرة (الهادي) صص 31. 32. 205
- نيفر (محمد الصالح) (أـ) ص.43
- هوبز (توماس) صص.76. 79
- وزاني (محمد بن الحسن)(أـ) صص.64 81 .100. 104. 110.
- 218. 219

- يعلاوي (الرحمن) (أ-)
 - يوسف (السلطان)
 - يوسي (الحسن) (أ-)
 - يوغرطة
- صص. 31. 32
- صص. 71. 75
- ص. 97
- صص 234 . 23

قائمة المصادر و المراجع المذكورة في الهوامش بالعربية مرتبة ترتيبا ألفائيا

- إدريس الرشيد ، في طريق الجمهورية، بيروت ، دار الغرب الإسلامي،
2001.
- أنطون فرح ،ابن رشد و فلسفته، بيروت ، 1988.

- براهيمى محمد الطاهر ، محمد بن عبد الكريم الخطابي في المهجر المصري،
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2005 (غ.م).
- بلحولة محمد علي: الطبيب التونسي ، تونس، مط.أوميغا، 1995.
- بن عبود محمد احمد ، مركز الأجانب في مراكش " ، القاهرة ، مط.الرسالة،
1950.
- بنونة الطيب ، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شبيب أرسلان
والحاج عبد السلام بنونة ، طنجة ، دارا الأمل ، 1980.
- تطوان في عهد الحماية 1912 – 1956 ، تطوان، نشر المجلس البلدي،
1992.
- تيجانوفاتاتيانا ، ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي
العربي، موسكو، دار التقدم، 1987.
- تيمومي الهادي (الـ)، "الاستعمار الرأسمالي و التشكيلات الاجتماعية ما قبل
الرأسمالية : الكادحون "الخماسة" في الأرياف
التونسية (1861-1943)"، جزآن، تونس – صفاقس، كلية العلوم الإنسانية و
الاجتماعية، دار محمد علي الحمامي، 1999.
- تيمومي الهادي(الـ) ، تونس 1956 – 1987 ، تونس، دار محمد علي
للنشر، 2006.
- تيمومي الهادي(الـ) ، مفهوم التاريخ و تاريخ المفهوم في العالم الغربي من
"النهضة" إلى "العولمة" ، صفاقس ، دار محمد علي الحامي للنشر، 2003.
- حاجي محمد، المسألة البربرية في الجزائر المعاصرة (1926-2004)
(ش.د.م.غير منشورة)، منوبة، كلية الآداب، 2003.
- الحبيب ثامر، هذه تونس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1988.

- داود محمد، مختصر تاريخ تطوان، تطوان، المط. المهدية، 1955.
- دلماس كلود ، تاريخ الحضارة الأوروبية ،بيروت، ط.2، 1982.
- رهوني أحمد(الـ)، عمدة الراوين في أخبار تطاوين، (مخطوط).
- رياحي محسن(الـ) ، الفكرة المغربية نشأتها وتطورها،(1926-1962) (ماجستير، غ.م.)،منوبة ،كلية الآداب، 2004.
- شابي منصف(الـ)، صالح بن يوسف، حياة كفاح، تونس ، دار الأقواس للنشر، 1990 .
- عامل مهدي ، أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، بيروت، دار الفارابي، ط. 6، 1989 .
- عظم صادق جلال(الـ)، ثلاث محاورات فلسفية.دفاعا عن المادية و التاريخ (مداخلة نقدية مقارنة في تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة)، بيروت، دار الفكر الجديد،1990.
- علمي محمد (الـ) ، علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية، الرباط، مط. الرسالة،1980.
- غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال، الدار البيضاء، مط.الشركة المغربية للطبع و النشر، ج1، 1976.
- نفزاوي محمد الناصر(الـ) "الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده فرح أنطون، تونس، مركز النشر الجامعي،2000.
- نفزاوي محمد الناصر(الـ) ، الدولة و المجتمع من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده- فرح أنطون، تونس، مركز النشر الجامعي، 2000.

- نفزاوي محمد الناصر(الـ) درس ضمن المادة التكميلية في الماجستير "أثر المدارس الفكرية السياسية الغربية و مناهجها في المفكرين العرب المحدثين والمعاصرين"، السنة الجامعية 2005-2006.
- نوال هاجر(الـ) ، ماجستير بعنوان "سليمان بن سليمان و عصره (بصدد الإعداد، اطلعنا على جزء منه) بإشراف الأستاذ م.ن.النفزاوي.

الجرائد و المجلات

- الإنسانية L'humanité ،صحيفة يومية أسسها سنة 1904 جان جوريس
- Jean Jaurès**
- الحرية، 25 ديسمبر 1949
- الزهرة، العدد 12037، 20 ديسمبر 1949.
- الزهرة، بتاريخ 15 / 12 1949
- العلم بتاريخ 21 ديسمبر 1949.
- العلم مقال لعلال الفاسي في عدد 21 ديسمبر 1949.
- القدس العربي عدد 31 ماي 2001 (الحلقة الثانية).ابراهيم درويش، "القتصل والحاج و صورة المغرب [الأقصى] منذ عام 1830".
- النهضة، 16 ديسمبر 1949
- النهضة، عدد 790، 16 ديسمبر 1949.
- النهضة، عدد 1903، بتاريخ 17 ديسمبر 1949

النشریات

- النشرة السنوية لـ ج.ط.ش.إ.م، 1929-1930، تطوان، المط..، المهدية، 1930.

- نشرة المؤتمر الخامس لـ ج.ط.م.ش.إ.، تونس، المط.التونسية، [د.ت].

المجلة التاريخية المغربية

- المجلة التاريخية المغربية، العددان 33-34، تونس 1984. محمد بن عبود، وثيقة جديدة حول حوادث تطوان (8 فبراير 1948)،
- المجلة التاريخية المغربية، العدد 12، 1978.
- المجلة التاريخية المغربية، عدد 25. 26 جوان 1982

بالفرنسية مرتبة ترتيبا أبجديا

- Azzouz Azzedine, L'histoire ne pardonne pas ; Tunis, Dar Achraf, 1988.
- Ben Sliman Sliman, Souvenirs Politiques, Tunis, Cérès Production, 1989
- Berque Jacques, Le Maghreb entre deux guerres, Paris, Seuil, nouv.ed., rev. et augm., 1961
- Bessis Sophie et Souhayr Belhassen, Bourguiba 1. A la conquête d'un destin, 1901-1956, Paris, éd. Jeune Afr., 1988
- Bourguiba Habib, La Tunisie et La France, Paris, Julliard, 1954, p.235
- Brenau Gerald, le labyrinthe espagnol, origines sociales et politiques de la guerre civile, Suisse, ed. Ruedo ibérico, 1962
- Ennafa Mohamed, Il était une fois... un jeune révolte, Paris / Tunis, Publisud / Maghreb diffusion, 2000

- GOLDSTEIN Daniel, Libération ou annexion, aux chemins croisés de l'histoire Tunisienne, Tunis, M.T.E, 1978
- Hammami Ali, IDRIS, roman nord-Africain, 2ème édition, entreprise nationale du livre, Alger, 1988
- Messali Hadj, Mémoires, Paris, Lattés, 1982 عن درس الأستاذ محمد ناصر النفزاوي التيارات الفكرية السياسية في الثورة الجزائرية"، الذي ألقى على طلبة شهادة " التعمق في البحث بكلية منوبة، السنة الدراسية 2002-2003
- Renan Ernest, l'islamisme et la science, Paris, 1883

فهرس الموضوعات

| | |
|-----|--------------|
| ص.2 | الإهداء: |
| ص.3 | شكر و امتنان |
| ص.4 | شكر خاص |
| ص.5 | تصدير |
| ص.6 | المقدمة |

القسم الأول الثالوث المعذب قومية مغربية

ص19

الفصل الأول :

الحبيب ثامر: من ضيق المدينة إلى فسحة المغرب العربي المسلم ص.20

الفصل الثاني :

علي الحمامي من تيهرت إلى القاهرة (1902-1947) ص.61

الفصل الثالث:

محمد بن عبود من النشأة إلى تمثيل المغرب الخليفي في جامعة الدول العربية
(1946) ص 92

القسم الثاني : ثامر و الحمامي و ابن عبود في المهجر المصري

ص.116.

الفصل الأول

نشاط الثالوث السياسي والفكري ص.117

الفصل الثاني:

صدى نشاط الثالوث السياسي و الفكري من خلال مختارات من كلمات التأبين
ص.145

القسم الثالث: ثامر و ابن عبود و الحمامي في مؤلفاتهم ص.170

الفصل الأول: هذه تونس، دراسة تحليلية ص.171

الفصل الثاني: إدريس، دراسة تحليلية ص.204

الفصل الثالث: مركز الأجانب في مراكش، دراسة تحليلية ص.250

خاتمة عامة ص.291

| | |
|-------------------------|-------|
| الملاحق | ص.295 |
| الفهارس | ص.309 |
| فهرس الأعلام | ص.311 |
| قائمة المصادر و المراجع | ص.323 |
| فهرس الموضوعات | ص.330 |

قائمة البحوث التي تتناول التفكير السياسي و الاجتماعي في المغرب العربي
أشرف عليها الأستاذ : محمد الناصر النفزاوي و يمكن الاستئناس بها لمزيد من
التعمق في هذا الاختصاص ضمن مادة الحضارة العربية مرتبة حسب سنوات
المناقشة ضمن لجان مناقشة رأسها كل من الأستاذين الهادي التيمومي و أحمد
الخصصوصي:

- محمد حاجي ، المسألة البربرية في الجزائر المعاصرة (1926-2004)
(ش.د.م.غير منشورة)، منوبة، كلية الآداب، 2003.
- عادل الهرسي، الجزائريون في تونس (1954-1962) (ش.غ.م.) ، منوبة
كلية الآداب 2003.

- الرياحي محسن ، الفكرة المغربية نشأتها و تطورها،(1926-1962)
(ماجستير، غ.م.)، منوبة، كلية الآداب، 2004.
- مهدي بن عبد الجواد، عد الكريم الخطيب و العرش العلوي، ماجستير ،
تونس ، كلية العلوم الإنسانية، 2005. (غ.م.).
- محمد الطاهر البراهمي ، محمد بن عبد الكريم الخطابي في المهجر
المصري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2005 (غ.م.).

قائمة البحوث المبرمجة لنهاية 2006:

- هادية المشيخي ، سياسي إياضي مغربي: سليمان الباروني (1873-
(1940)
- وداد البلاي، عام حاسم في تاريخ المغرب العربي ، 1930 المؤتمر
الأفخارستي و مائوية احتلال الجزائر و الظهير البربري.
- هاجر النوال ، سليمان بن سليمان (1905-1986) و عصره
- ناجية البوكاري ، حامد الزغل شاهدا على عصره
- زهرة بوعلاق ، الفترة البومدينية في أهم مؤلفات عبد الحميد بن هدوقة و
الطاهر وطار
- عيسى الجابلي، تونس بين 1952 و 1957 في مذكرات
و شهادات بعض المعاصرين.
- شادية الهرمي، محمد بن الحسن الوزاني : حياته و تفكيره السياسي.

- منال الشرعبي، الاتجاهات الفكرية و السياسية في حزب الاستقلال من التأسيس 1944 إلى الانشقاق 1959.

كم هو عدد التونسيين و الجزائريين و المراكشيين و الليبيين و الموريطانيين الذين سمعوا بهؤلاء الثلاثة ثامر و الحمامي و ابن عبود و باستماتتهم في الدفاع عن الفكرة المغربية ثم بموتهم الفاجع في حادث طائرة سنة 1949؟ إن غاية هذا البحث ليست مجرد إحياء للذكرى. إنها محاولة لإعادة الحياة إلى ذاكرة مغربية قُلت فيها الرموز الفكرية السياسية المؤمنة و الفاعلة.